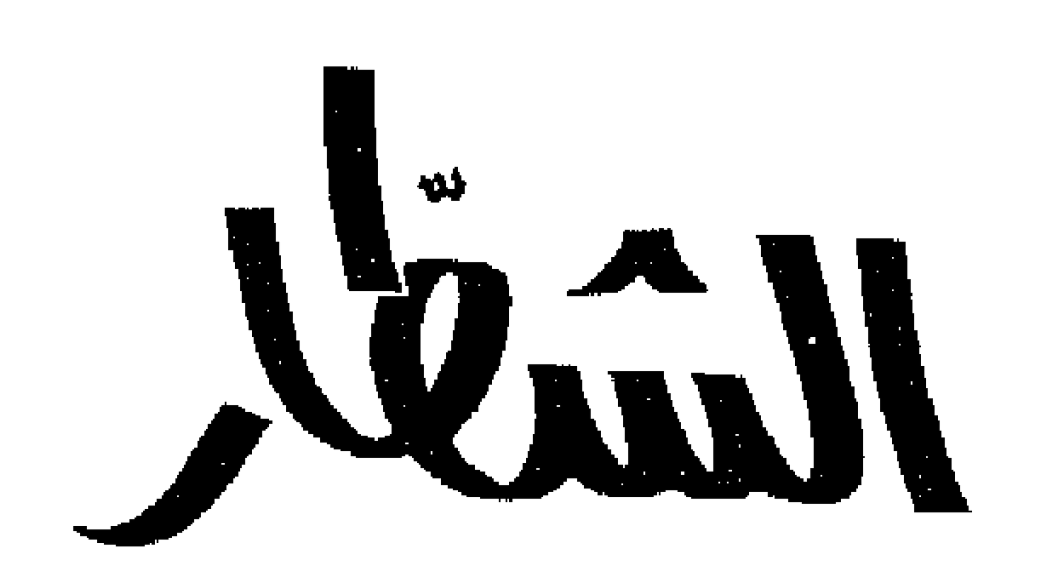

محمد شكري
الشطّار
رواية
دار الساقي


الشعر

محمد شكري



يليه

البنية النصية لسيرة التحرر من القهر

بقلم د. صبري حافظ



الطبعة الأولى ١٩٩٢
ISBN 1 85516 767 0

الغلاف:
جزء من لوحة «الحمّال الصغير» (١٩٦٤ ـ ٦٥)
للفنان البريطاني بيتر بليك

Peter Blake, Le Petit Porteur (detail), 1964 - 65

DAR AL SAQI
United Kingdom: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH
Lebanon: P.O.BOX: 113 / 5342, Beirut.

دار الساقي ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان

زهرة دون رائحة

قدام الحافلة، التي نزلت منها، اقترب مني طفل متسخ، حافي القدمين، في حوالى العاشرة من عمره.

- الفندق، أتريد فندقاً؟
- سوق الكبيبات، أين سوق الكبيبات؟
- اتبعني.

ينظر إليّ وإلى حقيبتي البالية. أراد حملها. أعطيته خمسة سنتيمات اسبانية. تَشاكَرْنا وانصرف. السوق عامر ببائعي المواد الغذائية والثياب المستعملة والجديدة، في الدكاكين وعلى ساحة السوق. هناك الجالسون والمتجوّلون. الشمس تغرب. أصوات الإذاعات العربية تُسمع في الدكاكين. تمشيت في السوق بضع دقائق. سألت بائع ثياب بالية عن قهوة السي عبد الله. أشار إليها بحركة سريعة، ولا مبالاة، ومضى ينادي في المزاد العلني بأثمان الملابس التي يحمل بعضها على كتفه، وأخرى في يديه. يسار مدخل القهوة حاجز خشبي معروضة عليه مأكولات: سمك وفلفل مقليان، بيض مسلوق وركام خبز أسود. الذباب ينطّ على الكل. قرب الوجاق،

طاولة كبيرة مستطيلة، حولها أشخاص يلعبون الورق، آخرون حول طاولات أصغر، معظمهم يدخن الكيف. البؤس بادٍ على سحناتهم وثيابهم. انتبه بعضهم إليّ. جلست في ركن. إلى جانبي طاولة صغيرة قذرة. طلبت من الوجاقي شاياً أخضر بالنعنع. فكرت أنه السي عبد الله. كهل جالس قربي يبيع الكيف. ذكّرني بِعَفْيونَة في قهوة السي موح في طنجة. اشتريت منه لفّة. عمّر لي «شقفاً»[١] من مَطويه[٢]. كلما طلبت منه «السبي»[٣] يمده لي عامراً بكيفه ثم أرده له عامراً بكيفي. يدخنه أو يعطيه لأحد الجالسين قربه[٤].

جاءني السي عبد الله بالشاي. سألته عن ميلودي صديق حسن الزيلاشي.

- لم يجيء طوال ثلاثة أيام.

في الليل غلبني الكيف، والجوع، والغربة. رشفت من كؤوس شاي بعضهم ورشفوا من كأسي. أحسست بالألفة بينهم. حدثتهم عن تطوان وطنجة ووهران، وحدثوني عن العرائش. قال أحدهم:

- كيقولو طنجة اللي ما شافاتي كتبكي عليه، واللي شافا كيبكي عليها.

- إنها عريقة تهزم كل من يعشقها.
- العهرُ الفاحش قَبَّح أجمل ما فيها.
- لكنها جميلة وتاريخها عريق.

تكاسلت في الخروج لأفتش عمّا آكله. صورة الذباب، الذي

رأيته عندما دخلت واختفى الآن، تُغشي كلّما فكرت في أن أطلب شيئاً من مأكولات القهوة. في الغالب لا أقرف من أيّ طعام. أتْعبني الجلوس، والوجوه التي فقدت حيويتها. النعاس يغلبني. أغمض عينيّ وأفتحهما بِتَراخٍ. شاحباً يبدو لي كلُّ ما أراه. ذهب أكثر من كان في القهوة. المقاعد والطاولات فقدت هي أيضاً وجودها. ألقيت نظرة على الحجرات الثلاث المقفلة. الحجرة قبالتي دخل وخرج منها أشخاص بائسون. الأخريان مقفلتان. بانَ لي الحصير الذي هو كلُّ فِراشٍ تلك التي فُتِحَ بابُها. فكرت في أن أسأل السي عبد الله عن ثمن النوم في إحدى هذه الحجرات الجماعية. كلاَّ. يجب أن أوفِّر. لا أعرف ما ينتظرني في هذه المدينة! ربت على كتفي صاحب القهوة وأنا غافٍ.

- سنغلق.

ثلاثة أشخاص يدخنون الكيف حول طاولة اللعب. رجوت السي عبد الله أن يترك حقيبتي عنده حتى الغد. طلب مني أن أكشف له عمّا فيها: صورتان شخصيتان كبيرتان مُؤَطَّرتان، سروال وقميصان وزوجُ جوارب.

همت في طرقات المدينة. لا أثر للحراس من رجال الأمن، أو حراس متاجر الأحياء، والسيارات، كما في طنجة. منتصف الليل أو أكثر. تائهاً أمشي. لا شيء فيها يخيف. طقس معتدل وليلة قمراء. مُنتزه يطلّ على البحر. أضواء تلمع في البحر. فكرت في ليل طنجة المغري إلى حدّ الموت وصيدها البحري: «رأس المَنار»، «مالا باطا»، «مغاور هرقل»، «سيدي قنقوش»، «المَريسة» و«الرّمل

قـال». أنا هنـا وحدي. القمـر ينحجب ثم يبـزغ. قـطفت زهـرة بيضــاء من روض المنــتزه. شَمَمْـتُهــا. لم يـستـيقظ في نـفسي أيُّ إحساس. زهور جميلة. شيء لا يفوح منه شيء. جمال سائب. ربمـا هذا ما يُبقيها مزهرة هنا حتى تذبل أو تقـطفَ عَبَثاً، ثم تُـداس. لا شيء عندي أخشى ضياعه في هذه الليلة. إنني مثل هذه الزهرة التي أسحقها الآن بين أصابعي. سأنام هنا أو في أيّ مكـان آخر. هـواء البحر يخفف نعاسي.

عـدت إلى الكبيبـات. تَقَـرْفَصْت تحت سقيفـة أحــد أقـواس السـاحة. وضعت رأسي بـين ذراعيّ المشبكتـين فـوق ركبتيّ. طيلة يقـظتي لا عابـر أسمع خـطواته في السـاحة. لا خـاطـرة أستـطيـع استعادتها. حتى أجمل الأنغام، التي أحبهـا، تخطر ثم تنفلت. ذهني خاوٍ كما لو أنه مغسول: كأني لم أختزن أية ذكـرى مُسْعِفَة لجميلهـا. صداع خفيف في رأسي وطنين. يخيّل إليّ أني أسمع نبضـات قلبي. ربما بسبب التخدير الكيفي، وفراغ معدتي.

استيقظت باكـراً، امتلاء مثـانتي يؤلمني وشيئي منتصب بالامتـلاء البولي. حركة الناس تَدبّ في ساحـة اسبانيـا. اشتريت بسيـطة من القرّوس(*). في مرحاض المقهى الاسباني تصاعد بولي إلى فوق مثـل نافورة. تَبَلَّل سروالي ويدي. تناولت قهـوة بالحليب. المقهى يـرتاده المسافرون. قهـوة السي عبد الله لم تفتـح بعد. ركبت حـافلة الحيّ الجديد بحثاً عن مدرسة المعتمد بن عباد. حيّ مليء بنبات الصَّبّار، والغبـار، والأزبال، والأراضي البـور. مساكنـه أكواخ من قصـديـر

(*) القرّوس: عجين مقلي يصنعه الاسبانيون.

وطـوب وأهله بَدَويـون. سحناتهم كـالحة مثـل أسـمالهم. أطفـالهم يتغوطون ويبولون قـرب أكواخهم. أجـابني حارس المـدرسة الـذي سألته عن مقابلة المدير:

ـ لماذا تريد مقابلته؟

ـ أحمل إليه رسالة.

ـ هاتها.

ـ أنا مرسل لتسليمها له في يده.

نـظر إليّ كمن أهينَ فيـما تعوده ثم مضى ليستشـير المديـر أو يعود كاذباً عليّ. عاد وأدخلني عند المدير. سلمته رسالة التوصية. ظرْفُها انـدعك في جيبي. أذِنَ لي أن أجلس وراحِ يقـرأهـا. يبتسم. مـاذا يُبْسِمُه؟ أيكون حسن قد خدعني ساخراً منّي؟ وضـع الرسـالة فـوق إضبارة مكتبه وسألني:

ـ من أين أنت؟

ـ من الريف.

ـ وأبواك أين يسكنان؟

ـ أمي تسكن في تطوان وأنا جئت إلى طنجة لكي أُدَبِّر عيشي.

ـ وأبوك؟

ـ مات. (أبي سيموت في صيف ١٩٧٩، بعد ٢٣ سنة).

ـ وماذا كنت تعمل في طنجة؟

ها هو التحقيق يبدأ.

ـ أعمل كل شيء.

ـ كيف أنك تعمل كل شيء؟
ـ أحترف أيّ عمل أجده.
ـ هل سبق لك أن دخلت المدرسة؟

لهجته جبلية.

ـ أبداً.

لقد وقعت في فخّ. الدم يندفق إلى رأسي بعنف. حسن لم يحدثني عن هذا الامتحان ـ التحقيق. «إنك ستسلم الرسالة إلى المدير وسيقبلك في مدرسته»، هذا ما قاله لي. جبيني يعرق. قطرات باردة أحسها تتدحرج من ابطيّ.

ـ آسف. لا أستطيع قبولك في هذه المدرسة. من الأحسن أن تعود إلى طنجتك. هناك يمكنك أن تكسب عيشك كما كنت تفعل.

ـ لكني أفضل أن أدرس. لقد كرهت ما كنت أعمله في طنجة.

شبك يديه فوق مِرْفَقةِ مكتبه. تأمل رسالة التوصية. رفع رأسه:

ـ كم عمرك؟
ـ عشرون.
ـ هل تعرف ما فعله حسن هنا في العرائش منذ أيام؟
ـ لا.
ـ لقد وجدوه مخموراً في المسجد مع صديق له. إنهما الآن مطرودان من المعهد.

قلت لنفسي: أما أنا فلن أتناكح مع أحد. فيما بعد سأعرف أنهما

كانا ينامان في عِلية المسجد التي ينام فيها التلاميذ الذين لا منحة لهم ولا مأوى. حسن غَرَّرَ بي إذن. أجبت المدير بلهجة من يدافع عن تهمة وجهت إليه خطأ:

ـ أنا لست مثله. (ابتسم). لا أعرف أنه فعل ذلك. إن ما فعله حرام.

في الواقع لم يكن يهمني ما فعله. في طنجة قال لي: «أنا ذاهب إلى تطوان ثم سأعود إلى العرائش».

ـ آسف. إن القسم الدراسي الذي تستحقه يدرس فيه أطفال صغار وأنت لك لحية. والذين هم أكبر منهم سِنّاً يحفظ معظمهم القرآن، والجارومية، وابن عاشر.

(معك الحق. ولي لحية أخرى في أسفل بطني). لمست وجهي بتلقائية. لم أحلقه منذ أيام، وكنت أحلقه كل يوم عَسى أن تُطيعَ المُمْتَنِعات.

ـ سأحاول أن أتعلم جيداً في أقرب وقت. سأحلق وجهي كل يوم.

فكرت لنفسي: إن الأنبياء لم يكونوا في حاجة إلى من يعلمهم. كل شيء كان ينزل عليهم جاهزاً. أما من ليس منهم ينبغي له أن يتعلّم، مثله مثل القرود.

قال بهدوء قاتل:

ـ آسف.

رنّ الجرس. من خلال نافذة المكتب أرى الساحة والتلاميذ يتسابقون على المراحيض والصنابير، يتدافعون. يتقافزون. تخيلتني بينهم. فاتني أن أكون واحداً منهم. دخل شخص متعجرف حاملاً كُتباً. طلب منه المدير أن يصحبني ليمتحنني في الرياضيات. إن وقت الدينونة جاء. هكذا فكرت. تبعته إلى حجرة درس شاغرة. أعطاني طبشورة وأملى عليّ أرقاماً. لا أعرف أن أكتب أرقاماً في وسطها أصفار. أكيد أخطأت عندما أملى عليّ أرقاماً ثم أخرى أضعها تحتها بالترتيب، طالباً مني أن أجمعها، ثم أرقاماً أخرى، في نفس الوضع، أن أطرحها منها. لم يسبق لي أن قمت بهذه العملية إلّا في ذهني. ثم أملى عليّ أصفاراً، وما أصعب وضع الأصفار في الوسط!

عدنا إلى المكتب. لم أرتح إلى هذا المعلم. إن القرود تتلاطف فيما بينها، أما هذا فلم يفعل. شعرت أني بذلت مجهوداً كبيراً. أن أحمل خمسين كيلوجراماً من الثقل وأسير به كيلومتراً أخفّ عليّ من بذل هذا المجهود الذهني.

وجدنا مع المدير شخصاً لابساً الجلباب. سألني بالإسبانية عن اسمي، ومسقط رأسي، وسنّي، وطنجة، وما كنت أعمل فيها. أجبته، فاستبشرت ملامحه:

- أين تعلمت الاسبانية؟
- مع جيراننا الغجر، والأندلسيين في تطوان وطنجة.

لم يكن متجهماً مثل معلم الحساب. فكرت في أنه ربما يدرّس

الاسبانية. قد يكون المدير طلب منه أن يمتحنني شفوياً. طلب مني المدير أن أرجع غداً.

مشيت عائداً إلى المدينة. سلكت طريقاً غير الرئيسية المُعَبَّدة المُزَفَّتة، التي جئت منها. الطريق مغبرّة. قدماي تغوصان في ترابها الرملي. على جانبيها سياجات من التين الشوكي، وأكواخ يخرج منها أطفال حفاة، أنصاف عراة، وسخين، وكلاب هزيلة، لقيطة ودميمة، ودجاج ينقب الخراء. في نهاية الطريق بئر عارية مُعَطَّلة. دنوت منها. أطللت على هَوِيَّتها(*) المظلمة. صمتُ عُمقها أغراني بالسقوط. صمْتٌ أيقظ في نفسي كلّ يأسي: صمتي الأبدي. التقطتُ حجراً كبيراً جَهِدْتُ في حمله وألقيته في الهَوِيّة. سمعت دويّ سقوطه في القاع الجاف ثم صمتاً، وأنا مُطِلّ على الظلام، ورائحة مقرفة، دافئة، مُختزنة، تتصاعد من القاع. ابتعدت عن فوهة البئر الخَنِزَة. ظل طنين السقوط في مسمعي لحظات. تخيلتُني أسقط ذاك السقوط الأصمّ. لستُ حجراً. ربما سأظل أنزف في هوية البئر حتى أهمد. الأفظع ألا أموت. لست حجراً. استأنفت سيري. صوت السقوط يجذبني إليه بسحرٍ قَويٍّ وأنا أقاوِمُه حتى أنقذتني شجرة انبطحتُ في ظلالها الوارفة.

كان شاب قد ألقى بنفسه على صخور ميناء طنجة. جاءت أمه من بادية الفحص وذهبت إلى المقبرة. قَصّت مأساة ابنها على الحارس.

«لا أعرف شيئاً عمّا تحكينه. لقد دفنا كثيراً من الأموات هذه

(*) البئر البعيدة القعر، جمعها هوايا.

الأيـام. اذهبي إلى المصلحة المسؤولـة في العمالـة عن تسجيل أرقـام الموتى الغربـاء. اذهبي عندهم وقُصّي عليهم حـادثة مـوت ابنـك. هناك سيقولون لك رقم قبره إذا عرفوه».

«يا لهذا الزمان. لم يبق من ابني الحبيب عبد الواحد سوى رقم، إذا عرفوه!».

كانت امرأة بائسة. جـاءت ورفعت وجهها المكـدود إلى السماء، وبكت ضارعة إلى الله أن يغفر لابنها اثمه. ندبته حتى أغمي عليها ثم أفاقت مهووسة بابنها، وانصرفت عائدة إلى قريتها. تذكـرت أن أمي هي أيضـاً امرأة بـائسة: تُصـلّي من أجـلي، وتضرع إلى الله أن يحفظني من كل مكروه.

شرح الكلمات الدارجة:

(١) الشقف: يشبه كشتبان الخياط في حجمه وشكله تقريباً، مقوس ذو فوهتين، أو هو يشبه القشرة الملتصقة بأسفل ثمرة شجـرة السنديـان، وهو عـادة يصنع من الفخار، وفي حالة نادرة من الألومنيوم، وفي حالة أندر من الذهب الخالص.

(٢) المَطوي: هو محفظة صغيرة مستـطيلة أو مربعـة تصنع عـادة من جلد الماعـز أو غـيره، تلف مرتـين أو ثلاثـاً، وينتهي طرفهـا الذي تُـرْبَطُ به بِخَيْط من الجلد لِشَدّها. وهنـاك «النبولـة» التقليديـة وهي مثانـة الكبش أو العجل، وكلتـاهما تستعمل لحفظ مسحوق الكيف.

(٣) السبسي: هو قضيب يدخـل طرفـه الأسفل في فـوهة الشقف لتـدخين الكيف، يصنع عادة من الخشب، لكن هناك بين الموسرين من يصنعه من الفضة. وقد عرفت حشاشاً، اغتنى ببيع الحشيش، صنعه من الذهب الخالص، وهو اليـوم يقضي معظم وقته يحدق في الشمس من شروقها إلى غروبها، بعـد أن أفلس في تجارته، وعاد إلى التدخين في السبسي المصنوع من الخشب. إنه غليون الكيف.

(٤) هذه عادة معروفة بين مدخني الكيف في المقاهي الشعبية، وهم أيضاً يتبادلـون الرشفات من كؤوس بعضهم بعضاً برهاناً على إلفتهم وتصادُقِهم.

حين يفرّ السادة يموت العبيد

عمال ومشردون يتجمعون في ساحة اسبانيا. الأصوات تصرخ في هياج:

ـ ليسقط الباشا.

ـ ليسقط الخونة.

يندفعون نحو منزل الباشا صائحين:

ـ اساطْ اباطْ، الباشا تحت السباطْ.

كان باشا المدينة قد ذهب إلى سوق «ثلاثاء الريصانة»، وألقى هناك خطاباً على الفلاحين. لم يرقهم خطابه فشتموه ورموه بالحجارة وضربوا بالهراوات فأطلق حراسه النار عليهم.

ـ لا بدّ أنه تكلم معهم بلغة ما قبل الاستقلال(*).

ـ انظر، إنهم يتكاثرون مثل النمل!

المسيرة بدأت في صخب: رجال ونساء وأطفال. «رجال

(*) كان الباشا عميل الاستعمار الاسباني.

النظام» يحيطون بالمتظاهرين. ينظمون المسيرة والهتافات المعادية للباشا. شارة الراية المغربية على سواعدهم(*) تؤكد سلطتهم.

- لا أحد جاء من رجال الأمن.

- لا أظن أنهم سيجيئون. ربما صدرت إليهم أوامر بعدم التدخل. كل الناس يعرفون الآن أن الباشا ضد الاستقلال.

الأطفال يرددون نفس الهتافات المعادية للباشا التي يهتف بها الكبار. يطعنون في الهواء أشخاصاً وهميين صارخين. يتعلمون القتل بمختلف الأسلحة: حجر يتخيلونه قنبلة ثم يرمونه في الفراغ: بوم، بوم، بوم... ! عُصَيَّةٌ تشكل لهم خنجراً أو مسدساً، هراوة، بندقية أو رشاشاً... كانوا أكثر عدوانية من الكبار. توقفت المسيرة قبالة المنزل. هتافات:

- سلموا أنْفُسَكم.

طلقة نارية، في الهواء، من إحدى نوافذ منزل الباشا. تراجع الجمهور إلى الوراء. صاح أحدهم:

- لا تخافوا. إنهم يحاولون إخافتنا.

(*) حدث في طنجة، بعد الاستقلال مباشرة، أن بعض المتحمسين لسيادة النظام بين الناس كانوا يسمحون لأنفسهم بأن يتزيوا بملابس عسكرية، بقطعة واحدة (بنطال أو سترة أو قبعة) أو بذلة كاملة، بحرية أو برّية أو جوية موسومة برتبة ضابط وساعد شارة الراية المغربية. كانوا يُبادِلون بها بحارة البواخر الحربية الأميركية وغيرَها أشياءَ من الصّناعة التقليدية المغربية. لم تكن السلطات تعترض عليهم. لقد كانت كثير من الأشياء مُباحة في تلك الأيام.

أخرج «نظاميٌّ» مسدساً، آخر يحمل بندقية قديمة. يدخلان منزلاً مواجهاً لمنزل الباشا. تبادل إطلاق النار من المنزلين(*). تفرَّقوا، هَرَبُوا. عادُوا. اصطفت، قرب منزل الباشا، فوق الرصيف، فرقة عسكرية اسبانية يرأسها قبطان.

- إنهم خائفون. لا يقدرون أن يطلقوا علينا. يحاولون إخافتنا. سنحرقهم في المنزل.

عاد أشخاص حاملين صفائح نفط. أشعلوا النار في مَرْآبِ المنزل. توقّفت الطلقات من منزل الباشا. فجأة انفتح الباب وظهر عبد الباشا رافعاً رشاشه فوق رأسه. أسودُ وضخم. صاحتِ الجُموع:

- رابَح! رابَح! ها هو رابَح!

حاول القبطان منعهم من الهجوم على العبد، لكنهم جُنُّوا مُنْدَفِعين إليه. أَلْقى رابَح برشاشه على الأرض. الدماء تسيل على وجهه. لم تَنِدَّ عنه صَرخة. نَشبوا أظافرهم في ثيابه، ولحمه. يَهْوُون عليه بالهراوات. تَرَنَّح تحت الضربات الوحشية المجنونة ثم سقط. جيش يندفع لتمزيقه بمختلف الأدوات. يسحبونه إلى عرض

(*) كانت الطلقات تصدر من منزل الباشا من عدة نوافذ. وتبيَّن فيما بعد أنه لم يكن داخل المنزل غير رابَح المشهور في المدينة بعبد الباشا. كان الناس يظنون أن الباشا ما زال موجوداً هناك بينما عرفوا، فيما بعد، أنه فرّ إلى اسبانيا مع زوجته الإسبانية عن طريق تطوان، وسبتة، تحت حماية الاسبان إلى حدّ قطع الاتصال التليفوني بين العرائش وتطوان.

الطريق. النساء يزغردن. الأطفال يبتهجون صارخين. انبثق رجل من بين الزِّحام تَجَمَّع فيه كلُّ جُنونهم وكَسر زجاجةَ نفط على رأس العبد. آخرٌ يُشعل النار في طَرَفِ هَراوة منقوعة في النفط ويَرميها عليه. يبتهجون بجنون. احتفال بدائيّ. ابتهاجات وصرخات غَضْبَى على الضَّحية.

- مُتْ باباكْ الخنز!
- مُتْ باباكْ الجرو!
- مُتْ باباكْ! متْ باباكْ!

يتمرغ مُنْتَفِضاً وجسمه شعلةٌ هائلة. هَمَد. رائحة الشَّحم البشريّ تُقْرِف. كتلةٌ فَحمية مُتهرِّئَة. يَطعنونه بالسكاكين والسواطير وبأظفارهم. إنهم يَفْتَرسونه. امرأة خطفت عظم الساق ببعض لَحْمِها وعَضَّت عليها بِوَحشية، ثمّ لَفَّتها، بِجُنون، في قطعة ثوبٍ، مزقتها من ثيابها، ودَسَّتها تحت إبطها واختفت.

- ماذا ستفعل بذلك العظم؟

- سَتَسحر به لِزَوْجِها حتّى لا يضربها أو يعشق امرأة أخرى أو يطلّقها. هكذا يقولون.

بعد لحظات لم يبقَ من الجثة غير بقايا أحشاء ورائحة شحم مُقيئة. يُخْرجون الأثاث من المنزل ويُراكِمونه في عَرْض الطريق. سلبٌ وإحراق. أَشعلوا النار في بعض الأثاث والكتب. سلبٌ وإحراق. صَرَخ رجال النظام في الهائجين:

- الكتب لا تحرقوها. سنحملها إلى مركز الحزب(*).

سُحُبُ الدخان تَنبعث من المنزل. تجاوبت زغاريد النساء المتظاهرات، وصرخات الأطفال الشرهين. الاسبانيون المدنيون يُشاهدون ما يحدث، في صمت، من نوافذ منازلهم وشرفاتها. الجنود الاسبانيون لم يتحرّكوا من مكانهم على الرصيف. تَرَاكَضَ المتظاهرون مُتَفرقين جماعات نحو اتجاهات منازل عملاء الباشا. وصلت شاحنة وسيارة جيب. أخذوا يشحنون الكتب، والأثاث الثمين، الذي لم يحرق أو هو نصف مَحروق. رجال النظام يعترضون طريق الذين سَلبوا بعض الأثاث وينزعونه منهم. هناك من خلع ثيابه وارتدى ما سلبه من ركام الملابس. اقتحموا منزل عميل في طريق بَرشيلونة. لم يجدوا أحداً. نَهبوا وأَحرقوا. جُنُّوا من جديد راكضين نحو منزل مُتّهم آخر بالخيانة الوطنية. ظهرت جماعة هائجة من باب الكبيبات تَجُر بعُنف عجوزاً على الأرض فاقد الوعي. يطعنونه بالسكاكين(**). العجوز الآن شبه عار. عيناه زائغتان. كتلة جسدية فقدت إنسانيتها. قَيّدوه من أطرافه بالحبال، وصلبوه إلى شجرة، قبال باب الكبيبات. صَبُّوا عليه النفط وأشعلوا فيه النار. صرخات وابتهاج وزغاريد وقفز. الشحم البشريّ بدأ يفوحُ في ساحة اسبانيا. عينا العجوز تجحظان. تدوران في

(*) حزب الاستقلال.

(**) في ذلك اليوم كان يَكفي أن يَتّهم أحدُ المتظاهرين أيّاً كان بالخيانة فيحرق فوراً. كان العجوز (الشريف السوماتي) المحروق قائداً سابقاً في قرية خميس الساحل. قيل، فيما بعد، أن أحد المُتظاهرين كان مديناً له بِمبلغٍ من المال، عاجزاً عن تسديده، فدَبَّرَ له هذه المكيدة حتى يتخلص منه.

محجريها. ينتفض جسده. الإسبانية، بائعة الشروس (حانوتها جنب باب الكبيبات قبالة شجرة المَصلوب)، تصرخ:

- يا إلهي، لا! لا! لا!...!

أغمي عليها. قيل ماتت بالسكتة القلبية.

في الليل خلت الشوارع إلّا من بعض المتشردين يجمعون بقايا الأشياء المحروقة في منزل الباشا، ومنازل العملاء. أمام الشجرة توقفت سيارتان: واحدة للإسعاف وأخرى للأمن. رجال الإسعاف مُقَنَّعُون ولابسون قفازاتٍ من المطّاط. يَجمعون أشلاء الجثة المتناثرة في صندوق ورجال الأمن يحرسون الساحة كلّها. ضَخّوا مسحوقاً داخناً على الشجرة المحروقة، والأرض، فامتلأ جزءٌ من الساحة بِضَباب ذي رائحةٍ كريهة خانقة، لكن رائحة الشحمِ البشريّ كانت أقوى: ظلت عالقة في شامَّاتِ الناس.

أول درس

صحبني المدير إلى قسم(*) وقدمني إلى المعلم:

- السي محمد، هذا الولد سيدرس عندك.

خرجا قدّام الباب وتكلما. لا شك يتكلمان عني. أكيد أن المدير جاء بي إلى هذا القسم ليضعني تحت الاختبار. قد يقول لي بعد أيام: «إنك لا تستطيع أن تستمرّ في الدراسة هنا. أحسن لك أن تعود إلى طنجة».

تَهامَس التلاميذ ناظرينني فاحصينني. أحسستُني مَسروقاً بينهم. لم يسبق لي أن كنت بين أكثر من أربعين شخصاً يفحصونني من تحت إلى فوق. في القاعة تلاميذ في مثل سنّي، لكنهم يعرفون القراءة والكتابة. على السبُّورة، درس مكتوب، وأمامهم الدفاتر. سأعرف أن هؤلاء الكبار جاءوا من البادية.

عاد المعلم وأجلسني، في الصف الوسط، إلى جانب أصغر

(*) لم أعرف أني كنت في القسم الثالث إلا بعد يومين: (المتوسط الأول حسب مصطلح اليوم).

تلميذ في القسم. في حجرة الدرس ثلاثة صفوف: عن يَميني أربع تلميذات ناهدات في المقاعد الأولى.

المعلم:

- هذا رفيق جديد. حاولوا أن تَتَعاوَنُوا معه.

نظروا إليّ مُتَهامِسين مُتَحركين في مقاعدهم. ضرب المعلم بمسطرته على مكتبه. سكتوا. معظمهم يلبس الجاباب. نظراتهم مَبهورة. كان سهلاً عليّ أن أميّز البدويين منهم، والمدنيين، من خلال ملامحهم وهِندامهم. يَنقلون الدرس المكتوب على السَّبُّورة. تُرَى ماذا ينقلون؟ أمامي دفتري، وقلمي، في انتظار كيف أبدأ أول درس. كانت رموز العالم تنتقل إلى صفحة رفيقي في الطاولة وصفحتي بيضاء. أُحَدِّق فيهم وأفكّر: يكتبون بخفة. أيتركني المدير أتعلم مثلهم؟ إذا لم يتركني فَحَتْماً سأعود إلى طنجة لكي أعاشر مُحتَرِفي الفِسق دون أن أعرف شيئاً مِمّا يَحدث في هذا العالم، من خلال رمُوزه. ما دمتُ قد جئت فينبغي لي أن أعلم. «الحياة الحقيقية توجد دائماً في الكتب». هكذا قال شخص في طنجة.

تَمَشّى المعلم ببطءٍ ناظراً إلى كتابة بعض التلاميذ دون أن يتوقف حتى وصل إلى طاولتي. رجل هادىء، ودود، لا شكّ أنه لم يعش مع أولاد الزِناء. انحنى على دفتري وكتب على الصفحة الثانية كلمات، كل واحدة في سطر، ناطقاً إيّاها بصوت خافت ثم طلب منّي أن أكرّر كتابة كل كلمة حتى يمتلىء السطر. لم يكفّ رفيق طاولتي الصغير، النحيف، والوديع، عن النظر إلى دفتري وإليّ، وإلى يدي، منذ رآني أحاول كتابة كل كلمة بمَشَقّة. يدي تَرعش

مـع خطِّ كـلّ كلمـة. نـظراتُـه المختلسـة تُضَـاعِف من رعشتي وتشنجني. مـلأت السـطور الثـلاثـة. مـرة أخـرى ضممتُ ذراعيّ ناظراً إلى المعلم مُتَمشيـاً بين الصفـوف أو إلى التلاميـذ مُنْكَبِّين عـلى نَقل الدرس. بعضهم كان قد انتهى من الكتابة. اقترب مني وألقى نظرة على ما كتبته:

- حسناً. قريباً ستتعلم، إن شاء الله!

ثم طلب من رفيق طـاولتي أن يكتب لي كلمات في مستـوى مـا كتبت. تَهامَس التلاميـذ. استقام المعلم واقفـاً ومَسح القسم بنـظرة شـاملة. سكَتُـوا. فَـرِحَ رفيقي، بنـظرات وحـركـات، أكـثرَ مِمّـا فَرِحْت... شَعَرْتُني أقلّ واحدٍ بينَهُم. لم أكن أعرف سوى الحروف التي علّمني إيّـاها حميـد في طنجـة. حـزنت. مـذنب. مكـاني ليس بينهم. لقـد جئت من عشيرة القَـوّادين، واللصـوص، والمُهـربـين، والقحاب. لكأني في مكـانٍ مُقَدَّسٍ أُدَنِّسُـه، ولكن قد يكـون بينهم من هم أبنـاءُ هؤلاء المَنحـوسـين مُجْتَمعـين. عَـزَّيتُ نفسي. إنني في مَطهرٍ إذن. لـو لم يأتـوا، هم أيضاً، إلى هنـا، فَلَرُبّما يَصِـيرون مِثْلَما كنت. زالت كآبتي وأنا أدافـع عن نفسي حتى ولو كنت مُخـطِئاً فيـما تَصورتُه عنهم. صـارَعْتُ فكرةَ البقـاء هنا أو العـودة إلى طنجة. إن مَرجي الآسن ينتظرني هناك أو في أيّ مكان آخر، لكني سأبقى هنا حتى ولو زالت زرقةُ السَّماء إلى الأبد في حياتي.

كتب لي رفيقي كلمات ناطقاً إيّاها بِخُفـوتٍ مثلَ المعلم. شكـرته ورعشت يـدي، وأجهـدتُ نفسي من جـديـدٍ مُحـاوِلاً تقليـدَ خَـطّه الجميل. منذ تلك اللحظة صرت أتعلم من التلاميذ أكثر ممّـا أتعلم من المعلمين.

في المطعم

كنا نتسابق، على حيازة المكـان الأول في الصف، قبل الـدخول إلى المطعم. يراقُبنا معلم مدة أسبوع، أثناء وجبتي الإفطار والغَداء، ثم يخلفــه معلم آخـر. للبنــات صفُّهن. يـدخلن قبلنــا. لم يكنّ جميـلات. واحدة كـادت أن تكون. الحَمحمـاتُ والهمساتُ تختلط برَنين المـلاعِق والصُّحون. المعلم الحـارس يَتَجَوَّلُ داخـل القاعـة. أحياناً يخرج قدام الباب مُولِياً لنا ظهـره، ناظـراً إلى فراغ السـاحة. حينئذ يَكثُرُ ضَجيجنا، وَيَتعالى، فَيَنْهَرُنا صارخاً:

ـ الحمير. . . من لا يريد أن يأكل ويسكت فليغادر القاعة.

ثم يعود إلى تدخين سيجارته عند العتبة. كان هو المعلم المُتجهم الذي اختبرني في الحساب. الفقر مسخ ملامحنا. لم يترك لنا سوى ما هـو إنسانيّ فينـا. ربما يصرن جميـلات هؤلاء الصَّبايـا، إذا كـافحن فقرهن، في المستقبل. الصحن الأول من القطنيات، تجـده جاهـزاً على المائدة. الذباب يتساقط في الصحون. لا بدّ، أحياناً، من إزالة ذبابة أو أكثر من الصحن، ميتة أو ما زالت تكافح حياتهـا. يُغرقُهـا في المرق من لا يعاف ثم يُزيلها حتى يحـلّ الطّعـام وتموت الجـراثيم فيـأكل. (يعتقـد بعض الناس أن أحـد الجناحـين فيه جـرثوم، وفي

الآخر ما يبيدُه) ما زلت أتساءل عمن اخترع هـذه الوصفـة الذكيـة عن سقوط الذباب في طعام الجياع وشرابهم. ربما لِتَسكين آلامهم! البخار لا يفتأ يفور من آخر الصحون التي وُضِعَت. أتعمد الجلوس في آخـر القاعـة حتى يُتَاحَ لي اختـلاس كسرة خبز من بعض أوائـل الموائد قاصداً مائدتي الأخيرة في الصف أو قبلها. الطعام لا يكفينا، نحن الكبـار. نطمـع حتى في الفُتاتـات المتسـاقـطة. نستغـل أيضـاً فُقـدانَ شهية المَـرضى الحاضرين أو المُتَغيّبـين فنسطو عـلى الفائض. الصحن الأول نلتقمه بحذر، لأنه لا يخلو من الحَصى. أذكر واحـداً منّـا مَضَـغ شـظيـة زجـاج صغـيرة، في صحن الأرُزّ، فَبَصَق دَمـاً. الصحن الثاني فيه بيضة مقلية أو سمكة مع صلصة طماطم أو قطعة لحم. غالباً ما تكون قاسية أو مطاطية فنخشى بلعها حتى لا تنحصر في الحلق (نقتصر على مضغها ومصِّها ثم نَتفلها) القـطنيات والخضر هُمـا الأساسُ في طعـامنا. أقتنص ثـلاث أو أربـع ذبـابـات خـارج المـدرسة. أَلُفّهـا في وُرَيقةٍ كي أَرميهـا في صحن، أو اثنـين، قـرب مـائـدتي. أحيـانـاً، حتى لا أتـأخـر عن الـدخـول، أصـطادُهـا في المراحيض. ليس هناك ذباب قَذِرٌ وذُبـاب نظيف. رغم احتيـاطي، عند وضع الذبابات، فإن رفاقاً يرمَقونني، لا أحد وَشى بي. ضَبطني معلم الحراسة بنفسه أختلس كسرة خبز فصفعني وطردَني من المطعم مدة ثلاثة أيام. تَضامنَ معي بعض الرفـاق فراحـوا يُوَفّـرون لي من وجبـاتهم كسرات خبز وسمكـات، وقطع لحم صغـيرة. المعلم كان أعدَلَ من أن يُشفق.

كنـا نحترم فقـرنـا ونتـآزر. كلُّنـا، تَقـريبـاً، كنّـا فُقـراء. يعتـبر المستغلون فقرنا شيئاً طبيعياً.

بعد ذلك التهالك على الغداء أكون في حاجة إلى النوم حتى أُعَوِّض ما فاتني من الليل. خارج المدرسة هناك مقعد من الإسمنت المُسلّح ملاصِق لأحد جدرانها. أحياناً يَعْمُقُ نومي فيفوتني درس أو كُلّ الدروس.

كان في الحيّ كسيح متفوّق على كلّ التلاميذ في الرّياضيات. ربما كان أيضاً مُتفوقاً على بعض المعلمين، كما سمعت تلامذة قسم الشهادة يقولون. انقطع عن الدراسة في مستوى الشهادة الابتدائية دون أن يشارك في امتحان الالتحاق بالتعليم الثانوي. أمه ماتت وأبوه هجر المدينة منذ أعوام ولم يعد قطّ. لا خبر عنه. ترك كَسيحه مع خالته البَكماء الصَّماء تكسِب العيش من نبش أزبال الصباح الباكر وتترزق الله بالتسوّل في محطة السفر. يقوم بالعمليات الحسابية والتلاميذ حوله يسألونه وهو يفسر لهم حلّ العملية بعدة طرق. تقديراً لذكائه الرياضي يعطيه بعض التلاميذ سنتيمات، أو سجائر منفردة، أو شيئاً من الأكل. أحياناً يَتراهنون على حَلّ إحدى العمليات، فيما بينهم، أمامه فيقاسمه الرابح نصيب المُخاطَرة. كان يقدم لنا مساعدته دون مُقابِل مَشروط. حين يُسعفني الحظّ في الحصول على بعض البسيطات أشتري له سجائر شقراء كان يفضلها على السوداء. أشتريها من تجار العربات المتنقلة في المدينة الذين يبيعونها منفردة.

أذهب إلى حقل قريب من المدرسة. أستلقي في ظلال شجرة وأدخن الأعقاب التي ألتقطها من شوارع المدينة في حالة إفلاسي التام. أتخيّل أشكال السُّحب العابرة حيواناتٍ ضخمة، أسطورية دون أن أفكّر في شيء، أو أستعيد الأكثر مُتعة من ذكرياتي في

طنجة: ذكريات الأفخاذ، والرَّبوات الجميلة، والصُّدور الناهدة، فأستمني. إن هذا المَزيج من الذكريات المُتْالة يُسْلِمُني إلى غَفوةٍ أُفيق بعدَها وكأني مِتُّ ساعات. هناك مَقبرة نَصرانية أترددُ عليها. أتجوّل بين مَمرَّات قبورها. أجد إمتاعاً، في محاولة قراءة الأسماء، والعبارات، على الشواهد، حتى تلك التي أقرأها ولا أفهمها. لا أعرف ما يَحفِزُني دائماً إلى التجوّل في المقابر؟ أهُوَ سلامُها أم هي عادتي أيّامَ نومي فيها؟ أم حُبّاً في الموت؟(*).

(*) ما زلت أمارس هذه العادة حتى اليوم. بعض كتاباتي - منها الجزء الأول من سيرتي الذاتية: الخبز الحافي - وهذه التي أكتبها اليوم، كتبت فصولاً منها في المقابر اليهودية، والنصرانية، والإسلامية خاصة المقابر التي يَرجع عهدها إلى القرن التاسع عشر في طنجة، ربّما لأن المقابر القديمة أكثر إيحاءً، أو لأنّي أحبّ الموتَ القَديم!

القمل المحروق له رائحة بشرية

عاد حسن من تطوان. لقد سوَّى مشكل عودته إلى المعهد مع نائب وزارة التعليم الإقليمي. بدأنا نلتقي خمسة أو ستة من الزيلاشيين في مقهى السي عبد الله. كلهم يدرسون في المعهد. بعضهم يستفيد من منحة خارجية وبعضهم غير ممنوح. في نهاية كل أسبوع يستلمون من أسرهم حاجياتهم أو يسافر بعضهم إلى مدينته. حسن لم يكن يعتمد قطّ على أسرته. كان وإخوته قد جعلوا متجر أبيهم يفلس منذ سنوات قبل أن يقتسموا ما تبقى فيه بعد وفاته. يشتري حسن بعض البضائع الخفيفة: مِكَبّات الخيط، والإبر، وعلب الشوكولاته من المخازن ويبيعها للدكاكين الصغيرة في الكبيبات وغيرها. مرة صحبته فاشترى مِكَبّات خيط من متجر يهودي وباعها لدكاني مغربي على بعد أمتار بضعف الثمن الذي اشتراها به.

ندخن الكيف لأنه أرخص من السجائر ومفعوله أقوى. أعيش على صدقاتهم الصغيرة وصدقات غيرهم من رواد المقهى الفقراء كمثلنا. يعلمونني المواد التي أدرسها أو يراجعونها معي في دفاتري. حسن يعلمني الإنشاء بمحبة ولا يتذمّر أبداً. أخطائي كثيرة، لكن

تجاربي في المواضيع جيدة. عندما أسأله عن قاعدة نحوية يقول لي: «لا تعبأ بعلة المنصوب أو المرفوع. المهم هو أن تعرف الكتابة والقراءة السليمتين. هناك من يعرف قواعد النحو بشكل جيد، لكنه إذا كتب أو قرأ قد يرتكب أخطاء القاعدة التي يحفظها ويعرفها في أكثر من مرجع نحوي».

فكرت: أصحيح ما يقوله حسن، أم أنه يبرر جهله في النحو؟ فيما بعد أدركت أنه على حق.

ميلودي يراجع معي الاسبانية التي يتفوق فيها على العربية. إنه من أكسل تلاميذ المعهد، ومن أكثر المدخنين للكيف بيننا. في المساء يجتاحني جوع يصيبني بالسخفة واضطراب نبضات القلب. استنفد وجبة الغداء المدرسية قبل حلول الظلام. الكيف يضاعف جوعي، لكن لا بدّ منه لتخدير الهمّ والقلق. في الصباح قلّما أصل في الوقت المحدد للإفطار في مطعم المدرسة قبل الدخول إلى القسم. لا أنام جيداً بسبب الجوع والبرد، وحكّ جلدي الوسخ وشعر رأسي والتسكع في الليل. عندما ينتهي ليل المحظوظين في الشارع يبدأ ليلي المشؤوم فيه. غالباً ما يحتفظ لي أكثر من رفيق بكسرات من الخبز آكلها مع الماء في سخط. المسافة بين المدينة والمدرسة تستغرقني ربع ساعة وأكثر مشياً على الأقدام. أيام الشتاء يزداد فيها يأسي. أذهب في المساء إلى الملجأ الخيري. حوالى ربع ساعة من المشي. لم أكن مسجلاً رسمياً للأكل في المطعم. يعطيني المكلف، شفقة، خبزة صغيرة واضعاً بين شطريها مَرَقاً وشريحة لحم أو شحمة، أو سردينات مقلية. إذا سقط المطر لا أجد في الطريق

مكاناً يحميني غير شجرة تكون قطرات أغصانها أكثر إبلالاً. أحياناً يكون المكلّف غائباً فأعود أكثر جوعاً لاعناً كل من أراه يأكل.

مرة ذهبت يوم الجمعة وقت الغداء. الكسكس هو الطعام الذي لم أستسغه قط في حياتي وأنفر من دعواته. ربما لأنه كان هو الطعام الذي أكله المعزّون مع الكرشة بعد جنازة خالي في الريف أيام المجاعة. كنت في السابعة من عمري. دعاني المكلف للغداء مع نزلاء الملجأ. جلست مع أربعة عجزة حَول المائدة. أقرفتني شيخوختهم وعاهاتهم. لقد كانوا أكثر الناس طلباً للرحمة والإنسانية: هذا أعور، وهذا أحول الفم يسيل لعابه، وذاك أدرد (عديم الأسنان)، وآخر ترعش يده، إلى آخر العاهات. انعكست عليّ تشوهاتُهم. تلك أول مرة آكل فيها هناك وآخرها. ينظرون إليّ عاجنين مضغتهم باستلذاذ وتَلَمُّظ. خجلت من نفسي أيضاً لأنه لم تكن فيّ أية عاهة. وضع لي الخادم صحني. أكلت الخضر بسرعة. لم أذق الكسكس وشريحة اللحم التي تتمطط ولا تتمزق بين أسناني كما في مطعم المدرسة. هم يبلعونها بعد مضغ يائس. أتساءل كيف يهضمونها! أخرجت منديلي متظاهراً بمسح فمي فبصقت فيه المضغة المطاطية. أعطاني المكلف خبزة حافية للعشاء وغادرت ومعدتي تتخاصم فيها القطط والتقيؤ يكاد يغلبني قبل أن أصل إلى عتبة الباب. في الطريق إلى المدينة تسلطت عليّ وجوههم. لكأنهم خرجوا من كهف مكثوا فيه زمناً. ليست الأشياء هي مُقرِفتي إنما الإنسان المُشَوَّه. أحسست بِمَغَص في معدتي. دنوت من شجرة وتقيأت المحتوى كله مختنقاً حتى لم أعد أتقيأ غير الهواء. دمعت عيناي ودخت. استرحت قليلاً ثم استأنفت سيري. السلهامي لن

يبخل عليّ بسمكة يُشَهّي لي بها خبزتي الصغيرة. اشتياقي إلى لعينتي طنجة يُحزنني. لها عندي طعم مُغْرٍ حتى في أحقر ظروفي فيها مَهانَة. لا أكاد أغادرها سَئِماً منها حتى يُوتّرني حنينُ جنوني بها كما كنت في وهران أشتاق إلى تطوان. ثيابي تتسخ وتبلى وتفوح منها روائح جسدي. القمل يعشش فيها. حذائي يتسرب إليه الماء. شعري يغزر ويتدبق وَسَخاً. أحكه باستمرار حتى يسودّ ما بين أظافري. حين أمشطه إلى الأمام، لأنظّفه من قشرة الرأس والغبار، يَتَهَاشطُ منه قمل أسود نشيط. في كل مشطة لا أقل من ثلاث أو أربع قملات سمينة، تتحرك بحيوية. موجهاً إياها ـ بعود صغير ـ أجعلها تتسابق ثم أضعها في قصاصة ورق وأحرقها بوقيدة لأتسلى بطقطقة احتراقها.

مدامع العشاق الثلاثة

أبقى في القهـوة حتى تغلق(*)، بعـد منتصف الليـل أهيـم في الشـوارع منتظراً بـاب الله (المسجد الكبير)، أن يفتح عنـد صـلاة الفجر. أنام، في أحد أركانه، على حصير تفوح منه رائحة الرطوبـة البشرية. الحارس الخفـاشي الدائم، أو أيّ نَعَّـاقٍ مَسجديّ عـابِر، يأتي فَيُزَعْزِعُني في سُباتي ويطردني قائلاً:

- هذا مكان الصلاة والعبادة وليس للنوم.

أتـوسل إليـه أن يـتركني. حـين يعنـد، غَيّـاً، ألعن فـرج أمـه، وشجـرة أسـلافـه، جهـراً، وأخـرج حـافيـاً وحـذائي في يـدي إلى الدروب من جديد.

ذات صباح باكرٍ كنت مُكَوِّراً في ركن. أحسست بجسم يتعثّر في جسمي ثم يهوي فوقي. أفقت لألعن في غضب. إنه المختار الحداد

(*) في انتظار موعـد الاغلاق، يـتركني صاحب القهـوة أتمدد فـوق المقعد فـأغمو، رغم ضجيج لاعبي الورق، متوسداً دفـاتري. في الصبـاح أجد لـطخاتِ دمٍ وبَقّاتٍ مَسحوقة بين أوراقها.

الأعمى. سمعت عنه. تلميذ في المعهد الديني. معروف بحججه في التحصيل الدراسي. متفوّق في اللغة العربية وأصولها. يحفظ القرآن والحديث النبوي، والشعر العربي، الملعون منه والمُعَمَّد. اعتذر لي جِدَّ آسِف. أجلسته إلى جانبي في رفق واطمئنان. النعاس ما يزال يغلبني، لكن حضوره أقوى من دعوتي إلى النوم. حين عرف أني أدرس أخرج من تحت جلبابه الصوفي كتاب «مدامع العشاق الثلاثة» لزكي مبارك. عرض عليّ أن نفطر معاً على حسابه في مقهى سنترال ونقرأه. كان يوم أحد. خارج المسجد كاشفته قليلاً عن حياتي، والظروف التي حفزتني إلى الدراسة في العرائش. تآزرنا. يتأوه إثْرَ كلّ كلمة أقولها أو يقولها. هو أيضاً بائس، لكنه ليس متشرّداً مثلي يتيم. لم يتلاعن مع أبيه. لا بدّ أن الله مسرور بهذا اللقاء. له أخ يكبره يعول أسرته، وآخر أصغر يدرس. رَدَّد عليّ مرات، بعربية فصيحة:

- كل شيء يَهون...

يعرف مسالك الشوارع والأرصفة وأفاريزها. عند العبور إلى رصيف آخر يستوقفني على الإفريز. يلتفت يميناً ويساراً كأنما هو الذي سيقودني ثم يقول:

- هيّا بنا الآن!

إنه يرى بسمعه. أتركه يمارس خبرته كما لو كان وحيداً. اشترينا «الشروس» وذهبنا إلى مقهى سنترال. بعد الإفطار أخذت أقرأ له كتاب مدامع العشاق الثلاثة. عندما أعجز عن نطق كلمة صعبة يساعدني على قراءتها طالباً مني إعادة قراءتها أكثر من مرة. قال لي:

- إن العربية لغة صوتية.

أنا الآن أتكلم عن سنة ٥٧. وفي الثمانينات قرأت كتاباً عنوانه «العرب ظاهرة صوتية».

يشرح ويعرب أو يُصرِّفُ فعلاً صعباً. هذا هو الذي سيكون معلمي الحقيقي وأنا قارئه المُلازِم. طُزْ في المعلمين الذين ليس لهم صبر جميل للتعليم!

أقرأ أيّ شيء مكتوب: كتاباً مُعاراً أو مسروقاً، أو ورقة مكتوبة من على الأرض. أغلبها بالاسبانية. عناوين المتاجر والمقاهي يستحوذ عليّ هَوَسُ قراءتها ونقلها، أحياناً، على ورقة أو دفتر المسودات. هي، أيضاً، كُلُّها، تقريباً، بالاسبانية. كنت أستعجل تعلمي بجنون في جميع الظروف القاسية. كان رامبو على حق عندما قال: «ليس من الخير أن نُبْلِيَ سراويلنا على مقاعد الدراسة». هو الذي كتب ورأى.

صارت القراءة والكتابة عندي هَوَساً في الحلم واليقظة. أتخيّل نفسي، أحياناً، حَرْفاً كبيراً أو قَلَماً. بئساً للحلم المُكَوبَس! أحياناً، لا أجد ثمن دفتر فألتقط الأوراق البيضاء المستعملة لأكتب عليها دروسي. إذا كان من تلك التي يُلَفُّ فيها الشروس فالكتابة تنعدم في بقع الزيت. كلمة هنا وكلمة هناك. أتسلّى بهذا الزخرف. أحياناً يتكوّن على الصفحة نوع من التشكيل الصبياني. قذارتي وهزالي أنسياني التفكير في الملذات الجسدية. أحسّ كما لو أني لم أتمتع أبداً بها. تفو في العالم المُقَمَّل، الفائح بالنتانة المقيئة إلى حَدّ الاختِناق.

في قسم الشهادة الابتدائية يدرسنا مواد اللغة العربية معلّم شاب متبجح بنفسه. يعنى بأناقة لباسه أكثر مما يعنى بتدريسنا. يتمشّى بين الصفوف مختالاً متعجرفاً كما أراه في الشوارع وهو يتبع إحدى الفتيات كاشفاً عن أسنانه البيضاء. بين حين وآخر يسوّي عقدة رباطة عنقه على انعكاس زجاج النافذة إذا كانت مفتوحة وإذا لم تكن يفتحها. يحكي لنا النكات أو يطلب من بعضنا أن يحكيها. يضحك لأتفه الأشياء. يقرأ الصحف والكتب في القسم. يطلب منا أن نراجع دروسنا السابقة في صمت حتى لا نشوش عليه استغراقه في قراءتها. أهو جاء ليعلمنا أم جاء ليتعلّم؟ هكذا أفكر في القرد الأمرد الأسمر. يغضب بسرعة، يسبّ من يخطىء في أدنى شيء. إنه ابن أمه الكبير هذا المعلم. كلنا، في نظره، حمير وهو راكبنا بعلمه وعصاه. يضع دائماً قضيباً على مكتبه. يضرب من يغضبه. إن ضرباته تجعل المُعاقَب يقفز ويتقوّس. وقد يرجع إلى مكانه وهو يدمع. إن هذا الولد الكبير المعلم يغضب مثل من هرب منه قرده إلى السطح كما يقال، يكرهني، يسخر من ضعفي في كل مواد العربية. في إحدى الحصص لم أكن قد حفظت قصيدة صفيّ الدين الحلي التي مطلعها هذان البيتان، إذا لم أخطىء:

سافر تَجِدْ عِوَضاً عَمَنْ تفارِقُه
وانصب فإن لذيذ العيش في النَّصبِ
إني رأيت وقوف الماء يفسده
إنْ سال طاب وإن لم يَجرِ لم يطبِ

اقترب مني غاضباً وهوى على كتفي بقضيبه الرفيع ثلاث مرات.

في الثالثة مسني رأس القضيب في أذني اليسرى. ظل يحقّر سني المتقدمة، ومستواي الدراسي حتى ختم غضبه القردي بهذه الكلمات:

- حمار... غبي... أأنت ستدرس؟ عد إلى طنجتك مع أولاد السوق بدلاً من أن تضيع وقتك هنا وتضيّع وقتنا معك.

كانت تلك هي المرة الوحيدة التي يضربني فيها وبعدها اقتصر على السب، بين مرة وأخرى، حتى نسي وجودي. لمست أذني الدامية. استنكار في نظرات رفقائي. تآزروا معي صاغرين. فكرت أن أنهض وأرتمي عليه. أن أتناطح معه كما كنت أفعل في تطوان أو طنجة في المشاجرات حتى ولو انهزمت. أن نتعارك حتى يخور أحدنا، أن أحاول عض أذنه الحمارية حتى أبترها وأبصقها في وجهه، لكن سيكون آخر يوم لي في المدرسة. سأترك أذن الحمار لأسنان الحمير. عندما انتهى الدرس ذهبت إلى المغاسل ونظفت أذني بالماء من الدم المتخثر. كانت قطرات منه قد سقطت على كتفي. بدأت أذني تسيل من جديد بعد الغسل.

يدرسنا أيضاً نفس المعلم الذي اختبرني أول يوم في الحساب. سريع الغضب مثل الآخر، صارم، ينعتنا بالحمير في حجرة الدرس، وفي قاعة المطعم. يحمل دائماً كتاباً، أو كتابين، أو أكثر، باللغة الأجنبية. سمعت أنه يدرس الانجليزية بالمراسلة، ويعرف الإسبانية، وقليلاً من الفرنسية. يدرسنا الحساب والتاريخ والجغرافية. هو أيضاً يضرب بالقضيب على أطراف الأصابع أو يصفع، لكنه لا يغادر حصته حتى يستدرج المعاقب إلى المصالحة

معـه. لم نكن نحقد عليـه مثـل الآخـر. يسـاعـد بعض التـلاميـذ المعـوزين الوافـدين من الباديـة ببعض النقود والثيـاب ويزورهـم في مسـاكنهم متفقداً أحـوالهم مراقبـاً فـروضهم. أنـا لم تشملني رحمتـه ورعايته خارج المدرسـة. لم يكن لي مكان قـارٌّ أنام فيـه. كنت أتبع خطى السكارى، والحشاشين، وطَوَّافي الليل. أجـد لي دائماً مكـاناً بينهم. لقد كانت لنا نفس الذكريات واللغة، لنا عالَمُنا ليـلاً ونهاراً، في لَعْنَتِنـا الجميلة. إن السّكـارى، والحشـاشـين، وطـوافي الليـل، يَتشـابَهون، ويتـآزرون، أينـما كـانـوا، في أيّ زمـان ومكـان. إنهم يَرفضون الدَّخيل عليهم والوسيط، إذا لم يَعتنق لَعنَتَهُم.

بعض رمـوز العالم بـدأت أجد لهـا معاني فيـها أقرأه. نجحت في امتحـان الالتحـاق بـالتعليم الثـانـوي. نقلت من تلميـذ في مـادة الحسـاب. قيل لي إن بعضهم نجـح بالـرشوة أو الـوسـاطـة. قلت لنفسي: أنـا أيضاً غششت في مـادة الحسـاب. سـاعـدني المَـطعميّ السلهـامي على شِراء تـذكرة السفـر وعـدت إلى طنجـة: «لعينتي»، مَهما جَفا كلانا من الآخر.

المرواني

جاء المرواني إلى مقهى الرقاصة كعادته، لكنه اليوم لا يحمل صينيته الكبيرة المملوءة بالأرغفة الباكستانية ليبيعها في المقاهي الشعبية. هذا الصباح يحمل فقط رغيفاً مشطوراً مدهوناً بالسمن والعسل. يتناول إفطاره شاتماً هؤلاء الذين يتهمونه، في غيابه، وحضوره، أحياناً، بخيانة وطنه. أنهى فطوره وصاح بصوت غاضب:

- اليوم سأثبت لهم من أنا، أنا عميل الاستعمار كما يقولون عني.

تهامس رواد المقهى عن الجنون الذي بدا لهم في عينيه. يدخن سيجارته باضطراب. وقف فجأة وأخرج خنجراً كبيراً من حزامه تحت عباءته الفضفاضة البيضاء. تبلبل الزبائن وارتعشت ملامحهم ساكنين في أماكنهم. ألقى نظرة دائرية بطيئة على الحاضرين. عيونهم لا تكاد ترمش. نظراتهم مشلولة.

- اليوم سيعرف أولاد الحرام من أنا.

خبأ خنجره وخرج راكضاً في اتجاه عقبة الصياغين. في ساحة

بينيتوبيريث جالدوس(*) أشهر خنجره وطعن به صَيْرِفياً يهودياً في دكانه، ثم امرأة أجنبية. انطلق في طريق الطواحين شاهراً خنجره الدامي. التقى ببعض المغاربة، لكنه لم يبال بهم. كان يصرخ: «الجهاد في سبيل الله يا أولاد الحرام. لعن الله الكفار والخونة...» في حومة بنشرقي قصد دكاناً وجده مقفلاً. ركل بابه وبصق عليه شاتماً صاحبه. استأنف ركضه. في طريق دار الدباغ طعن رجلاً وامرأة أجنبيين. في نهج اسبانيا، قرب محطة القطار، كان هناك شرطي اسباني. قصده المرواني شاهراً خنجره. أطلق الشرطي النار على إحدى ساقيه فسقط يتمرّغ في دمائه وهو يسبّ الملاعين. وصلت سيارة إسعاف، وجيب الشرطة، وجمهور أخذ يتكاثر بسرعة.

(*) روائيّ اسبانيّ مشهور (١٨٤٣ ـ ١٩٢٠).

عناد الحب القاسي مثل خبز الفقراء

جالس في رحبة قهوة سنترال. الحرارة تُنْعِسُني. آتية من طريق البحرية. مصبوبة في قميص وسروال أبيضين شفافين لصيقين بجسدها الرشيق. شابة وجميلة. شقراء. في مشيتها غنج. أنفها صغير أفطس قليلاً، شعرها طويل أملس، شفتها العليا مقوسة. عيناها كبيرتان مسحوبتان. قطة آسيوية. قد تكون لها طباع قطة مشاكسة. إذا كانت واحدة منهن فسيكون هناك معنى لهذه الأشياء التي أدغدغ بها ذهني عنها. أتبعها. عيائي يخفّ. دخلت في طريق كرّو لاس أونثي Curro Las Once. في ساحة التقدم دخلت داراً أزالت شكي: إنها واحدة منهن. انتظرت حتى تصعد الدرج. استقبلتني صاحبة الدار ببشاشة. إنها للاّالغالية. بدأت تشيخ، لكنها ذات حيوية وأناقة. لا أزهى من دارها: دار السلام. ضحكات ولغو صاخبان في إحدى الغرف. أدخلتني إلى غرفة صغيرة مفروشة بتخت مغربي. رائحة النّدّ تفوح. على الحيطان سجادات مزينة برسوم مستوحاة من شخوص ألف ليلة وليلة. طلبت بيرة. جاءتني بها فتاة جميلة سمراء، قصيرة وممتلئة. «انكحوا

من السمر القصار، ومن البيض الطوال». لون ثوبها مزيج من البنفسجي والأبيض. انحنت واضعة القنينة على الطاولة الصغيرة فشفّ في ضوء الشمس العمودي تشكيل فخذيها وبانت الفجوة العمودية يخترقها النور القوي. شكرتها وانصرفت ناظرة إليّ مبتسمة. أطلت للاّلغالية عند الباب بقامتها الطويلة فانكسر الشعاع وحيتني مشرقة والسيجارة في يدها. ترفل في قفطانها الزاهي اللون. طلبت بيرة أخرى قبل أن أنهي الأولى. سألتها عن ذات السروال والقميص الأبيضين. قالت إن ثمن الدخلة مع واحدة منهن خمسون بسيطة. قلت نعم. جاءتني بالثالثة قبل أن أنهي الثانية. قالت إن التي أريدها مصحوبة. قلت صبراً جميلاً عليّ. قالت هناك اثنتان أجمل. قلت الخيار لها. الرجاء في القوادة غالباً لا يخيب. نادت ربيعة. جاءت الجميلة السمراء. قنينتان أخريان. قالت إنها من مكناس. قلت لم أزر مدينتها. حملنا شرابنا إلى غرفة أخرى فيها فراش. سألتها عن صاحبة السروال والقميص. قالت إن التي أريدها من طنجة. رائحة ربيعة قوية، وحارة، مثل لُطفها.

في المساء، تسكعت بين خمارات السوق الداخلي. يتحدثون عن جنون المرواني، ومذبحته، وأسرته، وارثة الجنون، وعن الاستعمار الذي يختار عملاءه من بين ضعفاء العقول، والمعتوهين، الذين ينتهون مجرمين. هيَّجني السكر الحزين والعناد فعدت إلى دار القوادة «شريوطة». قالت كنزة ما زالت في صحبة الرجال وأنا إن شئتُ عدتُ غداً أو فعندها أجمل منها. قد أعطي التي استعصت مائة بسيطة. ستشاورها. قلت لها مذْبرةً أعطيها ما شاءت. بانت في البهو مختالة في خطوها مثل نمرة شبعت من افتراسها. تباهت نظرتها

ثم اختفت في كبرياء المعتصمات. حملت إليّ شريوطة بيرتي وقالت:

- لا تُشْقِ نفسك بها وما لك إلاّ سواها. هي عنيدة وأنا لا أقدر أن أبزز لها حقها. هذا زمن النساء في حياة الرجال. عُدْ يوماً آخر لعل الله يهديها.

صباح هذا اليوم تاجرت في بيع الساعات الزائفة في الميناء. ربحت ثلاثين دولاراً. في المساء التقيت حميد الزيلاشي يخيط أزقة السوق الداخلي. خرج من السجن منذ يومين. رأسه حليق، يَعْتَمِر «بريه» أسود بالياً من الصوف. شاحب ومتوتر الأعصاب.

- أدخلوني إلى زنزانة كريهة الرائحة يخرج من ثقب مرحاضها الجرذان. قضيت فيها ثلاثة أيام.

- لماذا الزنزانة؟

- لأني رفضت تنظيف المراحيض متعللاً بالمرض. لقد حقد عليّ الحارس لأنه لم يكن عندي ما أعطيه لابن الزانية كما يفعل من لا يريد أن ينظف. كنت قد دخلت إلى حان ـ مقهى النورماندي في ساحة فرنسا لأشرب كأساً. امتنعوا عن خدمتي فبلت لهم على العتبة. قبضني النادلون وأخذني البوليس وحكموا عليّ بشهر.

بدأ حميد يفكر في العودة إلى الدراسة في العرائش، إذا هو لم يعد إلى السجن بسبب زَعَارته، ونشل الجيوب. إنه ماهر، ولكنه قد يخطىء أو يتهوّر.

- لا أريد أن أنهي حياتي بين الملاعين. إن الذين يحكمون داخل السجن أفظع من الذين يحكمون خارجه. حكم الحاكم ولا حكم المحكوم.

رويت له ما حدث لي مع كنزة.

- إنها تريد أن توقعك في فخ حبها. ابتعد عن حب العاهرات. إن كل واحدة تحاول أن تنتقم من كل الرجال من خلال رجل واحد. كل واحدة منهن تعتقد أن الرجل هو الذي فَشَّل حياتها. كلهن فاشلات في الحب.

- إنها شقراء، وسمعت أن مزاج الشقراوات جدٌّ متقلب.

ضحك بصخب.

- من قال لك هذه السخافة ليس هناك لون امرأة خيّر ولون أخرى شرير. لونهن واحد من الداخل ولو اختلفت ألوان جلودهن. أغرق نفسك في الجنس تَنْسَ هموم الحب. إن الحب همّ كبير مثل خبز الفقراء.

ذهبنا إلى طريق المسيحيين. دخلنا حانة الجايو Bar El Gallo. كان هناك اسبانيون وبعض المغاربة. اسبانيتان تشربان وتثرثران مع اسباني ومغربي. شربنا كأسين. أزعجتنا قهقهات المحترفتين فخرجنا. أعطيته مائة بسيطة. سيذهب غداً إلى أزيلا ليزور أسرته. قد لا أراه إلا في العرائش. ودعته. ذهبت إلى حانة خاكوبيتو. كأسان من نبيذ لا إينا. تملكني جنون العودة إلى دار شريوطة. ربيعة غير مشغولة. تذكرت عريها الجميل الأسمر، وزغب ظهرها الخفيف، ودفء فخذيها الممتلئتين، وعرقها القوي. تخيلتني ألبسها وأُلبِسها ما شاءت من الألبسة الحريرية حتى كادت أن تختنق ضاحكة في هوس لا يكفّ ثم راحت تتلوى مثل أفعى متحفزة. تتعرّى وتتعرّى حتى صارت أكثر عرياً من عريها. إن حميد

محق. شهوة خبز الأفخاذ ولا زنبور الحب. الحب جنيّ. من يستطيع القبض عليه؟ مائة وخمسون بسيطة لربيعة وخمسون لشريوطة. إنه ثمن رائحة الليلة العطرة بكاملها مع ربيعة.

شربنا وذهبنا إلى فندقها لا بلاتا. اشترينا زجاجة مارتيني، وثلاث ليمونات، وليمونادا ـ الصودا. غرفتها صغيرة. الفندق متواضع. الليلة صاهدة. جلسنا بثيابنا الداخلية على حافة الفراش.

ـ لماذا تلح على مضاجعة كنزة.

ـ عناد.

ـ إذن أنت لا تحبها!

ـ تعجبني.

ـ إنها صديقتي. سأحدثها غداً عنك وتنام معك دون أن تدفع لها ألف بسيطة كما قلت لشريوطة. إن كنزة أيضاً عنيدة. ربما تكون قد أيقظت فيها أشياء تؤلمها.

ـ لم يعد يهمني أن أنام معها.

شربنا كأسينا. صمتنا في شرود. تناظرنا.

ـ أهي تحب أحداً؟

ـ هي الآن لا تحب أحداً، لكنها تبحث عن حب حقيقي.

ـ حب حقيقي!

ـ نعم. حب حقيقي.

ـ ماذا تقصدين؟

نظرت إليّ باسمة.

ـ أنت تمزح.
ـ أبداً لا.
ـ كل الناس يعرفون ما هو الحب الحقيقي وأنت لا تعرفه.
ـ لا أعرفه.
ـ كفاك من الكذب.

كنا مثل طفلين نحاول أن نحلّل سرّاً من أسرار العالم.

اشتريت بعض كتب المنفلوطي، وجبران خليل جبران، وميّ زيادة، وسجنت نفسي أقرأها. كنت قد سمعت أن هؤلاء يكتبون عن الحب المثالي، الحب الحقيقي. أخرج إلى مطعم ماريا القريب من الفندق وأعود حاملاً معي زجاجة نبيذ وكتاباً عن الحب الحقيقي أو قريباً منه. وجدت بعض العزاء فيما يقوله المنفلوطي وجبران وميّ، لكنه حب مشروط بالموت أو الحزن الأبدي أو هو الجنون.

التقيت ربيعة في السوق الداخلي. كنزة انتقلت إلى فندق ربيعة لتسكنا معاً. اقترحت عليّ أن أنضم إليهما في نفس الفندق. ثمنه أرخص من فندقي، ويمكن أن أصحب معي من أشاء. الفخ يبدأ. هكذا فكرت. انتقلت إلى الفندق مدفوعاً بالعناد، والفضول، والمغامرة. حجزت، في السطح، غرفة صغيرة مواجهة للبحر. تصاحبت مع حارس الفندق الليلي: شاب مدمن على الكيف والخمر ليل نهار، صار كارهاً للنساء لأن عشيقته شامة خانته مع صديق له. حين يغلبه الكيف والخمر أنوب عنه في الحراسة إذا لم يغلبني الخمر والكيف قبله. أحياناً تصحب كنزة معها زبوناً يقضي الليلة كلها معها أو يغادرها بعد وقت. ربيعة تفعل ذلك في فنادق

أخرى. لا أدري ما يمنعها في فندقها مع أنها متفاهمة مع علال الحارس أكثر من كنزة المتعجرفة، العصبية. القراءة صارت تخفف عني الإدمان على الخمر والكيف. اشتريت أيضاً مجنون ليلة وكليوباترة لأحمد شوقي. وجدتني كنزة ذات مساء أقرأ مسرحية المجنون جالساً وراء صندوق الاستقبال فقالت:

- كفاك من القراءة فإنها تجنن.

كان يتبعها رجل.

تعمل كنزة في مرقص شرقي راقصة مبتدئة. مع ذلك فقد سموها «الراقصة العفريتة». في ليلة عادت سكرانة. سائق سيارة الأجرة يسندها. في فمها سيجار. لباس سهرتها أسود لامع وقلادة بيضاء زائفة تتدلى على صدرها. وردة حمراء «مركوزى» في شعرها. الليل أخفى للويل كما قال لي ماجن لا يقرب الفسق في النهار. قال لي السائق وهو يغادرها:

- إذا لم تسندها مثلي فإنها ستسقط.

بياض وجهها وعنقها وذراعيها أجمل في ثوبها الأسود. تركتها واقفة تترنح وأخذت مفتاح غرفتها من حاملة المفاتيح.

- أنا امرأة عظيمة. أنت لا تعرفني بعد.

علال الحارس ميت في نومه. نزعت لها السيجار حتى لا تحرقني في وجهي. وأنا أسندها. رائحة الخمر، والتبغ، والعطر القوي، تمتزج في شميمي. لم أكن قد شربت غير كؤوس في تلك الليلة. الثملة أغلى من جيبي. أحاطت ذراعها عنقي وصعدنا الدرج هاذية

بعظمتها ومشقتي أعظم معها. رميت السيجار. يبدو أنها نسيته. تتوقف فوق درجة لتتكلم عن القنصل الإسباني الذي يرتاد مرقصها من أجلها ويموت حباً فيها. أحياناً تريد أن تنام على إحدى الدرجات فأرفعها:

- ليس هنا.

خلعت لها حذاءها المذهب ومددتها على فراشها بكامل زينتها. تعيش لياليها بجلالها الكامل. جلستُ على حافة السرير عند قدميها وأشعلتُ سيجارة. أتأمل غيبوبتها وتنفسها الواهن. إن لها الآن جمال امرأة ميتة مشتهاة في زمن بابلي أو اغريقي. لم يعد فيها ما يغري. فقدت كل كبرياء صحوها، وغَزَلِها، وتَباهيها. لقد تحررت من كل خداع، من كل زيف بشري. إنها الآن لنفسها كلية شاءت أم لم تشأ.

دخلت غرفتي وشربت كوب ماء ممزوج بعصير الليمون. دخنت وفكرت في العلاقات البشرية القذرة. حلمت بصف طويل من الرجال عراة يتناوبون على مضاجعة كنزة وهي تقول لهم: «تعالوا إليّ كلكم. زمني هو زمن كل النساء». حلمت وحلمت حتى أيقظني حلم الأحلام.

لم أعد أرى حميداً منذ افترقنا. مرت أيام والتجارة، مع بحارة البواخر، كاسدة. صرت أقود تارة السياح وتارة الجنود البحارة إلى المواخير والحانات. ربيعة وكنزة تضاجعان الرجال. أنا أقرأ وأنسخ، أحياناً، ما أقرأه حتى يرسخ الأسلوب في ذهني، والكتابة السليمة دون أن أعرف قواعدها النحوية كما نصحني حسن. اكتوبر يقترب.

لم أوفِّر كثيراً. لقد استنزفتني الحانات والمواخير لأنسى صدمة كنـزة. ملأت حقيبة كبيرة بالملابس التي بادلت بها بحارة البواخر التجارية أشياء من الصناعة التقليدية المغربية. بعضها اشتريته من سوق المستعملات. سأبيعها للتلاميذ في العرائش خلال أيام إفلاسي. قبل سفري بيوم دعوت ربيعة للسباحة والغداء في أحد مطاعم الشاطىء. سبحنا وجرينا ولعبنا، بصقت على كنـزة في خيالي وأنا ألاعب ربيعة في الماء. نطفو ونغوص، نفرج ساقينا بالتناوب ويمرّ كلانا من فجوة الفخذين. كل مرة نُباعِدُ المسافة حتى يفوز أقوانا. تذكرت ما قاله الاسباني لرفيقه في حانة خينيرال:

Cada Amor Se Olvida Con Otro Amor Recordar el Primer Amor Es Amar Segunda Vez

كل حب يُنْسَى بحب آخر.
أن تتذكر الحب الأول هو أن تحب مرة ثانية.

لكنني لم أستطع أن أستبدل حب كنـزة بحب ربيعة. إن الحب لعنة وكنزة لعنتي.

في مطعم بويرتا ديل الصول حكت لي ربيعة دامعة العينين عن موت أمها. أبوها تزوج بعد موت أمها بأقل من شهر. لم تكن زوجة أبيها تحبها وكانت تكره أن تُرَبي أخاها الذي أخرجوه من بطن أمها بالقيصرية. في ليلة ذهبت زوجة أبيها إلى عرس. غلب النوم ربيعة في فراشها. عاد أبوها سكراناً ونام معها عن غير قصد. حكم عليها أن تهجر مكناس أو يقتلها.

قلت لها:

- قد يحدث هذا عن قصد أو غير قصد. قد يحدث أكثر من هذا.

كَفَّ دمعها واستراحت عيناها.

لكنها امرأة طيبة

جلسنا في قهوة سنترال. أخرج من تحت جلبابه كتاباً ومده لي:

- هذا عمل عظيم. أحسن ما يمكن لنا أن نقرأه.

كانت رواية البؤساء لفكتور هوغو. نقل جزءاً منها إلى العربية حافظ ابراهيم بلغة القواميس القديمة. طلبنا قهوتين بالحليب. أخذت أقرأ له. معظم الكلمات لم أكن أفهمها. ألفاظ غريبة صعب عليّ نطقها. المختار يعرف معنى كل الكلمات تقريباً. في مشرب المقهى كانت هناك امرأة تشرب مع جماعة من الاسبانيين. تضحك كثيراً. يغازلها ثلاثة. بين لحظة وأخرى تنظر إليّ. ابتسامتها مشرقة. بادلتها ابتساماتها الوديعة ماذا يخامرها؟ فكرت أن للنساء نزواتهن. وضع لنا النادل القهوتين وقال:

- القهوتان على حساب السيدة فطيمة.

قد لا تكون نزوة. ربما هو إحسان بنا. لا شك أنها تعرف المختار. شكرتها بنظرة باسمة. قبل أن أسأله قال:

- تعيش على هواها مع الاسبانيين. تتحاشى العشرة مع المغاربة، لكنها امرأة طيبة.

المختار يعرف أسماء الأشخاص من أصواتهم أو مجرد لمسهم، إذا كان يعرفهم شخصياً.

في المعهد لم تكن الدراسة قد بدأت بجد. القسم الداخلي لم يفتح بعد. كان علينا أن نتدبّر مأوانا، وأكلنا، نحن الوافدين على المدينة من البوادي أو من المدن الأخرى. في زنقة القائد أحمد كان هناك هُرْيٌ مِلكاً للأوقاف. عندي حوالى ألف بسيطة. وصل حميد وقبلوه في مدرسة المعتمد بن عباد. استطاع أن يتسلم مفتاح الهُرْي. في الليل نشعل أخشاباً في إحدى حجرتيه التي نجلس وننام فيها. نستضيء بالشموع. نشتري زجاجة روم نيجريتا لنحتمي بها من برد الليل القارس، ونجترّ الحنين إلى طنجة. علقنا لوحاً أسود قديماً على الجدار. ننجز عليه العمليات الحسابية ونتبارى في كل المواد الدراسية. تعرّف حميد على فتاة عاشت فترة في طنجة سحقها فيها صعاليك الليل. صارت تشاركنا وحدتنا حين لا تكون مدعوة لتقضي الليلة كلها مع زبون سخيّ. تطبخ لنا، وتشرب معنا، وتساهم في النفقات. فتاة لم تخلق أبداً للدعارة. قليلة الكلام. حضورها حميم. تنام بيننا على مضجع واطىء صنعناه من الكرتون، وأمزاق الثياب البالية، والجرائد. لم يكن يسوءها تناوبنا على التدفؤ بجسدها الحارّ، لكن رغبتها في الجنس أقلّ من رغبتنا. نوع من التطهر يجعلها سلبية معنا. ربما مع كل من ينام معها. ربما لا تريد منا غير صداقتنا! لكننا لم نكن نعرف صداقة الرجل للمرأة دون جنس. إنها أنثى ونحن ذكران نفترس أنوثتها. انتحابها، أحياناً، وهي بيننا، يحزنني. حميد لا يبالي بها. لم نكن نقدر أن نراها تنام بعيداً عنا. مات أبواها وهي طفلة. رعتها عمتها. لم

يكن لنا، حميد وأنا، أي مصدر لكسب بعض النقود. بسيطاتي تنفد. حميد جاء مفلساً من طنجة. ذات صباح قال لي:

- تزين اليوم بأحسن ما عندك من ثياب.

إنه يوم الأحد.

- لماذا؟

- ستعرف فيما بعد.

- عندي سترة وبنطال لا ألبسهما إلا في أيام العطل غير الماطرة. اخترت قميصاً أبيض، وربطة زاهية الألوان.

- لا تنسى أن تحمل محفظتك الجلدية وقلمك الذي لا تكتب به دروسك.

- لكن لماذا كل هذا البهرج؟

- عندي مشروع جيد.

- ما هو؟

- هناك كثير من العاطلين الوافدين على المدينة من البادية يبحثون عن الشغل.

- وبعد؟

- سأصطاد اثنين أو ثلاثة. سأقول لهم إنك صديق الكاتب الخاص لباشا المدينة. ستكتب رسالة لكل واحد منهم تقول فيها: «إن حامل هذه الرسالة في حاجة إلى شغل فالرجاء أن تشغلوه».

- هكذا بكل بساطة.

- نعم، هذا ما ينبغي لك أن تكتبه.

- وإذا قبضونا.

ـ من؟
ـ الشرطة أو الضحايا.
ـ سننكر. ألا تعرف كيف تنكر؟ أين أيامك في طنجة؟
ـ وخطّ يدي، كيف أنكره؟
ـ اكتب بخط غير الخط الذي تعوّدت أن تكتبه... لن يمتحن الخبراء خطك في مثل هذه القضية.
ـ أنت المسؤول عن العواقب.
ـ أنا الملعون، لكن ابلع لسانك.

ذهب بحثاً عن الضحايا. قصدت مقهى النجمة بكامل زينتي. كنت أقرأ عرائس المروج لجبران خليل جبران عندما عاد مصحوباً ببدويين. صافحاني باحترام بالغ. أحسست بحرج، رجوتهما أن يجلسا. سحنتهما جدّ بائسة. حميد جلس بجانبي ليشرح لي طلبهما. لم أتعوّد على مثل هذا الغش. أرشف قهوتي السوداء. طلبوا براد شاي أخضر. حميد لا تهمه الوسيلة التي يتدبّر بها الإنسان عيشه. في مثل هذه الظروف الضحايا لا يمكن أن يكونوا إلاّ من طبقتنا.

كل شيء يجوز لنا من أجل إنهاء دراستنا. عليهم هم أيضاً أن يسرقوا غيرهم كما نسرقهم نحن.

هكذا قال بعد انصراف الضحيتين. اتفق معهما على مائتي بسيطة لكتابة الرسالتين. كتبت في كل واحدة: «أنا الموقع أسفله... مواطن مغربي. من قرية... أبحث عن أيّ عمل. الرجاء أن تشغلوني. والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه».

لا يعرفان التوقيع كتابة. قطرت قليلاً من مداد قلمي على ورقة وجعلتهما يوقعان بإبهاميهما. كان يوم أحد آخر عندما كنا نتجوّل في طريق ريال Real. لم يكن معنا ما نُقْهي به. معنا بضع سجائر نتناوب على تدخين الواحدة منها. تخلف حميد ورائي يتفرج على واجهة متجر وأنا أنتظره متفرجاً على واجهة أخرى. سمعت زعيقه. أحدهما قابض على حميد والآخر رآني فقصدني يرعد ويصرخ. جريت بكل قواي. دخلت في زقاق. هناك باب ثانوي لمسجد الجامع الكبير. خطر لي الاحتماء في المَقْدِس. دخلت راكضاً بحذائي. في المتوضأ انزلقت ولم أسقط. التفتُ ورائي. ولد القحبة يخلع حذاءه. لا مكان للاحتماء هنا. لم أخلع حذائي. صلاة الظهر. أقفز على ظهور المصلين راكضاً بينهم. تبلبلوا. خرجت من الباب الرئيسي. وجدتني في ساحة سوق الكبيبات. صحت في أبناء الزانيات:

- عودوا إلى الصلاة. لم يحدث شيء.

لا آذان لهم. اللعنة على الأرانب البشرية. يركضون ورائي. تبلبل باعة سوق الكبيبات. تكاثر مطاردي. إذا جرى أرنب جرت أرانب. قصدت «عين شقة». توقفت عند السور المطل على البحر. من بعيد، رأيت بقية مطاردي يتوقفون مبهورين، بلهاء. ألهث مستنداً إلى السور ناظراً إليهم. في عيونهم شرّ وتَوَجُّس. سأتركهم لا يعرفون. من جديد مشوا في اتجاهي ببطء ثم راحوا شيئاً فشيئاً، يركضون. استأنفت سباقي. رأيتهم يتوقفون ويتكلمون ثم يرجعون وهم يتقاربون. توقفت ساعلاً لاهثاً. استندت إلى السور. نسيم البحر يخفف من تعبي.

في المساء، ذهبت إلى الهري. وجدت حميد مع سعيدة. عينه اليسرى متورمة وفي منخره قطن. نظرت إليّ سعيدة مثل ممرضة من أخوات الإحسان تعنى في دير بجريح خاض حرباً في القرون الوسطى، تناظرنا، أنا وحميد، لحظة ثم انفجرنا ضاحكين في صخب هستيري. قال:

- أنت محظوظ، لقد أفلت من مطاردك. إنه أقوى وأخبث من زميله. عاد، ولد الزنا، وتضارب معي ورفيقه يحاول أن يخلصه مني. تدخل بعض المارة وأنقذوني من الذهاب معهما إلى مركز الشرطة. لو قبضك لَمَرَّغَكَ في الأرض.

دقات خفيفة على الباب. فكرت: دقات إنسان غريب خجول. فتح حميد. ناداني. فطيمة الضاحكة. ماذا تريد؟ تسالمنا باسمين. اضطربت ملامح وجهها. زينتها بسيطة. لم تبالغ في تجميل وجهها كما تعودت أن أراها في مقهى سنترال. قدمت لها حميد ورجوتها أن تدخل.

- ليس اليوم. شكراً. أريد أن أتكلم معك.

استأذنت حميد وصحبتها. نظر إلينا لا مبالياً.

- أدعوك للعشاء معي في بيتي. لم تجيء إلى مقهى سنترال منذ أيام. ترقبتك هناك وسألت عنك النادل.

- في هذه الأيام، أعود من المعهد مباشرة إلى الهري لأراجع دروسي.

تسكن في طريق ريال. بيت صغير: حجرة، ومطبخ،

ومِـرْحضة. الأثـاث نظيف ومتـواضع. عـلى الجدران صـور في أُطُر زجاجية حواشيها ملصقة بشريط أحمر. رائحـة توابـل ولحم. تَحَلَّب فمي. تَضاعَف جوعي. تـركتْ الحجرة مُضـاءة عندمـا جاءتني إلى الهري. زجاجة فِرموت وشطائر ليمون. لا شك أن حميد يلعن الآن النساء.

ـ هذا ما عندي اليوم.

تناخبنا. شربَتْ ثم وضعت كأسها كأنما تذكرت شيئاً.

ـ أنا راجعة.

تأملت الصُّور على الجدران: فردية وجماعية مع اسبانيـين. هناك صورة رجل وامرأة شيخين. أبواها؟ صورة لها مع طفلة.

ـ هذه بنتي سلوى.

طفلة خجول. باسمة.

ـ بوسيه.

ألصقت فمها الدافىء على خدي. بوسة خفيفة على رأسها. أكره الملاعين الذين يبوسون الأطفال في الفم أو قريباً منه. يمصون أفـواه العاهرات، وقد يلعقون الفروج. لا رجل تقيٌّ ولا فرجٌ نقيّ. هذا ما يقوله حميد.

ـ عمرها سبع سنوات. تدرس في التحضيري.

ابتسمت لها وأجلستها إلى جانبي.

ـ هذا السيد هو الذي سيعلمك عندما تعودين من المدرسة.

حملت إليّ دفاترها، تصفحتها.

- نتائجها جيدة.

- أريد أن تتعلم حتى تصير طبيبة أو أستاذة. أليس كذلك يا سلوى؟ لا أريد لها أن تصبح مثلي. أنا لم أدرس غير ثلاث سنوات في معهد الراهبات الاسبانيات، تعلمت الخياطة، والطرز، أكثر مما تعلمت الكتابة والقراءة.

لأول مرة أسمع عن طفلة مغربية اسمها سلوى. تبتسم منكمشة على نفسها. أثناء العشاء كانت تمزق قطعة لحم تضعها تارة في فم سلوى وأخرى تمدها لي. تَرِنّ كأسانا. فَرحتُها هَوَّسَتْها. أخذت سلواها، بعد العشاء، عند الجارة التي تربيها.

- لماذا لا تتركينها تنام معك؟

- أعود متأخرة في الليل، ولا أستيقظ باكراً. هي تفيق في السابعة لتذهب إلى المدرسة في الثامنة.

سألتها عن مسقط رأسها.

- ولدت في العرائش، لكن أبوي من «اثنين سيدي اليماني». أمي ماتت وأبي عاد إلى قريتنا. إنه اليوم متزوج ويفلح أرضنا.

تمتلىء بالنشوة والإلفة. لا يبدو عليها الآن أيّ قُحبٍ وتَغَنُّج كما تكون في مقهى سنترال. محتشمة في حركاتها ورقيقة في صوتها. عندما نصمت ينتابها شرود حزين، لكنه حلو فأتركها لنفسها وأتلهّى برؤية الصور على الحيطان. عندما يشرق حضورها أشاركها مرحها.

قابلت المختار الحداد في الشارع. وحيداً يسير. أوقفته. تلمسني ثم انتقلت يده إلى ذراعي منزلقة حتى قبض على يدي:

- شكري. أنا أبحث عنك. سألت عنك في مقهى سنترال. هل نذهب إلى هناك ونقرأ؟

ربما يتعرّف عليّ أيضاً بالشم. يحمل قصة «ليلى المريضة في العراق» لزكي مبارك.

- لا أملك ثمن أيّ مشروب وعندي سيجارتان فقط.

تأبط ذراعي وذهبنا إلى مأوى المعهد الديني ليستدين من تلميذ بدوي يقيم هناك. في بهو المبنى اتجه إلى اليسار وأخذ يتلمس الأبواب. عند الباب الثالث توقف وطرق. لم يجبه أحد. الباب غير مقفل بالمفتاح. فتحه ودخل. خرج ملتفتاً يميناً ويساراً ليرى بسمعه كعادته. يحمل شيئاً تحت جلبابه. يعكسه بيده من خلال فتحة جيب الجلباب.

- ماذا هناك؟

- اسكت. انه موقد بترول. سنبيعه. أتمنى ألا نلتقي به قبل أن نخرج من هنا.

- من؟

- صاحب الموقد. أراجع معه دروسه العربية.

تركته ينتظرني قرب أحد أقواس سوق الكبيبات ورحت عند المطعمي السلهامي. وجدته ماسِكاً فرُّوجاً من جناحيه.

- أيها الفروج العزيز، لقد حان أجلك المحتوم. ليس على يدي

وإنما على يـد الذين يـطلبون لحمـك. إني مضطر إلى أن أنفـذ فيك هذا الحكم وأنا شـديد الأسف والحـزن عليك. لن تحلم بعـد اليوم بالحبوب، والقفز على الإنـاث المغرورات اللواتي يقضـين وقتهن كله في البحث عما تأكله. أما أنت فرأسك دائماً شـامخ. انـك تنظر إلى السماء أكثر مما تنظر إلى الأرض. وداعاً أيها العزيز اللطيف الجميل.

ثم ذبحه بالموسى ورماه ليتمـرّغ وينتفض. انتصب لحظة جـاحظ العينين وقفز لينهار وهو ينتفض. من عـادة السلهامي أن يخـطب في كل فروج يذبحه. لم يكن قط يذبح الدجاجـات. الأنثى لا تصلح إلا لتلد. إن لحمهـا غير لـذيذ ومـترهـل، لأنها تستهلك نفسهـا في ولادة البيض والقلق عـلى مـا تلد. هكـذا يقـول. يـذبـح الفـروج بالموسى بـدل السكين حتى لا يتعـذب: إن الفروج فيـه روحٌ وليس كمنجة كما يقول. بعت له موقد البترول بثلاثين بسيطة. سـألني عَمّا إذا كان مسروقاً. أقسمت له أنه لصـديق تلميذ في حـاجة إلى نقـود لشراء دفاتر.

اقتسمنـا المبلغ. قبل أن نـذهب إلى السنـترال طلب مني أن نَمـرّ على الدرب الذي تسكن فيه معشوقته «البتـول». قرب بـاب منزلهـا توقف وتأوه ثم عدنا. فكـرت: لقد شمَّ دربهـا. كان المختـار يُحْيِي تقاليد الحب العذري عن صدق. وسيموت بعملية جراحية في قلبـه الضعيف العاشق عام ٧٤.

- أهي أيضاً تحبك؟
- لا أدري.
- أتعرف أنك تحبها؟

ـ أعتقد أنها تعرف، لكنه لا يهمني أن تعرف أو لا تعرف.

ـ تتكلمان؟

ـ ليس على انفراد. عندما تكون مع رفيقاتها في المعهد أو مع إحداهن نتكلم قليلاً ونتسالم.

جلسنا في مقهى السنترال وأخذت أقرأ له ليلى المريضة في العراق وهو يتأوّه ويشرح لي ما لا أعرفه من الكلمات.

في المعهد رأيت اسمي ضمن قائمة الممنوحين في القسم الداخلي. كان يوم سبت. يوم الاثنين سيفتح. فرحت وهنأتني فطيمة بثلاث قبلات على خدي. إنه يوم الأحد. وجدتها تتجمل لتبدأ يومها الاحتفالي في الحانات.

ـ إيّاك أن تنقطع عن زيارتي وتعليم سلواي. إنني أعوّل عليك.

ـ سلواك هي سلواي.

دست لي عشرين بسيطة في يدي مشرقة الوجه. لم أرفض. لقد عودتني أن لها حرفة وأنا ينتظرني العام الدراسي كله من الإفلاس المادي قبل أن تأتي عطلة الصيف وعودتي إلى طنجة. أعطيت درساً لسلوى واصطحبتها في جولة. اشتريت لها شوكولاته بما أعطته لها أمها. تجولنا ولعبنا في الحديقة العمومية ثم أعدتها إلى مربيتها للاّفاطنة.

وجدت حميداً يقرأ وسعيدة تطبخ طاجينا من السمك. فوق الصندوق زجاجة نبيذ، وكأسان مُنَصفان. لا شك أن سعيدة هي التي تسوّقت. حميد مفلس.

في القسم الداخلي لم أشعر أني أعيش بامتياز. السرير نظيف، الأكل أجود من مطعم المدرسة الابتدائية، لكن طاعة قانون الداخلية الصارم يولّد في نفسي توتراً شبيهاً بتوتر حيوان في قفص. كنت في غرفة أكثرية المقيمين فيها من أبناء البورجوازيين الذين جاءوا من مدن شمالية. فكرت أن أطلب من الإدارة أن تنقلني إلى غرفة أخرى أغلب من فيها بدويون، فقراء مثلي، لكن من أكون أنا حتى أطالب؟ قد يطلبون مني تبريراً ويحدث ما لا أتوقعه من سوء. الأسرّة كلها مزدوجة. فراشي فوق، التحتي يحتله رفيق من القصر الكبير يعتزل عشرة الرفاق. لم يكن يهتم إلاّ بالرياضيات. المواد الأخرى يكتب بعضها ولا يراجعها. هندامه مُهْمَل. يحلق وجهه مرة في الأسبوع. يحمل دائماً دفتراً يملؤه بتمارين الجبر والهندسة. يكتب على أرض الغرفة، وأبواب المراحيض، وأينما تكتب الطباشير. على الجدران الجيرية يكتب بالقلم الرصاص. يحتفظ دائماً في جيبه بشمعة يشعلها عدة مرات في الليل ليحلّ إحدى العمليات الجبرية على الأرض. نومه متقطع. يبول عدة مرات في الليل. أول من يَنْدسُّ في الفراش وآخر من يغادره. الإفطار في مطعم المعهد غالباً ما يفوته، لكنه من أسرة موسرة كما سمعت. توقظني كوابيسه. يحلم متكلماً. جملة قصيرة ومبهمة. أحياناً، يجيب من يكلمه بهزّ كتفيه أو ببسمة لا يفترّ لها فمه ثم يبتعد. قلت لنفسي: على الأقل، هذا الرفيق لا يشبه أحداً في الغرفة وإن يكن من طبقتهم. يقضون وقتاً في التأنق، وبرنزة وجوههم بالحلاقة كل يوم. منهم من يحلق مرتين إذا كان له موعد في المساء مع فتاة. في أيام العطل يتزاحمون على مرآة المغاسل ليحلقوا وجوههم. أنا لا أنتظر نوبتي. أملأ سطلاً

بالماء وأنحني عليه فأرى انعكاس وجهي غائماً فأحلقه. سألني أحدهم:

- كيف تعلمت حلاقة وجهك هكذا دون أن تجرحه؟

- في أسفل بطني. لقد جرحته مرات كثيرة حتى لا أجرح وجهي.

يتفقدنا المدير في المطعم وفي غرف النوم. درس في القاهرة. نعتبره مرجعنا في كل ما يَسْتَعصي علينا في الحضارة العربية. لا يتذمّر قط ممن يسأله. كنت أكثر سائليه. مرة التقيته في الشارع ورجوته أن يشرح لي بيت أبي العلاء المعري:

خُلِقَ النـاسُ للبقـاء فَضَلَّت أُمَّـةٌ يحسبونَهُم لِلنَّفـادِ

***

شرح البيت، وتكلم عن حياة الشاعر، وعصره، ومذهبه في الوجود. أحياناً، كنت أراه في المعهد أو خارجه يتمتم وحده فأقول لنفسي: ربما هو الآن يتلو سوراً من القرآن أو شعراً كلاسيكياً.

لم أنسَ مقهى السي عبد الله. حميد نادراً ما يرتاده. يفضل الجلوس مع السلهامي في المطعم ليأكل ما تَيَسَّر، ويدخن الكيف معه، أو مع مونفرير في دكان حلاقته ويشرب معه النبيذ في المساء أو في النهار أيام العطل المدرسية. في معظم الأحيان لا يستقبل مونفرير سوى الوافدين على المدينة وقلّما يرجعون إليه بسبب إدمانه. لقد أضحت يداه ترعشان في الوجوه. لم يعد يأتي عنده، من المدينة، إلاّ السكارى مثله.

يسافر معظم الرفاق في أيام الإجازات. صباح يوم الأحد هذا

بـارد وغائم. سـأشرب شـايـاً ثم أذهب لأعـطي الـدرس لسلوى. سبعة أو ثمانية رواد. اثنان يلعبان الورق. قال السي عبد الله لرجل ضخم مشيراً إليّ:

ـ ها هو واحدهم جا.

أجلساني إلى طاولتهما. إلى جانب الرجل الأدرد (عديم الأسنان) بندير. قال السي عبد الله للرجل البائس وهو يقوم إلى الوجاق:

ـ هذا الطالب هو الذي سيحل لك مشكلتك.

سألني كمن لا يصدق:

ـ أحقاً أنت طالب؟

ـ نعم، ما هي مشكلتك؟

ـ كل شيء يعرفه السي عبد الله.

أحضر لي الشاي وجلس.

ـ هذا الرجل المسكين يـريد أن يـتزوج بمسكينة مثله. العـدول طلبـوا منه مـا ليس عنده من المـال ليكتبـوا لـه عقـد النكـاح. هـو حلايقي(*) وهي تبيع البخور. اكتب لهما عقـد الزواج ونحن شهـود والله أكبر شاهد على هذا العقد المبارك. مسكين تزوج مسكينة.

لم تحضرني أية شريعة تمنع ما سأقوم به. إن الفقر فوق القانون. قلت:

(*) راو يروي للناس حكايات تاريخية إرضـائية أو حكـايات خـرافية تـراجيديـة أو ملهاتية.

ـ ولماذا لا، على بركة الله!

خـرج الحلايقي وعـاد يصـطحب امـرأة مجلببـة ومُلَثَّمـة. عينهـا اليسرى حولاء. تحمل قفة مليئة بالمتاع. أدخلنـا السي عبد الله إلى حجرة. جلسنا على الحصير الذي هو كل أثاثهـا. أحضر لي ورقتين بيضـاوين. تركني أكتب العقـد وخـرج. سجلت أيضـاً متـاع كـل منهما. سلمت للرجل نسخـة وأَمَّنْتُ الأخرى عنـد السي عبد الله. جاءنا بالشاي مرة أخرى ودعا بالبركة. رفعنا، أنا والسي عبد الله، أيـدينا وشرعت أقـرأ دعـاء الخـير والسي عبـد الله يـردد آمـين. ثم أخـذت أتمتم بصوت خفيض قصيـدة مهيار الـديلمي التي أحفظهـا عن ظهر قلب.

أَعْجِبَتْ بي بـين نـادي قـومِهـا أُمُّ سعـدٍ فَمَضَت تَسْـأَلُ بـي

مدّ لي الرجل أوراقاً ملفوفة رفضتها قائلاً:

ـ أبداً لا. إنه عمل خير.

أَلَحَّ:

ـ خذها، إنه قدر قليل من أجل الفتوح.

أضاف السي عبد الله:

ـ لا بأس، خذ منه هذه البركة.

انصرف الزوجان فقال لي السي عبد الله:

ـ هـذا أعظم عمـل خير تقـوم بـه في حيـاتـك. سيكـون لـك مستقبل عظيم إن شاء الله.

- آمين.

ذهبت عند فطيمة. استقبلتني بابتسامة باهتة. عيناها راشحتان، شاحبة، يدها رخوة وباردة. قبل أن أسألها عما يحزنها بادرتني:

- سلوى مريضة. محمومة. لا تأكل.

- مرض الأطفال سريعاً ما يزول.

سلوى نائمة على سرير أمها. فوق طاولة صغيرة، قرب السرير، كأس عصير برتقال منصفة.

- غداً سآخذها إلى طبيب أعرفه.

تبدو كما لو أنها لم تفرح قط في حياتها. تَجَمَّع فيها كُلُّ حزنها. في مثل هذه الساعة من كل أحد أجدها تتجمل أو في كامل زينتها. سيغيب عنها اليوم عالم نشوتها، وجمالها، ولطفها. مرض سلواها أقوى من كل لذاذاتها.

خَيَّرتْنِي:

- شاي أو قهوة؟

رفضت بلطف. وعدتها أن أعود في المساء. في الشارع أحسست بكآبتها تنعكس على نفسي. وجدتني في الحديقة العمومية. الجوّ غائم. لا أحد هناك. استعدتُ سلوى بين الأطفال الاسبانيين يلعبون وأمهاتهم جالسات يحكن الصوف ويثرثرن وينهين أطفالهن عن مخاطر بعض أنواع اللعب وأم سلوى ترنّ كأسها مع الكؤوس في السنترال. بدأت ترشّ قطرات كبيرة وريح تهب. خرجت راكضاً إلى الهري.

عشرات من أكياس الإسمنت.

ـ ما هذا؟

ـ سيبنون المسجد الذي دشنه محمد الخامس في القصبة. سيعطيني المقاول الاسباني خمساً وعشرين بسيطة كل يوم مقابل استعمال الهري حتى يتم بناء المسجد. انها ثروة نزلت من السماء. إن الله قد يرمي، أحياناً، أمثالنا في بحر هائج، لكنه لا يغرقنا.

ـ وسعيدة؟

ـ ذهبت إلى السوق.

يراجع درساً في تاريخ الفينيقيين في المغرب. قال:

ـ أتعتقد أن الفينيقيين هم أول من عَلَّم المغاربة القراءة والكتابة؟

ـ لقد جاء قبلهم عَبَدَةُ الصخور (الدرروديون) لكن اللغة البربرية أصلها سام كما يقال.

جلست. فوق الصندوق ـ الطاولة نصف زجاجة نبيذ. ملأ قدحين صغيرين.

ـ لقد قبل مدير المعهد تسجيلي مستمعاً. إذا سقطتُ فسأعود إلى طنجة لأصير أكبر قواد أو لص أو مجرم. كل شيء مباح إذا لم أنجح في دراستي. أنت أيضاً ليس أفضل مني. ستعود لتعمل في أحد المقاهي أو في الميناء...

إنه على حق. أنا ليست لي أصابعه السحرية التي ينشل بها الجيوب.

شربنا ما تبقى في القدحين.

- فطيمة حزينة لأن ابنتها مريضة.

- القحاب أكثر حرصاً وقَلَقاً على أولادهن من النساء المتزوجات.

دخلت سعيدة حاملة قفة الحاجيات تصحبها فتاة. قدمتها:

- عائشة.

أجلسها حميد بحيوية على صندوق. إنه لطيف في حضورهن وشتّامُهُنّ في غِيابهنّ. أشعلت سعيدة سيجارة وانهمكت في الركن - المطبخ لإعداد الغداء. تشاطرنا خفية أنا وحميد حول الوافدة. أخذت مني سيجارة. أشعلها حميد ثم سألها:

- من أين أنت؟
- من القصر الكبير.
- أنا من أزيلا، نحن جيران إذن.

أعطيته عشر بسيطات لشراء زجاجة نبيذ.

- ابق معنا للغداء.
- يسجلون الغيابات. إذا كثرت فسأفقد منحتي في القسم الداخلي. سأعود بعد الغداء.

قابلت المختار الحداد متمشياً وحيداً بين أقواس الكبيبات. كعادتي معه، اعترضت طريقه. هذه المرة نطق اسمي دون أن يلمسني. أصار أيضاً يعرفني حتى من رائحة جلدي. يتأبط

السمفونية الريفية لأندري جيد. ترجمها إلى العربية حسن صادق عام ٧٨. قال:

- سمعت أن هذه القصة هي من أروع ما كتب هذا الكاتب الفرنسي. سنقرأها، إذا شئت، هذا المساء.

وافقت دون توقيت. طلب مني أن أصحبه إلى درب محبوبته البتول. ثلاث تلميذات مقبلات. ينظرن إلينا ضاحكات. تَكَهْرَبَ جسد المختار وشَدَّتْ يده على ذراعي بقوة وقال:

- ها هي مقبلة مع صاحباتها.
- إنَّهُنّ ثلاث.
- أقصرهن وأجملهن. وجنتاها موردتان.
- صحيح.
- تصرف كأن شيئاً لا يحدث. لا تبلغ في النظر إليهن.

عندما مررن قدامنا تهامسن. قال:

- سأبدأ غداً إعطاء إحداهن دروساً في العربية.
- أين؟
- في منزلها.
- أيّها منهن؟
- السمراء.

ودعني قرب المعهد ليقود نفسه بنفسه في الطرقات التي يعرفها جيداً. في الرابعة ذهبت عند فطيمة. فارقتها كآبتها. سلوى جالسة على الفراش. خداها موردان. جلست أمها بجانبها وباسمتها.

لاطفت ذقنها وشعرها. نظرت سلوى إليّ كأنها تراني لأول مرة. ربما افتقدتني. نظراتها شاردة. ملأت كأسين من المرتيني ومدت لي كأسي. عبد الوهاب يغني في الراديو: «جفنه علم الغزل». لا مشابهة بينهما مع ذلك فقد تذكرت سلافة من خلال فطيمة. هذه لم أرها أبداً غاضبة، لكن يبدو لي أن أدنى حادث يقع لها يفقدها مرحها.

وجدته وحيداً. راديو قديم من نوع رسيا R.C.I.A. ينبعث منه الفلامنكو. مصباح كهربائي معلق إلى الحائط يضيء الحجرة في وضوح. الراديو هدية من مونفرير الحلاق. لم يستعمله منذ سنوات. الكهرباء سرقها حميد من الزقاق. استعمالها غير ممكن إلاّ في الليل. ينبغي فكّ السلك وسحبه إلى داخل الهري في الصباح باكراً أو في الليل قبل النوم.

- والسلّم لفك السلك؟

أشار إلى الصناديق:

- هذه سُلّمي.
- وسعيدة وعائشة؟
- خرجتا لتقحبا. ستأتيان بزاد المساء. لم تجيء بعد الغداء؟
- نعست قليلاً ثم ذهبت عند فطيمة، ابنتها تحسنت.

اجلس:

- سأعود إلى القسم الداخلي يسجلون الغيابات كما قلت لك.
- طُز في الغيابات! عائشة ستبيت معنا. إنها لك وحدك.

عادت عائشة وسعيدة حاملتين بضائع وزجاجتين من النبيذ. طز في الغيابات إذن. كسب العيش ينتظرنا دائماً في طنجة. صرت أعرف القراءة والكتابة. لن أحتاج إلى من يقرأ لي رسالة أو كتاباً. كان هوسي الكبير هو أن أجد من يقرأ لي مجلة عن حياة الممثلين. تذكرت العيش مع فوزية ونعيمة صحبة حميد، في فندق القصبة، بمزيج من الحسرة والسعادة. وضعت سعيدة وعائشة حمولتهما. خطف حميد زجاجة وفتحها. إلى جانبه دفتر مفتوح.

- ماذا تراجع؟
- درساً في تاريخ الأشوريين والبابليين.
- إنها مجرد معلومات نحشو بها أذهاننا. لن تسعفنا في شيء.
- لا أوافقك. كل جديد يلقح بالقديم. التاريخ هو التاريخ ولو كان ظالماً.

صبّ في القدحين الوحيدين. شرب هو وسعيدة من كأس، وشربت أنا وعائشة من الأخرى. دُقّ على الباب. قام من على حافة الفراش حافي القدمين وفتح. كهل رثّ الثياب. ساعده حميد على نقل أربعة أكياس إلى عربة صغيرة. فكرت: إنه كسب جديد، لكن عواقبه سيئة إذا هم ضبطونا نسرق الأكياس ونبيعها. شغّل حميد الراديو. صوت اسمهان: متّع شبابك في ڤيينا...

قلت:

- إذا اكتشفوا سرقة الكهرباء فإننا حتماً سنطرد من هنا.
- حينئذ سنبحث عن مكان آخر. إننا لا نسكن في قصر. ليس لدينا ما نخسره.

إنه دائماً مستعد أن يبدأ حياة جديدة. لا يتعلق في شيء. في نظره، كل شيء هشّ وقابل للسقوط والانكسار.

أنهيت قراءة السمفونية الريفية مع المختار في جلستين. كنا في مقهى سنترال. قال بصوت متنهد:

- لست أدري لماذا يقسو القدر على الطيبين ويحالف الأشرار. ماذا فعلت جرترود المسكينة حتى تلقى ذلك المصير؟

- أعتقد أن «الراعي» هو الذي جنى عليها عندما أحبها. لو تركها لابنه جاك لما حاولت انتحارها الفاشل الذي قادها إلى اليأس التام والموت.

- هذه إحدى مساوىء بعض رجال الدين. إنهم يدنسون، أحياناً، ما يطهرون، لكن على الأقل ماتت جرترود إنسانة ولم تمت مثل بهيمة.

صار حميد يدرس معنا في المعهد. لم يكن يواظب على الدروس. وضعه تلميذاً مستمعاً يشجّعه على التغيب. قدم في المعهد وقدم في طنجة، إذا فشلت اليوم يده في الكتابة فلن تفشل غداً في نشل جيوب الناس. أكياس الإسمنت التي يبيعها في الليل أغرقته في السكر والتسكع. لا يقسم معي مناصفة. يعطيني ما يشاء. إنه سيد الهري والعطاء. يأتي بفتيات أخريات إلى الهري ينام معهن أمام سعيدة. اشترى لنفسه ملابس جديدة، وقلم باركر، ومحفظة جلدية يباهي بها الأساتذة، ومفتشي التعليم. يختلف إلى الخمارات كل يوم. اشترى لسعيدة وعائشة أثواباً جميلة لتغريا بها من يدفعون

جيداً. رائحة العطور الاسبانية التي تفوح منهما زكيّة. لقد صارتا من الدرجة الأولى في العهر كما يقول.

كنا نجتاز امتحانات الفترة الثانية عندما وصلتني رسالة بالاسبانية من مستشفى مرض السل في تطوان. خطها جميل يشبه خط الراهبات. «إن كاتبة هذه الرسالة تسلم عليك وتلحّ على أن تعود أمك في أقرب وقت ممكن».

في آخر يوم من الامتحانات ذهبت عند فطيمة وأخبرتها بسفري. دست لي، بإلحاح، في جيب سترتي، مائة بسيطة. «كل شيء سيفوت. ذات يوم ستصبح أستاذاً أو محامياً وتنسى أنك كنت فقيراً». سلوى لم تكن حاضرة.

دعاني حميد للعشاء والمبيت في الهري. وجدت سعيدة وعائشة في أجمل زينتهما. عطرهما يُدَوِّخ. . اشترى حميد أثاثاً مُستعملاً، وزَيَّن الجدران بصور الممثلاتِ المنزوعة من المجلات، وصنع مكتبة صغيرة من الآجر، والألواح العارضة. سألته:

- كيف تسير علاقتك مع المُقاوِل الاسباني؟

- رجل رائع. أجمل ما فيه هو أنه لا يلاحظ كثيراً. إنه خبز الله كما يقال. حتى الآن لم يفقد شفقته فيّ، ولا شيء يثير الشبهات.

- إنك تبالغ في تزيين نفسك وتأثيث الهري.

- ألا تعتقد أنه أيضاً يسرق من أموال بناء المسجد؟

- ربما.

- ابلع لسانك إذن.

سعيدة وعائشة بدتا أكثر جمالاً مِمّا تَعودتُ أن أراهما. حميد كان أكثر حميمية. ربما أتاني هذا الشعور من كوني سأغيب عنهما حوالى عشرة أيام.

الملح لا يزهر أبدا

أخبرني بائع خضار، أعرفه في الترانكات، أن التفرسيتي صار يسكن في برج الأفعى. ست سنوات دون أن يرى واحدنا الآخر. وجدته في مقهى «السانية» يلعب الورق. ذهبنا إلى منزله. في الطريق بغايا واقفات على عتبات بيوتهن أو يطللن ويختفين. كل حركاتهن فيها دعوة للدخول معهن. رجال وفتيان يغازلونهن. يسأل أحدهم عن ثمن الدخلة فيدخل أو يغادر إلى أخريات.

قدّمني إلى عشيقته الزهرة. شابة، قصيرة، مكتنزة وجميلة. وضعت حقيبتي الحقيرة. أوصاها أن تنتظرنا للغداء وخرجنا.

دخلنا حانة ريبيرتيتو. طلبنا نبيذ خيريث الأبيض. على الجدران رؤوس ثيران محنطة. الحانة ما زالت تحتفظ ببعض مجدها. تلك أول مرة أدخلها. عرفتها وأنا طفل أخطف ما يتبقى في صحون طاولات رحبتها. أشرب ما في الكؤوس من ليمونادا أو خمر وأجمع أعقاب السجائر الشقراء. الحانة الآن يرتادها موظفون، وتجار صغار مغاربة وما بقي في المدينة من عساكر اسبانيين. التفرسيتي يشتغل في الصيف بائع مثلجات مع اسباني. في الفصول الأخرى

يتاجر في الخضار والفواكه بالجملة كما كنا نفعل من قبل. سألته عن عشيقته القديمة «لطيفة».

- أووه، تزوجت ولها الآن ثلاثة أطفال. عاشرتُ كثيرات بعدها، لكن كلهن يردن أن يتزوجن.

- ألم تفكر في أن تتزوج بإحداهن؟
- أبداً.
- لماذا؟
- الرجل لا ينبغي له أن يتزوج قحبة.
- لماذا؟
- لا يمكن أن يكون لك أطفال من قحبة.
- ما هو العيب؟
- سيعيشون معقدين عندما يعرفون أن أمهم كانت قحبة.

إنه يحلم أن يتزوج امرأة لم تفسق حتى لا يكون أولاده معقدين، وحتى لا تخونه، أما القحبة فأكيد أنها ستخونه. جعلته أسئلتي مضطرباً، قال:

- لقد صرت محظوظاً.
- في أي شيء؟
- أنك تعلمت. صرت تفكر جيداً في معرفة الأشياء.
- أنت أيضاً يمكن لك أن تتعلم في المدارس الليلية. لقد بدأوا يفتحون منها الكثير في المدن.
- فاتني الحظ.

لم أرد أن أناقشه طويلاً في أمسيته حتى لا أحزنه، أما أنا فينتظرني الجنون إذا لم أتعلم.

شربنا كأسينا الأخيرين ورجعنا عنده للغداء. في المساء، صحبني إلى حيّنا سيدي طلحة. دَقَّ على باب كوخ من القصدير. خرجت ارحيمو. قال لها:

ـ ها هو أخوك محمد.

ابتسمت باضطراب ودمعت عيناها. وضعتُ حقيبتي على الأرض وتعانقنا. شممت فيها رائحة أسرتي كلها، من مات منها ومن هو حيّ. سالت دموعها. أنا سالت في داخلي. بانَ طفل. لا بدّ أنه أخي عبد العزيز. قَدماه حافيتان، ثيابه رثّة، نحيف وشاحب. امتزجت دموعها بابتساماتها المسروقة من حزنها وقالت:

ـ ها هو أخوك عبد العزيز.

رفعتهُ قليلاً ومدته لي لنتباوس. كان في عامه الأول عندما عدت من وهران عام ٥١. إنه اليوم في السابعة من عمره. لم يتعلّم بعد كيف يبتسم أو يضحك. شبه خائف. رجاني التفرسيتي أن أزوره في داره وانصرف. في إحدى الحجرتين وَضَعت بين ذراعيّ طفلةً وقالت:

ـ وهذه أختك مليكة. عمرها عامان. لم تسمع بها؟

ـ لا.

ـ أمُّنا تحسنت. لم تعد تبصق الدم. وأبونا يذهب إلى سبتة ليتاجر في العسل.

- العسل؟

- نعم. يصنعه من السكر وفضلات الشهد ويبيعه للإسبان. يبقى هناك يومين أو ثلاثة. محتمل أن يعود هذا المساء.

عندما عدت، مساء، وجدت جارنا عبد الحميد جالساً على مقعد قدام باب كوخه. كان ينتظرني. أدخلني. رأيت، في ركن، حقيبتي مَبْعوجَة.

- أبوك أحمق. نحن الريفيين قساة على بعضنا البعض أكثر مما نحن قساة على غيرنا. لقد أراد إحراقها. اختك ارحيمو هي التي استغاثت فأدركته يبعجها قبل أن يحرقها.

إحدى صورتيّ الكبيرتين في الحقيبة مكسور زجاجها ومُنْشَطِر لوحها الملصقة عليه. الأهمُّ هي شهادتي الابتدائية التي لم يلحقها ضرر. أَلَحَّ عليّ جارنا أن أبيت عنده. تأبطت حقيبتي وودعته شاكراً إياه وعيناي دامعتان من الغضب.

في طريق عودتي إلى دار التفرسيتي دخلت حانة في بورديل السانية وشربت كأسين من كونياك «تري». دخنت باضطراب مفكراً في من لم أعرف بعد كيف أتخلص من وجوده في حياتي.

وجدت الزهرة تعد العشاء. استقبلتني بمرح بالغ. كتمت توتري. التفرسيتي خرج ليشتري الخبز. خامرتني فكرة شراء سكين والعودة إليه وطعنه أو تدبير وسيلة لإخلاء اخوتي من الكوخ وإحراقه وهو نائم فيه.

عاد التفرسيتي. آزرني فقلت له:

- أمي حكت لي أنه لطم أباه، وركله، وسبّه أمامها في الريف. لا بد أن تكون شجرة عائلته من المجرمين، والملاعين والمجانين.

قالت الزهرة:

- الله يسترنا.

قال التفرسيتي:

- سيندم.
- لن يهمني ندمه.

فتح زجاجة نبيذ وقال:

- لننس الليلة هذه المصيبة.

أخذ الزهرة قرب الباب وتهامسا. لبست جلابتها مسرورة وخرجت. سألته عن عزيزة وابنها عبد السلام.

- ماتت في العام الماضي مصدورة. قتلها الخمر والكيف. عبد السلام محكوم بعامين منذ ثلاثة أشهر. أدين بعدة سرقات.
- والسبتاوي؟
- هرب إلى سبتة. سرقا معاً متجر اليهودي في سوق الترانكات. لقد أفرغا، في الليل، صندوق ماله.

دخلت الزهرة تصحبها فتاة رشيقة. استقبلها التفرسيتي:

- أهلاً مينة. غبت عنا كثيراً.

صافحتها وهي باسمة مرحة. في الصباح جاءتني الزهرة بالفطور. رأيت فوق الصينية مائة وخمسين بسيطة.

ـ تركها لك محمد.

ـ ومينة؟

ـ تعمل عند أسرة اسبانية. تسكن معها. لا أحد لها هنا في تطوان. انها من ساما(*).

تركت خمسين بسيطة لتعطيها لها. رفضت وهي تمدها لي:

ـ أنت في حاجة إليها أكثر منها. إنها صديقتنا.

ألححت فأخذتها. ليست محترفة إذن. لدى خروجي أكدت عليّ:

ـ سننتظرك للغداء. حاول أن تجيء حوالي الواحدة.

(*) قرية قرب تطوان.

زيـارة

أربعة أسرّة. مريضـة واحدة طـريحة الفـراش قرب سريـر أمي. فتاة تحمل جمالها في مرضها. جمـال المسلولات: وجنتاهـا موردتـان. وضعت عـلى الطاولـة الصغيرة طـرد الفـواكـه وبست رأس أمي ثم جلست على مصطبة صغيرة مستديرة بيضاء، قرب سريرها.

- هذه هي الآنسة «الغالية» التي كتبت لك الرسالة لكي تجيء.

شكرت الآنسة الغالية وتباسمنا. احمـرت وجنتاهـا وسعلت عدة مـرات بخجل. لا بـد أن تكون قـد درست عند أخـوات الإحسان حتى تكتب بذلك الخط الجميل. أخبرت أمي عن زيـارتي لأخوتي. لم أذكـر لها مـا حدث لي (معـه). ذكرت لي أنهم لا يسمحـون هنـا لـلأطفـال أن يعـودوا ذويهم. لم تكن تعـودهـا سـوى ارحيمـو التي كبرت. يعودها، أحياناً، جارنا عبد الحميد صحبة زوجته، أما هـو فلم يَعُدْها قط.

سعلت الغالية عدة مرات بحدة. بدا عليهـا الانفعال. تنـاولت ملعقة من قنينة صغـيرة. البرد يغـزو الحجرة من النـافذة المفتـوحة. قالت أمي:

ـ لا بـد أن تبقى مفتوحـة حتى ولو كـان الثلج يتساقط ليتجـدد الهواء. نتغلب على البرد هنا بالأغطية اللازمة.

ذكـرت لها نجـاحي في الشهادة الابتـدائيـة. انفعلت فَـرَحـاً ثم دمعت عينـاها وسعلت. سعلت أيضـاً الغاليـة. لا بـد أني ذكّـرتهـا بدراستها.

ـ هل رأيت أباك؟

ـ نعم. فرح بنجاحي في الدراسة.

كنت أعرف أن أختي ارحيمو ستقص عليهـا كل مـا فعله معي، لكن سيكـون ذلك في يـوم آخر. دخلت امـرأة وجلست على حـافة سريرها. قالت لها أمي:

ـ هذا هو محمدي.

ثم سعلت. تباسمت مع المرأة وحييتها. الألم يتجسّد هنا في كل الابتسامات المُغْتَصبة، والكلمات المقتضبة والحـركات التي سريعـاً ما تفتر. قلت لأمي.

ـ البرد لا بد أن يكون قاتلاً هنا في الليل.

ـ يغلقون شباك اللوح. الهواء ينبغي أن يبقى دائماً نقياً.

وعدتها أن أزورها قبل أن أعود إلى العرائش.

تغديت مع الزهرة وحيداً. قالت:

ـ يحـدث له كثيـراً ألّا يأتي للغـداء أو للعشاء. قـد يكـون الآن يلعب الورق ويسكر في نفس الوقت. غالبـاً ما يخسر لأن الـلاعبين

معه يعرفـون ضعفه في السكـر. لا يعرف كيف ينسحب في الـوقت المناسب إذا ربح.

أبـول بـاستمـرار. قلمي يؤلمني كلما بلت أو الْتَـوى. قليـــل من الصديد يسيل منه. يؤلمني أكثر عند الانتصاب. الحشفة تحمّـر وهي بـالغة الحسـاسية مـع عـانتي وسروالي. إنها عـاهـرة إذن في مسـوح العمل.

عسل الجمال البشري

وصلت إلى طنجة مساء. حجزت غرفة في بنسيون لابلاتا. بين بولة وأخرى ينزّ قيح في ثقب قضيبي. حُمّى خفيفة ودوار. تكاسلت في الخروج للعشاء. بت أقرأ سيرانو دو برجراك وأدخن باضطراب، وأبول بألم. مسكين دو برجراك! إن زبك تطاول حتى وصل أنفك.

في الصباح ازداد ألمي عند البول، وخوفني القيح الذي يسيل منه باستمرار. الحشفة صارت أكثر احمراراً وحساسية. وصفت للصيدلي أعراضي فأعطاني شفائي في ثلاثة أيام. أول مرة أتقيح، وأول مرة أُحْقَن.

ربيعة جمعوها في حملة تفتيش عن البغايا غير الخاضعات للكشف الطبي الرسمي. حكموا عليها بشهر. كنزة تسكن فندق تاهيتي في طريق المسيحيين. بارجة أميركية في ميناء طنجة. بحارتها في الحانات، والشوارع، وبيوت الدعارة الاسبانية، والفرنسية، واليهودية. قدت ثلاثة منهم (واحد فيليبيني) من السوق الداخلي إلى ماخور مدام سيمون الجميلة. من يعرف أن يقول: هللو، كمان ذيس واي يستطيع أن يقود طابوراً منهم.

في قاعة الاستقبال فرنسيات، واسبانيات، وايطالية واحدة. تنانيرهن تكشف عن أفخاذهن الرشيقة إذا جلست إحداهن على مقعد يظهر لون تُبّانها (السليب). كواعب أحذيتهن العالية تبرز مؤخراتهن باغر عسل الجمال البشري ينتظر من يتلذذ بمذاقه. وقفنا إلى مشرب القاعة الصغير. طلبنا البيرة. تَمَيَّسَت إحداهن نحونا ثم اثنتان. قالت لي مدام سيمون:

- سأعطيك ثلاثين عن كل مائة بسيطة كما هي العادة مع المرشدين. اشرب بيرتك وعد بعد أن يخرجوا أو فعُدْ غداً.

أعطاني كل واحد منهم دولارين. لم يكن ممكناً مراقبة ما يستهلكون، لكن كل صاحبة ماخور تدفع نسبة معقولة حتى للذين ليسوا رسميين لتكسب ثقتهم.

قبيل منتصف الليل خرجت من خمارة الميناء. الفيليبيني سكران يقتاده شرطيان عسكريان بحاران. يسير بينهما حافي القدمين. لباسه البحري الأبيض لم يعد جميلاً. لا بد أنهم أفرغوا له جيوبه وعاركوه. كان أرزن من رفيقيه عندما قدتهم إلى مدام سيمون. أعطتني بنت الزانية مائتي بسيطة وقالت:

- لم يستهلكوا كثيراً.

ثمن الدخلة مع إحداهن عندها مائة بسيطة. قلمي لم يعد يسيل، قد لا تقبلني أية واحدة. عند ماري كاركن أفضل. دخولي مع إحداهن عندها شبه أكيد. لقد رأيت من هم في مستواي يدخلون. خمسون بسيطة للدخلة. فتياتها اسبانيات. إنهن أقل ترفعاً مع المغاربة من فتيات مدام سيمون. أعرف كريستسو بالينا.

كنت أبيع لها السجائر المهربة في السنة الماضية. وقفت إلى المشربة الصغيرة. ماري كاركن تتحدث مع زبون. طلبت منها نبيذ خيريث الأبيض. كريستو بالينا جالسة. تدخن وتتصفح مجلة مصورة. دعوتها إلى كأس. ابتسمت بمرح وانتصبت أمامي نافخة تنهيدة خفيفة. تَناوَلَت سانزانو. رنّت كأسانا. أشعلتُ لها سيجارة وقالت:

- لم أعد أراك في السوق الداخلي. ألم تعد تبيع السجائر؟
- انني أدرس الآن في العرائش.
- هذا أحسن لك.

حملنا كأسين آخرين مليئتين ودخلنا غرفتها. وضعت حبة بنفسجية قاتمة في طست. حللتها بأصابعها في الماء الدافىء واغتسلت. أعطتني صابونة معطرة لأفعل مثلها. صبت ماء الكولونيا على قطعتين من القطن. أعطتني إحداهما ومسحنا جسمينا من الأمام. جالسين على حافة الفراش عاريين رشفنا من كأسينا ومن فمينا ودخلنا وتكلمنا قليلاً عن البؤس الذي بدأ يغزو المدينة. ولدت في طنجة. فيما بعد سأعرف أن أمها أيضاً احترفت نفس مهنتها وأختها أيضاً مارستها فترة قبل أن تتزوج بشاب مغربي مُهَرِّب. تشابكنا فتصاعدت رائحة ابطيها القوية ممزوجة بالعطر. صدرها ملآن ووجهي صغير في مقلتيها.

البعد الحلو

قبل أن أدق على الباب قالت لي الطفلة الجارة، قبالة الهُري، لاعبة القفز على المربعات المخططة على الأرض بالطباشير الأبيض مع رفيقتها:

- صديقك طردوه من الهري.

ثم استمرت في لِعْبَتِها وهي تقول بالاسبانية ورفيقتها تجيبها:

- أدوس؟
- لا.
- أدوس؟

بعد أن قطعت شوط المربعات سألتها:

- طردوه، كيف ذلك؟
- جاء اثنان من البوليس فأخذاه هو والفتاة السوداء وصاحبتها.

حجزت غرفة في فندق مالقة وخرجت أتفقد الشوارع. الخامسة مساء. وجدت المختار حزيناً في منزله. رحبت بي والدته. قدمت لي الشاي، وخبزاً أسود، وعسلاً وسمناً. بعد لحظة أبدى المختار رغبة

ملحة في خروجنا. شيء ما يحدث. حزنه هذه المرة أطغى مما تعودت أن أراه فيه. في مقهى سنترال قال:

ـ البتول خطبها أستاذ.
ـ النساء يفضلن الزواج على الحب.
ـ ما فائدة زواج من دون حب؟
ـ إنها مشيئة النساء.
ـ اللعنة إذن على الحب.
ـ اللعنة أيضاً على الزواج، لأن أوله نعم وآخره لا.

أخبرتني مربية سلوى أن فطيمة سافرت إلى اسبانيا لتعمل هناك. سلوى جاء جدها وأخذها معه لتقضي عطلتها في البادية. فكرت: لا شك أن فطيمة ذهبت لتعمل في حانة أو مرقص. حميد حبسوه يومين في مخفر الشرطة ثم سُرِّحَ وذهب إلى أصيلة. سعيدة وعائشة سافرتا إلى مدينة أخرى. أحسست بوحشة قاسية. إن العالم الصغير الذي كونته خارج المعهد قد تزلزل. التفاحة قُضِمَت، والبرتقالة انشطرت، ورحيق التوت سال على الشفتين، وبُعدُ حلو بدأ يُكوِّنُ الحنين.

الجمال المستعاد

عندما نجحت في مباراة الدخول إلى مدرسة المعلمين أحسست كأني ولدت من جديد. اعتقدت أني بنيت جداراً منيعاً بيني وبين الاحتقار الاجتماعي، والجهل، والبؤس. يا للغباء! إن النحس كان أقوى من فرحتي. أبي لم يستقبل نجاحي إلاّ بقدر ما سأعطيه من راتبي الشهري. بدأ يساوم أكلي، ومبيتي في الكوخ القصديري، المتفرقة فيه الفئران، قبل أن أقبض حوالتي الأولى من منحة التدريب في مدرسة المعلمين. إنه يعبد المال أكثر مما يعبد الله، لكنه لا يعمل شيئاً ليكسبه إنما ينتظر الآخرين أن يكسبوه له. استيقظ كل ما تَجَمَّع في الماضي من كراهيتي الراقدة له. لقد عاد الإرهاب بيننا. لا أعرف سبب تصفية حسابه معي. إنه يلاحقني في الحضور والغياب. يخيّل لي دائماً أن له وجه مجرم، وجه من خرج حديثاً من سجن عانى فيه الأشغال الشاقة وعاقبة العصيان... إلى متى سأظل أكرّس بغضي له؟ إنها عطلة صيف عام ستين. باعد الزمن بيني وبين رفقائي القدماء في تطوان. لم يبق من بعضهم إلاّ الاسم. قد نتعرّف وقد لا نتعرّف على بعضنا البعض إذا ما تقابلنا. لم يبق منهم سوى التفرسيتي. تجارته مزدهرة. يكاد يحتكر عربات المثلجات

الثابتة والمتجولة وثلاثة متاجر أخرى. نادراً ما ألتقيه ولا أبحث عنه. لقد رضعنا من نفس ثدي البؤس. ربما يريد أن ينسلخ تماماً عن جلده. إنه غارق اليوم في الفجور، والعلاقات مع التجار وأصحاب السلطة المتباهين بمناصبهم. ما زلنا نشرب أنخاب الاستقلال. مرة أخذني معه إلى مبغى ڤياروسا في طريق مرتيل. لم أكن أتصور تبذيره ذاك. يريق زجاجات الشمبانيا على أقدام البغايا الاسبانيات. صرخات ابتهاج وهتافات: عاشت أمك يا محمد!

شربت ليلائي وحدي، على حسابه، حتى مطلع الصباح. لم أنتبه لاختفائه. ماشياً عدت إلى المدينة. قلت لنفسي، حتى لا أكدر ما تبقى من نشوة السهرة: إنه السكر. لا عليه ولا عليّ. أنا أيضاً ثَمِل. وبحثاً عن سيجارة في جيبي وجدت أوراقاً منكمشة. بضع مئات من البسيطات. لا شك دسّها في جيبي دون أن أشعر أو أعطانيها ونسيت: ثُغْرَةٌ سوداء.

أقبع، في أحد مقاهي الفدان، لأدخن الكيف مع الزبائن مجاناً. ألعب أيضاً الورق من دون رهان. أمي غالباً ما تعطيني ثمن علبة سجائر وكأس شاي. أحياناً يبقى المبلغ معي عندما يدفع عني زبون يستلطف حديثي. أتردد على المكتبة الانجليزية. أقرأ حتى تقفل. عرضت مرة خدمتي كمرشد سياحي على زوجين انجليزيين كهلين فرافقتهما صحبتي. كنت أعرف ما يكفي من الكلمات الانجليزية لإرشادهما. خريطة المدينة القديمة ما زالت ماثلة في ذاكرتي. أخذا لي صوراً مع كليهما وأعطياني مائة بسيطة. كفاني المبلغ أياماً. «إنه جاهل مثلي. صعلوك. كيف درس؟ لا بد أنهم أخطأوا في

إنجاحه». هكـذا يقول عني أبي للجيران، ولرفـاقه معـطوبي حرب فرانكو في ساحة الفدان، والمتبطلين أينما كانوا. إن شراسته معي لا تنتهي. قـد تـلاحقني حتى بعـد مـوتـه. إذا احتجّت أمي يضربها ويلعنها كعادته القديمة معها ومعنا.

كان بعضهم يوافقه على ما يقول، لأن له أولاداً يتغذون بالرذيلة فلماذا لا أكـون أنا واحـداً منهم ونحن كلنـا في الـطين! لكن هنـاك استثناءات. أوقفني كهل في الشارع:

- هل أنت ابن حدو علال الشكري؟
- نعم.
- هل صحيح ستصبح مدرساً؟
- نعم.
- أعـانك الله. النـاس يتمنون أن يكـون لهم ابن مثلك وأبـوك يَسْتَجْهِلُك، ويستهزىء بك. إن أباك أحمق.

- أعـرف ذلك. لقـد ولـد ليحقـد عـلى الجميـع. لا يحب حتى نفسه.
- الله يسترنا.

أستعيـد الحنـين إلى مـلاعب طفـولتي في متـاهـات الـدروب، والأحياء، والضواحي: أيـام الزّعـارة والفتوة، حـومة (حيّ) تهجم على حومة، سرقة بساتين الفـواكه، في ضفـة الوادي عـرايا نتبـارى بالاستمناء: هـا أنا قـذفت الأول. وأنا بعـده... زرت حيّ «عين الخباز»، ومسكننا القديم في غرسة بنيناس. بالحجارة والهراوات كنا نتضـارب. احتفـالنـا بِغَيْثِ الـربيع وشمسـه والسنـونـو. نـرقص

ونصيح. ديك لا أراه يصيح من مكان قريب. حزام فاطمة الزهراء (قوس قزح)، نركب الحمير، نتعلق بمؤخرات الشاحنات وهي تقلع. آثار حريق السياج ما زالت بقاياها في الأوتاد الخشبية القائمة والطائحة. شجرة التين ما زالت مخضرّة، شامخة. الأعشاب المتسلقة تشعبت فيها، متشابكة، فغطت بعضاً من جمالها. الجمال المستعاد دائماً أجمل. الانبهار لا يكف في جميع الأعمار.

أكتب بعض الفصول، من هذه السيرة الذاتية، عام تسعين. في صيف السنة الماضية زارني الصديق المستشرق الياباني نوتاهارا، صحبة زوجته شوكو في طنجة. كان يترجم الخبز الحافي إلى اليابانية. أنجز ثلاثين صفحة وتوقف. «فكرت أنه إذا عاينت الأماكن التي تجري فيها أحداث الكتاب فستكون الترجمة أسهل، وأدق، وأوضح . . .» هكذا قال. بدأنا من تطوان لنعود إلى طنجة. الصهريج كان أول ما شاهدنا. أخذ له صوراً عديدة من جميع جوانبه. عندما انتهى قال مبتسماً:

- في كتابك تصف هذا الصهريج، وما حوله، بكثير من الجمال، مع أنه ليس كذلك، ولا يدل على أنه كان جميلاً.

قلت له بنفس الملاطفة:

- هذه هي مهمة الفن: أن نُجَمِّل الحياة حتى في أقبح صورها. إن هذا الصهريج انطبع في ذهن طفولتي جميلاً ولا بد لي من أن أستعيده بنفس الانطباع حتى ولو كان بركة من الوحل. ثم إنني كنت بعيداً عنه زمنياً، ومكانياً، عندما وصفته.

الظهيرة صاهدة. كنت واقفاً على حافة الصهريج أتأمل البيت الذي سكناه في أوائل الأربعينات. بيت البؤس الجميل والخلافات اليومية بين أبوي. إنه زاه اليوم بطلائه الأبيض، وبابه الجديد. عندما سكناه كان طلاؤه مكشوطاً، كالح اللون، غير متماسك، أعيد ترقيعه عدة مرات بألواح مختلفة أقدم منه. خرجت امرأة بدأت تشيخ. صدرها ضخم، متهدل، لكن وجهها صبوح. وجهٌ قَروِيّ. بانت خلفها شابة حولها طفلان صغيران حافيان.

- كنا نسكن هنا من قبل.
- ابن من أنت؟
- ابن ميمونة.
- سكنا بعدكم هنا. أعرف أمك. لم أرها من زمان. أين تسكنون اليوم؟
- في سيدي طلحة: باريوسان انطونيو.
- كيف حالها المسكينة؟
- لا بأس.
- سأزورها إن شاء الله. بلّغ لها سلامي.
- مُبَلّغ.

لم يكن عندي ما أعطيه للطفلين من نقود صغيرة، ولا ما أضيفه للمرأة. اعتذرت شاكراً وانسحبت. مشيت في طريق النخيل مستعيداً ذكرياتي بمزيج من الفرح والحزن عن هذا الحيّ. معهد البيلار ما زال شامخاً. لم أكن أعرف ما أفعله بوقتي الفائض بعد القراءة. لو كنت في طنجة لما أحسست بهذا الفراغ الممل. هناك

أستطيع أن أُوَلِّد من أكثر الأيام كآبة وعوزاً بعض المتع. العزلة هناك حرة لها مذاق التوت البري، وهنا مفروضة ولها مذاق الحنظل. تجوّلت حول المكان الذي كان فيه كباريه «لابيركولا»: الطانجو وكارلوس غاردل، كونشا بكير، الفلامينكو، لاس كوبلاس (أغان شعبية)، والرقص الغجري. منزل الايطالية الشابة، التي كنت أنتقي من قمامتها قدام بابها أعقاب سجائرها المصبوغة بأحمر الشفاه القاني. أدخنها بلذة جنسية. فاجأتني يوم أنبش زبلها بحثاً عن الأعقاب فلم تعد ترميها. مررت على رياض العشاق. لم يكن عندي ثمن شرب شاي في مقهى المغارة. الهادي الجويني يغني: تحت الياسمينة في الليل. تجارة أمي تكسد في أواسط الشهر. لا يمكن لها، أحياناً، أن تعطيني شيئاً. نسيم معطّر يلطف المزاج وسط هذا الاخضرار الزاهي الذي يختال فيه العشاق المبتدئون. لم تعد في الحوض سوى سمكات صغيرة ملونة. الكحوليون الذين يحتمون هنا بالليل اصطادوا الأسماك كلها بالقفة وأكلوها لُماظَة (كِيّة، طايا) مَشوية. هكذا قيل. البطّ اختفى تماماً من الحديقة. كان هناك قرد يشاكسه الأطفال في قفصه، ومصور يعرض على العشاق ببشاشة، أن يلتقط لهم صوراً. العشق المغربي، المبهور ببطولة الحرية، بدأ يخرج من المخابىء، ووراء الشبابيك إلى الشارع، ودور السينما، وتحت الأشجار، في أزياء أوروبية، ورباطات العنق. تناسق الألوان غير منسجم، والخطو بالحذاء ذي الكعب العالي متعثر. تيه ودلال ساذجان. عمر العشق لم يتحضر بعد. أتردد على الترانكات، والسوق الفوقي، والغرسة الكبيرة، والملاح (حي اليهود) أكثر من مرة في اليوم. الحركة

والعمل اليدوي وضجيج الباعة والصناع، في هـذه الأحياء، يخفف من تـوتر عـطالتي وسأمي، لكن المفـزع هو لـو أنني أعود يـومـاً إلى احتراف أحد هـذه الأعمال. يكفيني مـا عانيتـه فيها من مهـانة وأنـا صبيٌّ مُتَعَلِّم.

كنا ننام، إخوتي وأنا، في حجـرة، وفي الأخرى أبـواي. لم نكن نتكلم، ولكي أتحاشى رؤيته أجيء في حوالى منتصف الليل. عندما يسمعني داخلاً يبدأ همهماته اللاعنة. غالباً ما أكون أنـا موضـوعها. أكيد أن أمي تكون نائمة. لا أسمع أيّ حوار بينهما، لكنه يخـاطبها كأنها تسمعه. قـد تكون يَقْـظَى. وعندمـا يتعب يشتمها ويشتم مـا ولدته من خنازير ثم ينام وهو يدمدم. كلانا عنيد في ضَلالِه: هو لا يرضى أن أكون ابنه، ولا أنا أرضى أن يكون أبي. يتعاظم تنـاحسنا كل يوم. ينقصنـا ولو زخـرف الخيال. يقينـاً أنه لم يحلم أبـداً بمحبة أحد حتى نفسه، وكذلك الحيـوانات، والأشيـاء، إذا لم تكن نافعـة له.

بداية سبتمـبر أتمنى أن يمر هـذا الصيف العفن بسرعة لأسقط في أحضـان الخـريف، ثم الشتـاء، حيث يكـون للدفـء عمق أحـلام اليقظة عن المستعاد الجميـل. . . ! نادراً مـا أعود إلى كـوخ اللعنات والنحس اليومي في الأصيل مثـل اليوم. جـائع ومتعب. أخي عبـد العزيز يبيع البزر والحلوى لأطفال الحيّ فوق صندوق يتخيله دكانـاً مثل بقال. إن عقلية التاجر ولدت معه. يتعمد أن يعدّ أمامنا نقوده الصغيرة عدة مرات. يزهو بما يربح ويتحدّى أختينا أن تكسبـا شيئاً مثله. لو أنه يستطيع لتحـدّى حتى أبانـا العاطـل. وجدت حبيبـة، مصغيـة في تأمـل، تحكي معهـا أمي وأختي ارحيمـو. أختي مليكـة

غافية على حجر أمي ملامسة رأسها. كان هذا التكاشف الحميم استمراراً لصداقة أمي مع أم حبيبة. أم حبيبة هي أيضاً عانت كثيراً من قسوة زوجها الفاسق، لكنها كانت تقاومه حتى هزمها الموت فزوج وحيدته حبيبة كهلاً تاجر ماشية (صديق له) وهي لم تتعد السابعة عشرة. طلّقها بعد سنة وأشْهُرٍ لأنها لم تنجب له. أبوها وعمتها شرسان معها ولا أحد تحتمي به. أدخلوها إلى مستشفى الأمراض العقلية لأنها تكسر أشياء المنزل، وتمزق ثيابها وأيّ ثوب تجده أمامها. في المستشفى ترقص بهوس صارخة حتى يغمى عليها أو يحقنوها. بعد أشهر خرجت لتعيش حياتها العادية. في عطلة صيف تصاحبت مع شاب على شاطىء مرتيل يصطاف مع أسرته. تزوجها في تطوان وذهبت لتعيش معه في الرباط. كان يعمل في مرآب، أنجبا أربعة أطفال، لكنه كان يقسو عليها بالضرب حتى الإدماء فهجرته تاركة له الأطفال. طلقها فذهبت إلى سبتة حاملة معها جنون صدمتها من جديد. في سبتة أيضاً كانت ترقص مهووسة وتعربد سكرانة في الأحياء الشعبية مغازلة الرجال، ساخرة من النساء. كانوا يسمونها الحمقاء الجميلة. لم يكن لها مأوى فكانت تنام حيثما يستضيفها متشرد في أحد أكواخ البرينسيبي. أحياناً تصنع من الزهور إكليلاً تضعه على رأسها ساحبة خلفها أربع صفائح تقعقع معقودة كل واحدة منها على حدة في حبل واحد. الصفائح الأربع ترمز بها إلى أولادها الذين تركتهم في الرباط مع زوجها الهمجي كما تقول. عندما تهدأ لفترة تروق لكل من يعرفها ومن لا يعرفها فيجددون ملابسها ويطعمونها. تفاقمت عربداتها فَرَحَّلوها إلى تطوان لتدخل مستشفى الأمراض العصابية لكي تفجر

طقوس رقصها حتى يغمى عليها أو تحقن كالعـادة. خرجت لتعيش حيـاة رصينة نـاسية كـل شيء. كانت تتـدبر أمـرها فتشـتري أزهى الملابس تتصابى بها في شوارع المدينة. أبوها يملك متـاجر ودوراً. في إحـداهـا تقيم هي في الـطابق الأرضي وفـوقهـا عمتهـا الأرملة دون أولاد. خصص لهما معاشاً شهرياً تعيشان بـه، بتقتير، في انتـظار ما سيحدث للمنكودتين كما يقول. تزوجت حبيبة للمرة الثـالثة بعـدما ظلت سنـوات وهي تخيط الشوارع. وفي الشهـر السـابـع من هـذا الزواج ماتت بالكوليرا وزوجها ينتظر منها طفلهـا الأول. أستطلف حضـورها وهي تحكي لأمي عن همـومهـا مـع زوجهـا وأولادهـا في الـرباط. ذهبت ارحيمـو عند صـديقتها الحـدباء فـطيمة جـارتنـا، وخـرجت أمي إلى المطبـخ في حوش الكـوخ. مليكة نـائمة. دعتني حبيبة للعشاء معهـا فتلاشى تعبي. تسكن في حيّ مـالقة. دست في يدي ألف فرنك مدعوكة:

- تصرف. اشْـتَرِ شيئاً للشرب. سـأخرج بعـد قليل. انتـظرني قدام سينما الحيّ.

أمي تطبخ. لم تكن تعـترض عليّ متى أدخـل أو أخرج. أنـام في الكـوخ أو لا أنام. إنها عـادة قديمـة بيننا. رأتني أخـرج وهي تضع شيئاً في الطنجرة:

- سأخرج.

هزّت لي رأسها ولم تقل شيئاً. ليس من عـادتها أن تـطيل النـظر إلى الأشخاص. نظرتها مبهمة فيهـا حزن دائم. إنها تحتفي بي أكـثر

من اخـوتي. ربما لأني بكـرها، ولأني نجـوت من المجاعـة بمعجزة، ولأني ولدت في الريف وأتكلم معهـا لغة العـائلة، وربما لأني أعيش بعيداً عنها. اخوتي الذين ولدوا في طنجة وتـطوان لا يتكلمونها وإن كانوا يفهمون منها القليل. لا يريـدون أن يتعلموهـا. أمي تكلمهم بـالريفيـة فيردون عليهـا بالـدارجة. يحـاولـون، مـا أمكن، إخفـاء أصلهم. يعتقدون أن الريفيين متخلفـون. أمثالهم كثيرون عرفتهم في كل مكان: كبار وصغار.

حتى الآن لا أعرف كم كنا! لقد كان يولد لي أخ وأخت فيموت أو تمـوت وأنا في طنجـة لا أعلم شيئاً. لم أسـألها قط حتى وفـاتها في ٨ - ٦ - ٨٤.

في باريو مالقة شربت كأسين من النبيـذ الأبيض عند دكـان خمار اسباني، واشتريت منـه زجاجـة. كانت حبيبـة قد نعتت لي الـدار. بيتها بسيط ونظيف. ذكَّرني ببيت فطيمة في العرائش. حجـرة امرأة وحيدة للنوم والجلوس، تجـد متعتها في تنـظيف وتلميع مفـروشاتهـا التي تستمد منها بعضـاً من إلفتها مـع الحياة. عـلى الحائط صـورتها طفلة مـع أبيهـا في بـاب التـوت، صــورة لهـا في لبــاس العـرس التقليدي، صورة أمها في إطار كبير، دميتان فـوق خزانـة الملابس، ساعة الجدار الدقاقة وساعة الكوكو، طـاولة ليـل تضاء بـأباجـورة، وطاولة ذات رخامة فوقها مرآة، وأدوات الزينـة، وزهريـة مزخـرفة فيها باقة ورد حمراء محاطة بزهور بيضاء. شربنا وتعشينا طاجينـا من السمك ودخنا ثم حكينا عن همومنا. عندما أتعبنا الحكي اتفقنا على أن الإنسـان لا يعـرف حقيقـة نفسـه، وحقيقــة الآخـرين، إلاّ في

المصائب والكوارث. شعرها الآن أسدلته. كان معقوصاً عندما كانت في كوخنا. صارت أجمل. حركاتها رشيقة، متناسقة، صوتها رقيق، وكلامها بطيء سعيد، ونظراتها ناعسة. تشرد، أحياناً، وأنا أحكي لها عن دراستي في العرائش، أو حياتي في طنجة. سرّني أن تدعوني للنوم عندها. لن أسمع اللعنات الحمقاء التي يتقيأها أبي في كوخ الشؤم كل ليلة. ألحت عليّ أن أنام في فراشها وهي على المطربة (التخت)، لكني ألححت أنا أيضاً على النوم في المطربة. نمت بكامل ثيابي. ساد الظلام والصمت. فكرت في رغائبي وشهواتي الماضية. هذه الليلة ليست هي الأفضل بين مثيلاتها، لكنها إحداها. تقلبت عدة مرات. إنها علامة الأرق كما تعودت. بدأ الشوق يهيجني. منذ أكثر من شهرين لم ألمس ساقاً أو نهداً. لم يدخ رأسي بلذة حقيقية مستطابة، غير أن الاستمناء له لذته، ومزاياه، فهو أكثر حرية، وخال من متاعب العلاقات الدائمة، وأمراض المحترفات. إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرىء ما نوى وهوى. هل دَعْوَتُها لي مجرد احسان؟ رفقة للتنفيس عن الهموم المشتركة؟ أو هي مشروع رغبة حاضرة أو مستقبلة؟ قد تكون دعوتها هي الرغبة الصريحة بعينها. لا أدري ما يخبئه لي جنونها الراقد! لا أريد أن أكون سبباً لها في رقصات جنونية أخرى، لكن رغبة إفناء جزء مني فيها يهيّجني ويأمرني هوسي بها. يحدث لي مرات في طنجة أن أستيقظ في فندق أو في بيت صديق ولا أعرف من هي التي تنام معي، أو تغادرني نائماً دون أن أراها ولا أتذكر إلّا نبضي فيها. أيكون السكر وصدفة الليل قد جمعانا، لكن حبيبة ليست صدفة الليل ولا نحن سكرانان. سأغتصب لطفها معي إذا هي امتنعت.

لماذا لا أترك هذه الليلة تملؤنا بصمتها الجليل، ومتعتها الحميمة؟ ومثلما يفسد الشوق الأهوج كل شيء جميل نهضت متلصص الخطو واندسست بكامل ثيابي معها. كانت تنام في وضع جنيني. شعرها منسدل على وجهها. تراخت متمططة واستقام جسدها ثم انطوت من جديد وصوتها الهامس حالم أو متعب:

- دعني أنم.
- أحبك.
- كفى من كذب الليل.

غباء. إنها على حق. أُمثّل مهزلتي. ألححت على تقبيلها ولمسها لكي أتأكد من تمنعها. لكنها مصرّة على امتناعها دون أن تأتي بحركة نافرة. كانت واثقة من نفسها. لقد أخطأت قدمي وطأها. فجأة أحسست بجسمها ينتفض ويتصلب وبسائل دافئ يبلل سروالي. أتبول وهي يَقْظَى؟ قد يكون لها جنون البول مثلما لها جنون الرقص. في ماخور طنجة نمت مع ليلى البوالة فلم تبل أما حبيبة فقد بالت.

انسللت قبل أن أثير فيها نوعاً آخر من الجنون أو جنونها بأجمعه. خلعت سروالي وانكفأت على وجهي فوق مضجعي. إنها تبكي. ربما هي تنظف نفسها من إهانتي لها أو أنها تبكي لكي ترقّ وتروق أكثر، لكني لست مستعداً أن أمثل معها مسرحيتها. هناك نساء لا يلطفن ويرقن إلا عندما يبكين، لكن ليس لدي صبر جميل لمشاهدة هذا الدور. ماذا بَوّلها؟ أهو الخوف أم التشنج العصبي القاهر؟ مع ذلك فإن حبيبة ليست هلاماً أو طحلباً، أو بطيخة صفراء عفنة

مـطروحة في عـزّ الشمس كما قـال يوسف كـاره النساء في مستشفى الأمراض العقلية. لقد فكرت أن الفاكهة الإنسـانية إمـا أن تُقْطَفَ في أوانها أو تتعفن، لكنني مخطىء. إن القطاف لم يحن بعد.

طائر السعادة

اشترت لي أمي سترة وقميصين وبنطالين لبدء الدراسة في مدرسة المعلمين. أخبرتها بإقامتي عند حبيبة فقالت:

ـ أنت تعرف ما يليق بك.

بـدأ يسكنني شيطان الأدب فصرت أهتم بقـراءة الكتب الأدبيـة أكثر من اهتمامي بدروس علم النفس التربوي، والتشريع المدرسي. النصوص التي أعيرها اهتمامي هي اللغـة العربيـة. أستاذهـا مقتدر فيهـا. بعـد الشرح قـد يعـرب لنـا النص بكـامله المكتـوب عـلى السبـورة. إنـه جـدّ مؤمن وجـدّ مـاجن: الـدنيـا في يـده اليسرى، والآخـرة في يده اليمنى. يـوم الجمعة، في أحـد المساجـد الصغيرة، يَؤُمُّ الناس ويخطب فيهم. يعربد، ليـلاً، في الرينكـون أو في سبتة. صحبته مرات في سيارته القديمة. يضـع فخّاً تحت المقعـد الخلفي. يتـوهم أن فأراً يسكن سيـارته. إنـه فار ذكي لأنـه لا يأكـل الطعم كله. هكذا يقول.

ضبـطني أستاذ الـتربية وعلم النفس أقـرأ «البؤسـاء» فـأخـرجني صـارخاً: «هـذه قاعـة الدرس وليست مكتبـة». صرت أتردد عـلى

مقهى كـونتيننتال. مـريح وأغلب رواده أنيقـون تبدو عـلى وجوههم آثار النعمة. تسعة وأربعون ألف فـرنك، التي أتقـاضاهـا في منحة التـدريب، كانت مبلغـاً مهماً عـام ستين. أعـطي جـزءاً منهـا لأمي وأحتفظ بـالبـاقي. أوزع وقتي بـين القـراءة بـالعـربيـة والاسبـانيـة والعـربدة في الحـانات. حـانة ريبـيرتيتو، المزينة جـدرانها بـرؤوس الثيران، كانت أزهاها. أستمتـع بالأغـاني التي أسمعها من الحـاكي الآلي في كـونتيننتـال. ثـلاث أغـانٍ لا أَمَـلّ من تكـرار سـماعهـا: الصُّبحيات لنات كينغ كول، الساعة للوشوغاتيكا، وبيسامي موشو لأنطونيو ماتشين.

سألت شاباً جالساً بجانبي عن شخص أنيق يحترمه رواد المقهى، وتتكون حوله ثلة أنيقة ومنعّمة وجوهها مثله:

- من هو ذلك الشخص؟
- ألا تعرفه؟ إنه الأديب محمد الصباغ.
- ماذا يكتب؟
- الشعر المنثور.

اشتريت كتبه: اللهاث الجريح، شلال الأُسُد، شجرة النـار وأنا والقمـر (الأخيران مـترجمان إلى الاسبـانيـة) وكتب صغـيرة الحجم. قرأتها في يـومين. قلت لنفسي: إذا كـان الناس يحـترمون من يكتب مثل هذه الأشياء فأنا أستطيع أن أكتب مثلها أو أفضل منها. الكتابة إذن امتياز. كنت أعتقد أن الأديب لا يرى في الأماكن العمومية ولا يتحـدث إلى الناس كـما يفعـل محمـد الصبـاغ في هـذا المقهى. إن الأديب إما هو خفيّ وإما هو ميت، كتبت شيئاً في ثلاث صفحات.

أسميت هذه الخربشات اللقيطة «حديقة العار».

صرت أترصّد محمد الصباغ حتى رأيته يوماً جالساً وحيداً يشرب قهوته المضغوطة. اقتربت منه باضطراب:

- الأستاذ محمد الصباغ؟
- نعم.
- لقد قرأت كتبك بإعجاب كبير. أنا أيضاً أريد أن أكتب. هذا أول ما كتبته. أرجو أن تصححه لي وتعطيني رأيك فيه.

وضع الصفحات بلباقة في جيبه. حييته واختفيت من المقهى حتى لا أحرجه وأحرج نفسي.

في الظهر يكون المقهى شبه خال. ومن عادته أن يتناول قهوته قبل أن يذهب إلى عمله في المكتبة العامة. أعاد لي الصفحات في الغد قائلاً:

- لغتك لا بأس بها. استمرّ في الكتابة بانضباط واقرأ كثيراً.

شربت معه القهوة السادة. ذكرت له شذرات عن حياتي في طنجة، ودراستي في العرائش، وتدريبي في مدرسة المعلمين. صار يوجهني في قراءاتي الشعرية بالعربية والاسبانية: غوستافو أدولفو بيكر، الأخوان انطونيو ومانويل متشادو، ألكسندر فيتنتيس، (كان يتراسل معه) بابلو نيرودا، ثيسارڤايخو، غابريلا ميسترال ورافايل ألبرتي... واكتشفت بنفسي عذوبة شعرية رومانسية عند الشاعرات: روساليا دي كاسترو (مترجمة من الجليقية (إل فايجو) إلى الاسبانية، إيملي ديكنسون (مترجمة إلى الاسبانية) مَيْرادِلْ المار،

سوسانا مارش، خوانا ايبار بورو والفونسينا سطورني. قلما كنت أقتحم ثلته الأدبية. كان بعضهم قد ألّف أكثر من كتاب، وأنا كنت أحاول كتابة جملة جميلة. قصص من المغرب، لأحمد عبد السلام البقالي، كانت أول ما قرأته لكاتب مغربي. نشرت لي جريدة العلم قطعة نثرية «جدول حبي» مع صورة بالقبابيون. دوّخني الفرح وسكرت احتفالاً بموهبتي الأدبية الدفينة. اشتريت أعداداً كثيرة وزعتها على رفقائي المتدربين لأشعرهم بأهميتي بينهم. فكرت: ابن الكوخ والمزبلة البشرية يكتب أدباً وينشر. لكي أزكّي أهمية نفسي المتبجحة اشتريت سترة وبنطالاً فاخرين، وربطات الفراشة، وسلسلة يدٍ زائفة مذهبة. تملكني الزهو والرفعة فتخليت عن المقاهي الشعبية في الفدان، والترانكات، وباريو مالقة وصرت أرتاد قاعة فندق ناسيونال، مرقص المارفيل ليلاً. صار عندي مقهى كونتيننتال من الدرجة الثانية، وحانة لابارا من الدرجة الثالثة. أحلق وجهي مرة أو مرتين في اليوم إلى حد البرنزة. أتعطر حتى صرت أحمل في جيبي قارورة صغيرة. ابن البراكة وعشير الفئران يتأنق، يتحضر، يتطور، يخرج من جلد خشن ليدخل في جلد ناعم. والإلهام...؟ آه! لا بدّ من مُلْهِمَة. ابن الوحل يستلهم..؟

تبعت يوماً فتاة سمراء. عرفت سكناها وأصلها. صرت أسير ظِلّها كلما صادفتها أو ترصدتها قدام منزلها أو قدام منزل خالتها. صديقة لابنة زعيم مغربي. لقد تعلّقت حيث ينشدخ رأسي. حليمة، جارة حبيبة وصديقة أختي ارحيمو، أمية، لكنها سمراء وجميلة. يمكن لها أن توحي لي بقصيدة غجرية، لكن طبعها الهادىء

قد لا يوحي لي بشيء مهمّ. أعنف الطبع هو ما تعودته.

أعطت لي حبيبة مفتاح بيتها. أدخل وأخرج متى أشاء. لا تبيت، أحياناً، في بيتها. ذاك لون زهرة أخرى. أكثر من مرة رأيتها في سيارة أو ماشية صحبة من، لا أدري من، في شوارع النزهة الجديدة! تنحرف...؟ شغلها. غابت ولم تظهر إلّا في اليوم الثالث: آثار كدمة زرقاء على عينها اليسرى. ضربة قوية. هناك من يستعبدها. أصيبت أختي ارحيمو بدرن رئوي. أبي وأخي عبد العزيز أيضاً يسعلان بحدة. وباء شامل في أسرتنا. لم تسلم سوى مليكة وأنا. أمي شفيت لكنها خاضعة للرقابة الطبية الدورية. أبي وحده ظل يُعالَج حُرًّا.

غابت حبيبة يومين. انتقلتُ إلى فندق «الجوهرة السوداء» العائلي. فندق صغير. يديره أخوان اسبانيان: روساريو وكرّيون. عشرون ألف فرنك في الشهر: غرفة صغيرة وثلاث وجبات. لا شك أن حبيبة تعيش قصة غرامية شقية.

زرت ارحيمو وعبد العزيز في المستشفى. انفجرا باكيين. امرأة ماتت في حجرة ارحيمو. لم تقتنع بعد أن من يمرض قد لا يموت. أمنا معجزة.

صحبت محمد الصباغ إلى منزله في المدينة القديمة. حجرة إنسان متعبد لفنه. عنب، وتفاح، وإجاص في صينية، ضياء شاحب يُعَمِّق صمتاً شاعرياً. شوبان: ليليات مايوركا وقراءة رسائل ميخائيل نعيمة إليه. خرجت من عنده مُتَمنياً أن يكون عندي بيت متوحد مثله. يصحح لي كتاباتي بكلمات منحوتة، جدّ شفافة، لكنه

من طينـة وأنا من طينـة. إنه لم يقتت من زبـل المُرَفّهـين، ولم يُقَمَّل وعرقوبـاه مشقوقـان، داميان. أنـا لا أعرف كيف أكتب عن حليب العصـافير، واللمس الحـاضن للجمال المـلائكي، وعناقيـد النَّدى، وشلالات الأُسد، والعَنْدَلات. أنا لا أعـرف كيف أكتب وفي ذهني مكنسة من بلور. المكنسة احتجاج وليست زينة.

زرت حبيبة لأعطيها مفتاح بيتها. شاحبة، والِهَةٌ ويائسة. اختنق صوتها وانبَحَّ:

- لماذا ذهبت؟ ماذا أزعجك؟

يبدو عليها أنها بكت.

- لا أريد أن أزعجك.

- لا تزعجني في شيء.

على الطيفور (مائدة مستديرة) قنينتا بيرة فارغتان، وعلبة سجـائر شقراء. همّ جديد غزاها. منهارة. حتى عمتهـا لا تراهـا. تعتبرهـا فـاجرة. عمتهـا التي ينكحها حـارس مـرآب الحيّ. لم تكن لحبيبـة صديقات. اقترحت عليها أن أجلب شيئاً نشربه معـاً. تهلل وجهها فرحاً. أريد لمزاجهـا أن يروق. ذكـرني حزنها بفـطيمة في العـرائش عندما تمرض ابنتها سلوى. سلوى ويوم الشتاء في الحديقة الخـالية. سلوى التي قـد لا أراها أبـداً. لم أتركهـا تدخـل يدهـا في حقيبتهـا الصغيرة. تبرعم طيف بسمة ثم انفغر البرعم فانجمـل وجهها فـإذا بها أَصْبى. سنتعشى معاً. لحم الغنم بالخرشوف والجلبانة. نَفْحُ برد منعش يصفح ورذاذ. في دكان الاسباني طلبت كأس نبيـذ خيريث.

اسبانيان عجوزان يتحدثان عن فن مصارعة الثيران. تَرَدّى اليوم في التجارة. يتحسران على خوسي بارانداس، مرسيال لالاندا (شيكويلو) الشجاع، وفرانسيسكو بيرالطا، خوسيليتو الغايو، ومنويل بينفينيدا ميخياس، وخوان لويس دي لاروسا (فاشيستي قتل في برشيلونة في بداية الحرب الأهلية الاسبانية) ومانوليطي العظيم. حين يختلفان ويحتدّ نقاشهما يحكم بينهما الدكاني ملطفاً هياجهما. شربت كأسي الثانية واشتريت زجاجة نبيذ أبيض. فكرت في حبيبة وأنا عائد: من الأفضل لها ألّا تحضن على بيضة حبٍّ من جديد حتى لا تعود إلى رقصها الجنوني في المستشفى أو في شوارع سبتة، لكنها ربما تجد، بين فترة وأخرى، نشوتها، وتصريفاً مريحاً لقلقها في هذا التشرّد الأهوج. طلاقها الأخير أفقدها الكثير من نزاهتها وهي لم تبلغ بعد الخامسة والعشرين. أطفالها الأربعة ولدتهم مثل أرنبة: توأمان والاثنان الآخران الواحد تلو الآخر. ولكي تدبر أشغال المنزل كانت تربطهم من أرجلهم إلى قوائم السرير، والتخت، والمنضدة، متباعدين حتى لا يتخامشوا، ويتخاطفوا قطع البسكويت. لم تعش قط حياة جميلة. لحظات فرح قد تسرقها. حظها سيء منذ باكر عمرها.

رائحة طبخ لذيذة تسرّبت من المطبخ فعمت الحجرة. انبعثت فيها حيوية مرحة. كلماتها صارت تمسح غبار كآبتها على وجهها. نتلاطف بالأنخاب والبسمات فإذا بها تشرق كما لو أنها في حفل زاه. امتدحت مهارتها في الطبخ: اللحم بالخرشوف والجلبانة أكلتها المشتهاة. تسميها الوزير الأول.

رَقّت ملامحها. قالت:

- لم أعثر بعد على من يفهمني مثلك.

- لا ينبغي لنا أن نثق كثيراً في السعادة. إنها آتية هاربة، منفلتة كلما أردنا القبض عليها. قد تكون مثل عصفور جميل يحط على حافة شرفتنا. لا نكاد نقترب منه حتى يطير. هل تعتقدين أن العصفور سيحط على الكتف ويغني لك أو لي كما نتخيل؟

- أفهم.

- هذه هي السعادة إذن: إنها لا تحط على الكتف وتغرد. إنها تظل على حافة الشرفة.

وافقتني ونسمة الانشراح تسترخيها.

- أنت على حق.

كنتُ أيضاً أعزّي نفسي لأنّ حياتي ليست أجمل من حياتها.

الحالمون

في ذلك الصباح الطري، النسيمي، خرجت من دار حبيبة وكأني ماش في الهواء، خفيفاً مثل ريشة. ما زالت نائمة. انغلق الباب آلياً. سروالي ما زال مبتلاً قليلاً. طلبت فطوراً في مقهى القائد اليزيد. فونوغراف لاڤوا دوصون متر في ركن. حتى نهاية الأربعينات تركتهم يشغلونه بذراع التدوير. أغاني أم كلثوم، وأسمهان، وعبد الوهاب، وفريد الأطرش كانت هي السائدة. لقد احتفظوا بالفونوغراف شاهداً على تلك الفترة: تحفة ذكرياتهم وثقافتهم. سأنتظر حتى تذهب أمي لتبيع الثياب المستعملة في باب التوت، وأبي إلى الفدان وفي ذهنه حكايات جديدة ملفقة يحكيها عن شجاعته للمتقاعدين أو الهاربين مثله من حرب فرانكو. لكل حكايته الكاذبة. لم يكن أبي، في الواقع، شجاعاً حقيقياً إلّا في حربه معنا، وإن بدأ ينهزم عندما كبرنا. غير أنه، بين فترة وأخرى، يضرب أمنا حتى يدميها أو يُزَرّق لها إحدى عينيها أو هما معاً. ذات يوم أعياه الضرب فرفع القِدر الذي يغلي فيه محلول السكر الذي يصنع به العسل لبيعه في سبتة، ولولا الجيران، الذين استغاثت بهم، لأفرغ المحتوى على رأسها. عندما جئت أمسكت مِدَقّة الهاون

وهددته بتهشيم رأسه إن هو عاد إلى جنونه معها. خرج إلى دار جارنا وانخرط في نوبة من البكاء وهو يردد: «المسخوط يهددني بالقتل. يهددني بالمهراس. لو خنقته وهو صغير لتخلصت منه». تذكرت كيف انفجر دم أخي عبد القادر عندما لوى له عنقه. تلك كانت آخر مرة يضربها. لقد اكتفى بشتمها ولعننا.

وجدت ارحيمو تسعل محمومة. حين يهدأ سعالها تهدل مثل حمامة. عصير البرتقال هو الدواء الذي تركته لها أمي. غسلت سروالي وحلقت وجهي وخرجت. اشتريت حبة حلوى من عبد العزيز وتمنيت له يوماً مريحاً. قال بمرحه المازح:

- إنك أول من افتتح به هذا الصباح. سأرى إن كنت طالع سعد لي في هذا اليوم.

قبَّل القطعة النقدية الصغيرة ووضعها في جيبه. تباسمنا وانصرفت. قبل انعطافي في الدرب سمعت فطيمة، جارتنا الحدباء، تُصَبِّح. حييتها واختفيت. شقية بعاهتها. تجد عزاءها في الروايات الغرامية التي تقرأها في طبعاتها الرخيصة، وفي رسائل الحب التي تجيب بها عشاق صديقاتها الأميات العاشقات. إنها كاتبة عمومية للكبار والصغار في حينا. أدركت أن جمال الحلم، في اليقظة والمنام، هو كل طموح وثروة هذه الأكواخ. إن الفقراء هم الحالمون الحقيقيون. يحلمون، وهم في قواقعهم، بالاتساع، والعمل المثري، والمآدب، والحفلات الصاخبة حتى يغمى عليهم رقصاً وغناء. الكابوس أخف في وطأته عليهم بثقله الملازم للأسياد والأغنياء: إنهم يُكَبسون (من الكابوس) أكثر مما هم يحلمون.

لست دارياً لماذا أشعر بفرح غامر هذا الصباح، رغم ما حدث لي مع حبيبة. قرأت، في المكتبة الانجليزية، فصولاً من رواية جين إير ثم ذهبت إلى مقهى الفدان. صاحبت أحدهم في لعب الورق ضد اثنين. الرهان على الشاي. صاحبي هو الذي سيدفع عني إذا خسرنا. ربحنا وخسرنا ثم ربحنا. عندما داخ رأسي باللعب والكيف ذهبت إلى مقهى أوماينو (بالريفية: أخي) في الترانكات. لم أدخله منذ عودتي من وهران عام ٥١. وجدت هناك كوميرو وبطاطي. تعانقنا بحرارة. حوالى عشر سنوات مضت على عراكنا. كانا يلعبان زهر النرد (البَرْشي) ويشربان الماحيا من قنينة خفية في كأس صغير. غافلت معلم الوجاق فشربت كأسي. وجهاهما ينمان عن إدمانهما هذا الشراب القوي. كوميرو يشتغل اليوم حاجباً في البريد. بطاطي سقط على ظهر شاحنة محملة بالسلعة: كان يعمل فيها مساعداً للسائق فتكسّرت رجله وأصبح يعرج. قال كوميرو مازحاً:

- لقد تعمّد أن يسقط حتى يستفيد من التأمين ويتخلى عن العمل طوال حياته. إنه أكسل من عرفت. ألا تذكره؟ هل رأيته يوماً يشتغل؟ كان يسرق أباه بمهارة، وعندما مات لم يعرف كيف يسرق الآخرين.

ابتسمت ولم أقل شيئاً. فكرت: بطاطي كان يسرق في مقهى أبيه عندما ينوب عنه وقت القيلولة أما أنت فقد كنت داهية في سرقة الآخرين.

سألني كوميرو:

ـ وأنت، أين وصلت؟ إننا نعرف أنك تدرس في العرائش.

ـ نجحت في الدخول إلى مدرسة المعلمين في تطوان.

ـ ستبقى معنا إذن طوال مدة التدريب.

ـ نعم.

قال بطاطي:

ـ أنت الرابح والمحظوظ بين جماعتنا.

ـ في أيّ شيء؟

ـ إنه امتياز. ثم أضاف: أفضلنا لم يستطع أن يصبح أكثر من عامل أو تاجر صغير أو مهاجر إلى الخارج. إن حياتك مضمونة مع الدولة، ثم إنك ستصبح أستاذاً.

ـ لقد صار التفرسيتي أيضاً غنياً.

ـ التفرسيتي شيء آخر. أنت تعرفه خيراً منا. لقد كنتما متلازمين. إنه يأكل ويخاف أن يجوع. لقد عاش شحيحاً. لو كان يستطيع لباع بعض المصات من بزولة (ثدي) أمه وهو في الرضاع.

ـ لكنه اليوم ينفق جيداً على نفسه.

ـ كفى، إنك لا تعرفه اليوم.

ـ أعرف، إنه ينفق على من يظنهم مهمين.

ـ ها أنت بدأت تفهم الآن. لقد ترك أباه يموت فقيراً في كوخ وهو يسكن في شقة اشتراها في عمارة فخمة جديدة. إنه سيموت وعلى وجهه الجوع الماسخ.

قال كوميرو:

ـ لم يبق في المزبلة سوانا، لكننا لم نبلغ بعد حافة اليأس.

أتـدري أنه حتى البـطيخة الـذي كنـا نتنـاوب عليـه بسنتيـمات، أو بتذكرة السينما، صار اليوم أيضاً غنيـاً ويستغل الغلمان. إنـه متزوج وله أطفال.

عند الكأس الرابعة بدأ رأسي يدوخ. تملكني وسواس: قد ينتقم مني كوميرو إذا أنا ثملت. إن الندبة التي سببتها له أثرهـا بارز عـلى خده الأيسر. اعتذرت لهـما عن انصرافي. قال كـوميرو بلهجـة ودية ناسياً حقد تضاربنا القديم:

- متى سنراك؟
- سأبقى هنا سنة كاملة. سأتردد على المقهى.

غـادرتهما وأنـا في كـامـل بهجتي. لـو شربت كـأسـاً أخـرى، أو اثنتين، لفقدت تمـاسكي. السابعـة مساء. كـوخ الشؤم لن ينام إلّا بعـد ساعـات. حيّ الترانكـات يموج بـالحركـة كما تـركتـه في نهايـة الأربعينـات والخمسينـات. ربـمـا اليـوم أكــثر. اختفت وجـوه من الدكاكـين، وحلّت فيها وجـوه أخرى. بعضهم شـاخ. أمي تخبرني عمن اختفى منهم بـالمـرض أو المـوت. حبيبـة هي المنقـذة في هـذه الليلة. استقبلتني بــترحـاب. ربمــا فهمت أني أفضـل عنــدهــا. ابتساماتها اللطيفة ومصافحتها الـودية أكـدت لي أنها ليست غاضبـة مني. ربما هي أيضاً في حاجة إلى من يؤانسها!

سنبقى صديقين.

ابتسمتْ ووافقتُ بهــزة من رأسي. كـانت هي الأقــوى. عبثـاً أحاول أن أكون أفضل منها. فهمت منهـا أنه ينبغي ألّا تكـون بيننا شهـوة الجسد. كؤوس المـاحيـا غلبتني مثلما يغلبني الأغـوار دينتي،

والأنيس دل المونو أو الترّي. استرخيت على المطربة وغفوت. أحسست بغطاء فوقي. هذا ما كنت أحتاجه.

نمت حوالى ساعتين... كانت قد أعدت العشاء واشترت زجاجة نبيذ أبيض. أنعشني ترطيب رأسي ووجهي بالماء البارد. فريد الأطرش يغني في الراديو: يا زهرة في خيالي.

روساريو

تعتزّ روساريو أنها من استورياس، وأنها ولدت في أفليس Avilés، وأنها تتكلم البابلي (دارجة يتكلمها أهل استورياس)، وأنها تكره فرانكو حتى الموت، وأنها تزوجت بمناضل من خيخون مات مُشَهِّداً بالديمقراطية.

غالباً ما نكون، أنا وفرمين فيتو، وحيدين في قاعة المطعم الصغيرة: أربع موائد. أحياناً، تشاركنا إحداها ماريا روساريو مدخنة وراشفة قهوتها أو كونياكها أو هما معاً. فرمين فيتو يعتز، هو أيضاً، بمولده في بلدة الفِرُّول (مسقط رأس فرانكو). من عادتنا، أيضاً، ألاّ نجلس معاً إلى مائدة واحدة. عرضت عليه مرة أن يجلس معي فاعتذر بأدب بالغ. روساريو تجلس معي عندما أكون وحيداً. جلوسنا معاً فيه نوع من التواطؤ ضده. إنه متبجح، عن خواء، كما تقول روساريو. عندما يكون حاضراً تنفرد بمائدتها أو تبقى في المطبخ أو تذهب وتجيء. إنه بالغ الحساسية ووجهه لا يوحي بالصداقة. هكذا قالت لي عندما رأته يرفض الجلوس معي. هذا المساء لم نسمع صخب لعبها الورق. شيء ينقصنا رغم انزعاج فيتو من صراخها. من يغش الآخر؟ إننا لسنا إلاّ شاهدين

على احتجاجهما، لكن كارّيُون يحتج أكـثر منها. إن صراخهـا يعلو فوق صراخه لتغطي غشها كما يقول فيتو. عندمـا ذهب فيتو عـرفت أنها حانقة على حفيدتها كانديدا. تدخن سجائرها الرخيصة وتشرب كـونياكهـا الرديء. تـظهر وتختفي مضـطربة وكـأسهـا في يمنـاهـا، وسيجـارتها في يسراهـا. فرت كـانديـدا من داخلية جمعيـة أخـوات الإحسـان، في طنجـة، منـذ ثـلاثـة أيـام. أكيـد أنها لم تخـرج من المغرب، ولم تذهب عند أمها المـرضة في مكنـاس. قد تكـون عند صديقتها ماريسا في طنجة. جدتهـا تخفي عنها جـواز سفرهـا: «لقد عانيت الكثير من أمها والآن جاء دور ابنتها»، هكذا قالت لأخيها، لكن كريون لا يعلق بشيء على ما تقوله أخته. إنها تكبره بسنوات. في أبـريل المـاضي احتفلت بعيد ميـلادها الثـاني والستين. كـريـون يـدخن تبغه الـذي يبرمـه بمهارة متلمـظاً بشرب الكـاراخيـو (قهـوة ممزوجة بالكونياك)، ويسلي نفسه بقصص الأطفال المصورة. عندمـا يتكلّم يُهمهم، لكن أخته تفهمه بوضوح. أنفه مهشم، ملتو. أهي سقطة؟ لكمة عنيفة؟ يتقوقع في المطبـخ متحاشيـاً ما أمكن الحـديث مـع الزبـائن. روسـاريـو لهـا مـزاج أنـدلسي رغـم أنها من أفليس، وتعابير محببة لا أسألها عن معناهـا. لقد عـاشرت كثيراً الأنـدلسيين الـذين هجر معـظمهم المغـرب بعـدالاستقـلال. سمعتهـا تخـاطب حفيدتها عنـدما زارتهـا ورأتها تـطلّ من الشرفة إلى الشـارع: «أيتها الطفلة، أغلقي النافذة. إن ثور الريح سيأخذك. . .». «كـل شيء لـه استفهـامـه». «. . . من يتكلـم عن ربيـع الـروح وهنـاك ذلـك الجدار المنيع. . .» لكن ها هو اليوم ثور الـريح يـأخذهـا، وأصبح هـروبهـا عـلامـة استفهـام، وقفـزت فـوق جـدار داخليـة أخـوات

الإحسان المنيع، ولا تعرف جدتها أين ذهبت!

أحب روساريو عندما يحتدّ نقاشها مع فيتو حول الحرب الأهلية الاسبانية، أو حول الكنيسة والرهبان. تهزمه بحججها. تستشهد كثيراً بما تقرأه. إنها محظوظة لأن قلة من بنات جيلها الفقيرات أتيح لهن أن يتعلمن. أؤيدها دائماً، حتى عندما تكون مخطئة، ضد فرمين فيتو. إنه يغتابها بلهجة خبيثة كعادته. هذا المساء قال عنها بصوت خافت شامت: «إن العجوز الساحرة قد هرب قديسها إلى السماء (يقصد أنها لم تعد تعرف ما تقدم وما تؤخر). أراحتنا من صراخها مدافعة عن غشها في الورق. مسكين كريون الذي قُدِّر له أن ينهي حياته في ظلها! إنها ملحدة ومنافقة!».

لكن روساريو أشرس منه عندما تنمّ عليه: «بخيل، انتهازي، منافق، يحضر القداس يوم الأحد حتى ترضى عنه الهيئة الديبلوماسية الاسبانية. إنه يجهّز ملفه لضمان عودته إلى اسبانيا مواطناً صالحاً لكي يحصل على ترقية العمل هناك بامتياز. أتدري لماذا يمجد فرانكو؟ لأنه من نفس بلدته. يعتبره أفضل من حكم اسبانيا بعد الملكين الكاثوليكيين: ايسابيل وفرناندو، وكارلوس الثالث. أليس أبله...».

حكت لي بصوت أليم عن زوجها الشيوعي الذي أعدمه الفاشيون في تطوان: كان فرانكو يتناول إفطاره وهو يوقع على الإعدامات. عشرة، على الأقل، كل يوم. وكان زوجي واحداً من تلك الإفطارات السامة. أتدري كيف استولى على الحكم؟ قيل إن أخاه نيكولا هو سبب هذا التاريخ المنكود في اسبانيا. إن القانون العسكري الذي سنّه رفقاؤه في الانتصار يَنُصُّ على أن فرانكو هو

رئيس الدولة والحكومة مؤقتاً، لكن أخاه دفع النص إلى المطبعة بأمر عسكري مستعجل، حاذفاً مؤقتاً، فأصبح حكم فرانكو أبدياً. دكتاتورية مؤقتة لإعادة النظام إلى البلاد ثم يذهب إلى البادية ليعيش في هدوء كما قال ذات يوم ساخراً. لكن بعد أن استتب له الحكم صار يقول: «إن حكمي هو مدى حياتي. اسبانيا ملكية من دون ملك، لكننا ملكيون». ولكي يدعم أبديته كان لا بدّ له من أن يشرك الكنيسة في الهبة السماوية التي اختلقها حتى صارت حربه نوعاً من الصليبية ضد الشيوعيين. كان لا بد له، أيضاً، من أن يبعد عنه معظم الذين تعاونوا معه في النصر أو نفوا أنفسهم إلى فرنسا، والمكسيك، والأرجنتين، وروسيا. لقد تخلى عن خوسي انطونيو بريمو دي ريفيرا(*) ليقتله في سجن أليكانتي حتى لا يزاحمه أحد في فاشيستيته. كان في إمكانه أن يقايض به الزعيم الاشتراكي لارغو كابايرو، لكنه آثر أن يعدمه لكي يتخلص من الاثنين. لم يكن يثق ولو في ظله. لا يغامر بتقرير شيء إذا لم يكن للمسجون عنده نفع يديم له حكمه. لم تكن اسبانيا، لصياد الأرانب والخنازير البرية، سوى ثكنة عسكرية. أتدري لماذا كان يصرّ على الظهور باللباس العسكري البحري المزدان برتبة قبطان جنرال للبحرية؟ لأنه رسب في الالتحاق بالأكاديمية العسكرية البحرية في طليطلة. وهاجم أيضاً الماسونية لأنه لم يسمح له أن يكون عضواً فيها. كان رفاقه الضباط يسمونه «الرجل ذا الميمات الثلاث»(**).

(*) مؤسس الفلانخي: منظمة الكتائب المعروفة بالقمصان الزرقاء.

(**) لا خوف، (أو لا لوطيون كما يروي البعض)، لا نساء، لا قداس Sin Miedo (O Sin Maricones Como Cuentan Al Gunos) Sin Mujeres, Sin Misa.

هكذا باركته النجوم. ومع ذلك فإن فيتو لا يخجل من أن يقول إن الكاوديو هو الذي أعاد لاسبانيا مجدها الذي فقدته عام ١٨٩٨.

- ولكي يعاد لإسبانيا بعض من أمجادها المندحرة في كوبا، وبويرتوريكو، وجزر الفيليبين كان لا بدّ له من افتراس جزء من المغرب ثم تجنيد المغاربة السذج في جيشه، طوعاً أو عنوة، ليحاربوا الذين لا يؤمنون بالله كما قال لهم.

قالت:

- إن أطماع الطغاة لا حدود لها كما تعرف. أعتقد أن فرانكو كان أمكر من ملهمه في الدكتاتورية ميجيل بريمو دي ريفيرا. فرانكو يدعي دائماً أنه في عمقه ملكي، لكن الملكية الاسبانية ظلت تجرّ أذيال الهزيمة قرناً كاملاً، ويَتوهَّم أنه مرسل من السماء ليمحو تخاذلها، وليس الخزي الذي تَرَدَّى فيه هذا القرن الاسباني. ولم يقتصر هذا الغرور على اسبانيا. فلقد أعلن إثر انقلابه العسكري ضد الجمهورية الثانية رسمياً: «لنا الفخر أن نكون أول دولة تنهض للدفاع عن الحضارة الغربية المهددة بالأفكار الشرقية». لكن قيمة هذا الدفاع المتبجح ظهرت عندما أقصاه الرأي العالمي، بعد عشر سنوات، من مجلس الأمم المتحدة. لم يسانده في عزلة حكمه إلاّ الجنرال بيرون. وستمرّ حوالى عشر سنوات أخرى لكي تشفع له الولايات المتحدة(*) والفاتيكان (لمصلحتهما) فتدخل اسبانيا مجلس الأمم المتحدة عام ٥٥. وهكذا ربح الحرب نهائياً وزاد وقته لرسم

(*) أنشئت قواعد أميركية في كل من تريخون، وسرقوسة، ومرون ووروتا فضلاً عن مساعدات اقتصادية هائلة.

مراكبه الغارقة(*). الخيانة، في نظره، أيضاً، تأتي دائماً من الجبهة الشعبية الوطنية التي لا تساند الجيش. إنها ترهبه ولا تثق فيه لأنه، وهي على حق، يخدم مصلحته على حساب تضحياتها. هل يعقل، مثلاً، أن يحكم بالإعدام على جندي من الليخيون(**) في المغرب لأنه أساء الأدب مع رئيسه برفضه أن يأكل العدس الذي لم يعجبه؟ إن النصر العسكري يأتي من انضباط الجنود وطاعتهم العمياء حتى ولو كان رؤساؤهم مخطئين. هكذا كان فرانكو يبرر جرائمه. لم يكن يرى في الأحزاب السياسية سوى التفرقة والانسلاخ عن حب الوطن وعدم خدمته. أما الألمان فقد كانوا يعتبرونه إكليروسياً رجعياً وليس فاشستياً حقيقياً. لا يؤمن إلّا بفعالية نظامه وشرعية انقلاب الثامن عشر من يوليو.

لم يفاجئني رسوبي في امتحان التخرج. لقد أهملت، عمداً، كل مواد الدراسة لأقرأ الأدب، لكن تعييني في طنجة عزّاني. جارنا، المأمور في نيابة التعليم، سيخبر أبي. سيسرّ لأن رسوبي يؤكد ما كان ينعتني به من جهل. لم أشعر بأيّ خزي ولا ندم حتى اليوم.

شفي عبد العزيز وارحيمو. عاد هو إلى دراسته ودكانه الصغير، وعادت هي إلى خياطتها والعناية بالكوخ. أبي لم ينقطع عن حلقات المعطوبين في ساحة الفدان أثناء مرضه وبعد شفائه، لكن نوبات الربو بدأت تطرحه في الفراش. ظل يعاني منه حتى مات عام ٧٩.

(*) كان يمارس هواية الرسم ومواضيعه المحببة رسم مراكب تغرق.
(**) فرقة المتطوعين المرتزقة.

زرت أمي في سوق باب التوت. أعطيتها المساعدة الشهرية وقد أضفت إليها مبلغاً لتعطيه لأبي. أعرف أنه سيبصق على ذلك المبلغ البسيط ويلعنني كعادته، لكنه لن يرفضه أو يتصدق به على متسول. سيكفيه لنشوقه وأكواب شايه لأسابيع في الفدان. سعيت إلى إرضاء أمي لا إرضائه. لثمتُ يدها. دمعت عيناها وأنا أودُّعها. لم تلحّ علي في تفقد أسرتنا بين فترة وأخرى. أكيد أنها علمت برسوبي. استبطنت عِلْمَها في نظرتها إليّ، لكنها لم تقل شيئاً. تعرف أن عادتي هي أن أجيء أو لا أجيء، بمناسبة أو غير مناسبة. اشتريت هدايا صغيرة لإخوتي، ولحبيبة، وجارتنا الحدباء. رأيت السمراء في الشارع. تبعتها حتى رأتني فتوقفت أمام واجهة متجر وبدأت لعبة الالتفات. ابتسمتْ. كافحت خيبتي وذهبت إلى حانة ريبيرتيتو. فكرت: حماقة تافهة. إن الحب لعبة قذرة. لا أريد أن أعيد ما حدث لي مع كنزة. تذكّرت قصة قاسم مع صديقته اليهودية نتالي قبل أن يُجَنّ: كانت الثالثة صباحاً. المطر يسقيني قدام منزلها. كنت مثل شجرة ميتة. كلبها الضخم، الشرس، ينبح عليّ وراء شباك باب الحديقة. رفعت عينيّ نحو السماء في مذلّة. أغمضتهما. قطرات تدغدغ أجفاني. بدأت تغزوني الحُمَّى. فمي مفتوح وعيناي مغمضتان. حب خائب. مطر وليل لا ينتهي في وهمي. الحلم بها كان نسر ذلك الليل المطير. تجمّع كل غضبي في يديّ. خبطت بهما الجدار. المطر يغسل دمي. ربما هي الآن تنظف أمعاءها وأنا هنا أسقي زهور تفكيري فيها في ظلام هاطل. أهذه بطولة الحب؟ ليسقط هذا المستحيل! هكذا رفعت صوتي نحو السماء. أعرف أن ظلالاً كانت دليلاً لمن ضلوا طريقهم. صرت

ظل نفسي وحكمت عليها بالنفي الأبدي.

شربت كؤوساً من نبيذ خيريث، ثم ذهبت عند أنيتا في باب التوت. إن احترافها لم يفقدها رقّتها وطيبتها. ذكرتني نظافتها المعطرة بكريستوڤالينا في طنجة. هذه هي المرة الثالثة التي أجيء إلى عندها منذ اكتشفتها في بداية هذا الشهر. شربت عندها كأسين من الأنيس دل المونو.

جاءت كانديدا منذ أيام مع أمها من مكناس. رفضت العودة إلى داخلية أخوات الإحسان. هذه أول مرة أجلس معها. تحدثنا عن الكتب والكتابة. بدت لي أعقل مما قالت لي جدتها. روساريو تعزو فشلها في دراستها إلى حبها لشاب هاجر مع أسرته إلى قرطبة. أبوها أيضاً هرب من الفاشيين إلى كندا قبل أن تولد بشهرين. كتب رواية عن المناضلين الجمهوريين الإسبانيين في شمال المغرب. سمعنا عنها ولم تصلنا. أخباره انقطعت عنا منذ أكثر من عشر سنوات.

كانديدا تقرأ كثيراً. تكتب خواطرها الرومانسية عن خيبتها في الحب وسأمها من الحياة، وسوء حظ أسرتها. تجتاز العشرين من عمرها وبدأت الهموم تنضجها جيداً، لكنها لا تعرف ما يمكن لها أن تفعله في المستقبل. كنت قد اشتريت زجاجتين من نبيذ ريوخا، وبطة كبيرة أعدها كَرّيُون بنفسه لأنه يعتبر نفسه أمهر من أخته روساريو في طبخ الدواجن. كريون اعتصم، كعادته، بالمطبخ ليتعشى وحده. كان هذا عشائي الأخير مع أسرة روساريو. فرمين فيتو لا يجيء أيام الآحاد، لكنه، لو جاء، كان اعتصم بمائدته حتى وإن شاركنا العشاء.

من العسل إلى الرماد

عينوني في مدرسة الحيّ الجديد للبنين والبنات. أسندوا لي القسم التحضيري. القسم، في جانب من الساحة، براكة من خشب تقطر في الشتاء وقد ينقّ قربها الضفدع. أكثر من أربعين تلميذاً في كل سنة. عدد البنات لا يتجاوز الربع. إنه نداء التعبئة من أجل التعليم بأبسط الوسائل الممكنة. بائسون: وسخ، جوع ومرض. أرفع قلماً في يدي وأسأل:

- ما هذا؟

يجيبون جماعة:

- ما هذا؟

- هذا قلم.

يجيبون:

- هذا قلم.

- وهذا؟

يجيبون:

- وهذا؟

- هذا دفتر.

يجيبون:

ـ هذا دفتر.

تقيأ تلميذ بقايا زيتون فقال واحد منهم:

ـ إنه يأكل الزيتون مع أبيه السكير يا أستاذ.

باسَ تلميذ تلميذة فكانت مشكلة. ولكي أردّ لها الاعتبار أمرتها أن تبوسه هي أيضاً فكفت عن البكاء. إنها محنة الجهل في بداية الستينات: من يُعَلِّم ومن يتعلم. بعضهم لا دفتر له ولا قلم. وجباتهم لا يتناولونها بانتظام. بينهم واحد أحمق. سماه التلاميذ «طمخوخ». «يصرّ دائماً على الجلوس في الصف الأول على أي مقعد يريده. يسلي التلاميذ حين لا يضرب أو يعض. أسنانه كبيرة. وجهه منغولي. يرمي عليّ، أحياناً، حين أكتب على السبورة، قطعة طباشير أو ورقة مدعوكة مكورة. عاقبته مرة بالمسطرة على يده فامتلأ وجهه غضباً وبدأ ينتفض. تلك كانت المرة الأخيرة التي أهتم بوجوده في القسم. كان الملعون يتسلى. قدمت عنه تقريراً إلى الإدارة بينت فيه أن عملي يتعطل بسببه: «خير له أن يبقى معنا في المدرسة بدلاً من أن يظل يزعج الناس في الحيّ». هكذا ردّ عليّ المدير. يعترض طمخوخ أيضاً الحافلات العمومية واقفاً في وسط الطريق. يهبط الحصال ويعطيه سنتيمات، أو أيّ شيء يأكله، أو يتسلى به، لكي يترك الحافلة تمرّ.

داخل القسم يَتَمَثَّلُ نفسه قاطرة وصفوف التلاميذ وراءه عربات: تشف... تشف تشف... عووع...! عووع...!

كل القسم يضج بالقهقهات. ينام ويستيقظ في القسم متى

يشاء، ويخرج ويدخل متى يشاء. قد يخرج ولا يعود فأرتاح. وعندما يغيب أكثر من يوم أتمنى ألا يعود، ولكنه يعود.

زارني مفتش التعليم زيارة تفقدية. شكوت له حمق طمخوخ. لم يصدق حمقه. اقترب منه ومَسَّدَ له شعره الخشن، المشعث، بحركة لطيفة:

ـ أنت بعقلك، علاش كتعمل الفوضى؟

وما أن هَبَّطَ يده مُرَبِّتاً على كتفه حتى انقضَّ طمخوخ على يده وعضها. ضج التلاميذ بالضحك ثم أصمتتهم نظراتي. أنا نفسي بذلت جهداً كي أغالب ضحكي. بسبب هذه الحادثة طرد طمخوخ من المدرسة، لكن لا أحد يستطيع منعه في الحيّ من اعتراض الحافلات العمومية وغيرها من السيارات والدراجات النارية. وبعد غيابه أخذ التلاميذ يتأسفون على طرده.

أدركت أنني لست أهلاً لهذه المهنة. ينقصني الصبر الجميل للوفاء لها، لكن لم يكن لي الخيار. بعد حصولي على شهادة البروفي (ثلاث سنوات من الدراسة الثانوية في ذلك الوقت) جاءت لجنة إلى ثانوية مولاي عبد الله في العرائش وأجرت لنا اختباراً في رزّات الذكاء. نتيجتي كانت من بين الذين قررت اللجنة إيقافهم عن الاستمرار في الدراسة لكبر سنهم. سني رسمياً كانت عشرين سنة، وفي الواقع كانت خمساً وعشرين.

سكنت من جديد في بنسيون لابلاتا. ربما لاستعادة ذكرى ربيعة وكنزة. فضلت غرفة صغيرة على السطح مطلة نافذتها على البحر وسطوح المدينة القديمة. يجاورني توماس الروخو في كوخه الخشبي.

يعيش حياة عنكبوت. يكره فرانكو مثلما يكره المرء دم أسنانه: لم يكن فرانكو ماهراً في قتل الأرانب والخنازير، كما يقال عنه، بل كان ماهراً فقط في قتل أنبل الناس. كان رفاقه في الصيد وأعوانهم هم الذين يقتلونها ويضعونها عند قدميه فتؤخذ له الصور مزهواً. كان أيضاً يرسم، دون أية موهبة، مراكب تغرق. كيف يمكن لمن يدعي حب الفن أن ينفي بيكاسو؟ قيل أيضاً إنه كان معجباً بفايي ـ انكلان لكنه سمح بقتل لوركا، وسجن ميجيل ارنانديث حتى الموت تاركاً زوجته ترضع ابنهما البصل من صدرها(*). هذا أيضاً ما يقوله توماس.

يعيش توماس منعزلاً في كوخه وفي الشارع. دار إسبانيا يعتبرها ملجأ لمعطوبي الفكر: تلفزيون، ولعب الورق، والخمر. في النهار يبيع بالونات الأطفال في البولفار، وفي الليل يقرأ روايات الكلاسيكيين الروس، والفرنسيين، والاسبان، والانجليز. نبيذه أبيض رخيص، وتبغه مُفَرَّى (مفروم). قبل النوم يشرب من زجاجة يملؤها بالماء ممزوجاً بعصير الليمون. لا يحب أن يناقش أي شيء بعمق. إن حكمه على الأشياء يقتصر على أن لا شيء سيئاً كله، ولا شيء جيداً كله. لا يحب الذين يحللون الأشياء من العسل إلى الرماد.

أغبطه على وحدته. يكاد يكون الوحدة ذاتها: الموت الصحو.

(*) اشارة إلى آخر قصيدة للشاعر كتبها في سجنه: (مُناغَاة البصل). وهي مهداة إلى ابنه الرضيع على اثر استلامه رسالة من زوجته تقول له فيها بأنها لم تعد تأكل سوى البصل والخبز.

كان قد جاوز السبعين، ومن حسن حظه أنه لم يكن يعاني من أيّ مرض. مصارعة الثيران انتهت، في رأيه، بموت خوسيليتو، ومانوليتي. يحب الخوطا الأراغونيسا، والفاندانجو، وطانجو كارلوس غارديل وكونشابيكير، رغم ميلها إلى حكم فرانكو. نشرب معاً، أحياناً، زجاجة نبيذ في كوخه المُغبّر. السيدة خوسيفينا، صاحبة الفندق، هي التي تنظف الغرف بنفسها، لكنه لا يتركها تدخل كوخه إلاّ لتغيير الأفرشة. يعتبرها فضولية، وسليطة اللسان، ورائحتها مُغْثِية.

ربيعة تزوجت بضابط في الجيش المغربي، تعاشقا في طنجة. كنزة ترقص في ملهى الكتبية.

انتهى في طنجة زمن الدعارة الجميل. المواخير الخاضعة للرقابة الطبية منعت منذ سنوات. دور سرية وفنادق حقيرة حلت محلها لتمارس فيها المحترفات الهرمات مهنتهن مع الوافدين من البادية، بحثاً عن عمل، وفقراء المدينة، بأبخس الأثمان. بعضهن تُبْن، إنقاذاً لكرامة شيخوختهن ودينهن فصرن يعملن في المطاعم، والفنادق، ومنازل مُحْدَثي النعمة. لقد نَمَت لبعضهن شوارب خفيفة، أو زُغَيبات متفرقة خشنة وتساقطت أسنانهن: قليلات هن اللواتي اغتنين بدعارتهن فاشترين دوراً وأراضي أيام عودة الأجانب فتقاعدن في نعمة. والأخريات، الأكثر شباباً وجمالاً، هاجرن إلى اسبانيا، وفرنسا، وبلجيكا، وهولاندا، والمانيا...

وفي أواخر الستينات كان جيل جديد من المحترفات الشابات، المتحررات في لباسهن، وتعابيرهن، وأوضاعهن الجنسية، قد اكتمل

نمو أجسادهن واستوى. غزين المدينة مثل الجراد، جئن من كل المدن. إنه جيل الفنادق الفخمة، والعلب الليلية، والمخدرات(*)، والتَّدَعُّر مع أهل البلد والأجانب.

كنت أقرأ أيّ كتاب أعثر عليه دون تمييز، لكن كتب الأدب وعلم النفس تستأثر بي أكثر. أقرأ وأكتب في أي مكان مثل هذه الخواطر:

مقهى سنترال ٢٥ ـ ٩ ـ ١٩٦١.

إن المرأة التي أعيش معها دائماً إذا لم تجعلني أعزف عن كل النساء فليست هي المرأة التي ينبغي لي أن أعيش معها. ينبغي لها أن تكون هي كل النساء، وكل النساء لسن هي. ينبغي لي أن أميزها في الظلام حتى وإن تكن بين جمهرة من النساء. إذا انطفأت الشموع يضيء كلانا الآخر. إذا حجبونا بستار سميك أراها وتراني. المرأة النور الخارق، المرأة الشفافة، لم أجدها بعد.

في الوقت الذي كنت أكتب فيه مثل هذه الخواطر عن المرأة المثالية كنت أستعذب مضاجعة أَحَطِّ النساء في البيوت الخفية المتبقية من مواخير طنجة: انحلال الروح في الجسد، هذا ما كان ممكناً لي في هذه المرحلة، وربما كان هذا قدري.

سمعت واحدة من هؤلاء تقول لرفيقتها: يقول لي الرجال دائماً: «إنك جميلة. . . !» لكني عرفت هذا قبلهم.

(*) كان للهيبيين الذين وفدوا على المدينة في الستينات دور كبير في انتشار المخدرات على أنواعها.

يخيل لي أن المرأة هي مرآة نفسها من التبرعم الأول حتى وَهَنِ العمر والعجز. إنها تبدأ بمراقبة جسدها قبل الرجل. إن الاستمناء والجنس المنحط هما اللذان أنقذاني من السقوط في فخ الحب الخائب. باكراً اكتشفت أنني أحب مزاج العاهرة، لكني لا أستطيع العيش معها. إنها تعتقد أن الرجل هو الذي عَهّرها فَتقضي كل حياتها لِتُعَهِّره مثلها.

العيش في زمن الأخطاء

لنحلم قليلاً أكثر. أكثر من الحلم. آه من طائر البقر! ومن السمكة التي تقود سمك القرش! ومن طائر التمساح! ومن عصفور الكركدن! ومن العبد المقيد إلى مقعده، وهو يجذف، مُساطاً حتى يدمى ظهره! اليوم يخرمه الرصاص قبل أن يتشكل ظل قامته في الشمس أو يتشبح في الليل في فراره.

لا أحد يأتي بعد أن يجييء الأخير. ربما هي السبب في مجيئي الأخير. . . لقد تركتها تغتصب فيّ ما كنت أريد أن أعرفه فيها. ممن آخذ حكمة اليوم؟ الأذكياء جنوا أو هم يهذون في الشوارع والأحقّون بالبقاء هاجروا وكبلتهم الغربة بسلاسلها الثقيلة. لقد بدأ سفرهم قبل أن يهاجروا. رأيتهم يشربون الكؤوس الأخيرة. حفنة من تراب الوطن رأيت أحدهم يحملها في كيس صغير كحرز. ربما سيسمد بها بذوراً ما في غربته القهرية! قد يغرس فيها جذور النعنع. إنها مشيئة البؤس في وطنه. كان يقول لي بينيتس في أصيلة: ستأتي الأزمنة الرديئة. لكن متى كانت هناك أزمنة جميلة؟ أقول له.

لمن هذه الأنغام الحزينة التي أسمعها من بعيد؟ إنها للراحلين في الجمارك وهم يزحفون واقفين. بطء زحفهم يذلهم حتى نخاع العظام. إن مذلة الوطن أقسى عليهم من مذلة الغربة. سمعت أحدهم يتنهد ويقول: إن هذا الليل سيدفننا هنا. كأنما ذكرى الليالي الماضية، المرعبة، تنبعث كلها من ليل هذا العبور. لقد تعودت على الشمس والبحر. كيف لي ببحر دون شمس! الضباب، إذا زارنا، نندهش. هل فقدت السماء لونها المرآتي فوق أرضنا؟ الشمس تضحك لنا قبل أن تبسم للآخرين، لكنهم حجبوها!

كفى من هذا الهراء. تعلم كيف تحلم بالعوالم الأخرى، كما أصحابها يحلمون بها. لا تُغَمِّض الأشياء. كثيراً ما يتغذى الصالح بالطالح. وجوه لا توحي لك بأيّ إحساس تحبّه، لكن لا بدّ من رؤيتها.

لقد سحقتنا الحانات الجديدة في هذه المدينة. وجوه لا توحي لك إلّا بالمشاكسة والغباء. أصحابها أفظع من زبائنها. يا حسرة على مادام ترودي، والصرصار، والپاراد. لم يكن أحد يتسوّل فيه كأسه. كان مثل «الشجرة التي تغطي كل الغابة». كان المركز، أما اليوم فحانات ممسوخة وأربابها أمسخ منها.

ساعة الرغبة تقترب. قد توحدنا، لكنها ما أكثر ما تبعدنا حين نريد أن نلتقي أو نتماسك، على الأقل. أحسني، أحياناً، مثل ثور المصارعة الذي يخرج من نفق الظلام إلى النور لينطح الهواء، ويشحذ أماميتيه وخطمه في الرمل مبدأً صدمته قبل أن يبدأ صراعه

مع قدره المحتوم. إنه العيش في زمن الأخطاء. لقد تلوثتُ بليل الشارع. حتى مجانينه اللطفاء تصومعوا. صاروا عقلاء! استطالت لحاهم! ليس بدعة في حياتهم لكنها استسلام. ليل البيت البعيد، هذا ما أشتاقه. ليل الحنين إلى الشارع. ليل الحلم بالأسفار البعيدة.

أن أغترب ولو في ضاحية من المدينة. اتربي واغبري يا طريقي الملساء. كل الأمسيات والصبحيات تنتظرني هناك.

سكنت في ڤال فلوري قريباً من مدرستي. سأكتب عن مزعجات المدينة. سأكون ضدها. ما قد يُنْشي من بهجتها ينعدم في ضجيجها. زمن طويل لم أرَ فيه الشروق، وطراوة الصباح، ونداوته. سأستيقظ على الأنسام أو العواصف أو الفيضانات. لا يهم. سأكون هناك. أيها الطيف الذي لم يعد طيفاً إلّا فيما لم أعد أقدر على تخيّله. هيا نحلم قليلاً أكثر، أكثر من ذكريات طفولتنا، سعيدة أو شقية.

أكتب ما أمزقه في يأس. يعجزني جمال التعبير. كيف تأتي الكتابة؟ إني قزم نفسي. إيموزار، إيفران، وبحيرة ضيت عوا، بعيداً عن أثرياء الصدفة. هؤلاء يبعثرون أموالهم عند أقدام اليائسات من النهار. أملهن في احتراف الليل وما يأتي به من خيرات، لكن أخطبوطهن هو المستفيد. هم وهن عزاؤهم في الليل. حسب قوة الليل يكون زواج أو طلاق. أفكارهم مثل ثياب عرقهم. أيتها الأفراح التي لا مكان لها في تلك القلوب الجليدية، تعالي نتدفأ. لنحلم قليلاً، أكثر من الحلم.

حينما يملؤني الليل بين المباح والمحرم أتوزع. لو أنني مثل زهرة لا تتناسل، لو أنني أخلق نفسي من ذاتها، لو أنني أعطي لها مصيرها، لو أنني ألغي كل ماهية، لكن كل عاطفة هي عاطفتي. إني سليل العواطف القطيعية. سليل امبراطورية الحواس. سليل النملية والسمكية. تَفَرَّد تَرَ مصيرك. أهي كل رجولة وليدة طفولتها؟ أهي مرتبطة بها؟ أهي طفولتي في رجولتي؟ طفولتي مجروبة. من يقترب من رجولتي إذن؟ لكأني ولدت بين زهرتين لا أحب إحداهما.

ذهب بعضهن. جاء بعضهن. بمن أتعطر؟ لم تعد تأتي إلاّ من لَوَّثها لُعاب آخِر الليل. أتذكر الأخيرة. كانت مجنونة، لكنها شربت من ينبوع الهدوئية المسحور. على ظهرها ذيل طاووس من الوبر الأشقر. جاءت مع الغروب، وذهبت مع الشروق، وتركت في يدي كومة من النَّوْرِيات ولم تعد. ربما لم أعرف كيف أقبل ساقها الجميلة. ربما كان ينقصنا الكلام السخيف. ربما كان ينقصنا العنف. ربما كان ينقصنا أن نتباعد، أن نتماس ولا نتواجه. ربما ما كان لنا أن نتلاقى أبداً ونتعارف. ما أذكره هو أنها كانت مثل طفلة مدللة: لذتها هي أن تطعمها في فمها أو تخبط الأشياء في وجهك. كنت أفتقد هذا التدليل. لقد عشت مع برابرة الليل في الدروب الضيقة، والحظائر المُغْثية، والخمارات المُريبة. إن زهرتي الأثيرة تذبل قبل لمسها أو شمها. الأسرار المقدسة لم تعد ترعبني: شهواتي هي في السرّ الذي أعيشه. إنها، ربما، جريمة لا يعاقبني عليها أحد. لا أستطيع إفناء شهواتي في جسدي. الموعود رهان زائف. لن أنتظر من يجازيني. الأرزّ: الاعتدال، الخبز، الصبر، الحب، الملح، لكن جنون الطبيعة لا المعبد.

صرت أحب، في حيّ فال فلوري، ليل بيتي لا ليـل الخمارات، صباح الجبل والبحر لا صباح الشوارع اللاهثة، والمقاهي التي تنتظر أول المستهلكين. إن الصدأ يرعبني.

لا ينقص هذا الليل المشجر، المعشوشب، إلّا ذئـاب البراري في تناديها.

عرفت هاينريش هايني قبـل أن أعرف رامبـو، فرلـين، فرفـال، بودلير، شيللي، كيتس وبيرون. عرفت «أنا أحب، إذن فأنا أحيا»، عنـد هايني، قبـل أن أعرف «أنـا أفكر، إذن فـأنا مـوجـود»، عنـد ديكارت. ثم جاء سارتر فـأيقظ فيّ مفهومـاً آخر: «أنـا ما هـو أنا، وليس أنا ما هو أنا».

لي دائـماً موعـد صارم مـع التمـزيق. اعـترافـات روسـو علمتني العزاء في ملك الأشياء الصغيرة التي يهملها الآخرون. لكن انحلال الروح، في الجسد، كان مَسيِّ المرضي، الغَلَّاب.

طهرت بالنار آخر ما كتبت في فال فلوري وعدت إلى غرفتي على سطح فندق لابلاتا لأغوص في تلوث المدينـة. بدأت أبيـع كل يـوم مجموعة من الكتب بأي ثمن وأسكر. أخذت لنفسي إجازة مـرض. لم يبق عندي سوى «أوراق جديدة» لروساليـا دي كاسـترو، وديوان المعتمد بن عباد.

ذات ليلة أعلنت إفـلاسي، الجسـدي والمعنـوي. كنت في مقهى براسوري دوفرانس. لست أدري لماذا كنت أصرخ لاعناً الفراعنة. هـددت الحاني بكسر واجهـة الزجـاجات إذا هـو لم يناد عـلى رجال

المطافىء، لكنهم جاءوا. شربت آخر كأس قبل أن أصحبهم.
سمعت الحاني يقول للنادل:

- مسكين، لقد جننته الكتب.

- رأيته ذات ليلة نائماً فوق عتبة قبالة حانة مونوكل متوسداً كتبه. الله يكون في عونه.

المنسيون

في الحجرة خمسة أسرّة. في الليل، من بعيد، نباح ونقيق. أقرأ حياة فان خوخ. بدأ بالحلم وانتهى باليأس. في الجنون لا أرض غير السماء الوهمية نتعلم فيها كيف نطير بأجنحة مقصوصة. الهدوء شامل. فجأة بدأ اللغط يعلو ويقترب من حجرتنا. هزة أرضية. هكذا قالوا: لم أشعر بشيء. ربما غفوت حينما حدثت. دخل مرضى، من الحجرات الأخرى إلى حجرتنا. استيقظ رفاق حجرتنا تباعاً. كل حديث عن الله، والدين، والكوارث الطبيعية يتزعمه يوسف حجرتنا في التفسير والتأويل. يحفظ القرآن والحديث. هو أيضاً يقولون عنه إن القراءات السبع هي التي خبلته. قال:

- «يخشى الله من عباده العلماء». الموت هو الحق الأكبر.

قال منصور:

- يوم فوق الأرض خير من ألف يوم تحت الأرض. ألف عام من الحياة حتى يلعنها الإنسان.

قال عمر:

- كفانا من أخبار الأولين والترهان. هاتوا الخبز، والماء، والسجائر.

لا أحد أعطاه شيئاً فلعن يقظتنا وغَطّى وجهه بالبطانية. قال يوسف:

- الناس عصاة مثل آبائهم وأجدادهم. الألم هو العدالة المنصفة. ليس أسعد الناس أقربهم إلى الله، وليس أشقاهم أبعدهم عن الله.

كان شاب لا يكف عن الصراخ:

- اقطعوا يدي، ها هما، اقطعوهما.

قال يوسف:

- الزمن هو الهلاك. زوروا الأحياء بنفس الزهور التي تزورون بها الأموات. إن زهور الأفراح هي نفسها زهور الأحزان. لقد صارت قلوب الناس مثل الفراشات حول الزهرة الذابلة.

عندما نخرج إلى الساحة المعشوشبة يغني لنا أبراهام أغنيته:

في الأرض وفي السماء يحيا الحب
في الوطن وفي المنفى يحيا الحب
في السجون وفي المعابد يحيا الحب
في الأكواخ وفي القصور يحيا الحب
في الحواري وفي المقابر يحيا الحب
في البيوت وفي المستشفيات يحيا الحب
في السلم وفي الحرب يحيا الحب

كان منصور جالساً إلى جانبي يشم نبتة بجمال طفولي:

- ليس سهلاً أن يجنّ الإنسان، وصعب أن يعقل حتى لا يجنّ.

قال يوسف:

- في عقول الناس أثقال، وأجسادهم حميرها. لقد رأيت حمالاً يثقل عربة حماره بكيس تلو الكيس حتى انهارت العربة وانهار الحمار. كان يريد أن يقتصد في العودة إلى الشحن. خطوة، إنها خطوة، لكن من يستطيع أن يخطوها. إن كل إنسان يتخيّل أمامه هاوية وهمية. نسقط قبل أن نخطو. ما أطول الأشجار! ما أقصر الإنسان! إن سرّ العمر في سرّ النموّ.

عدنا إلى حجرتنا بعد أن أخذنا حصتنا من الشمس، ومن الهواء النقيّ، ومن النظر إلى السماء.

دخل أبراهام. لا ينشرح إلّا إذا أعطاه أحدنا شيئاً يأكله. أعطيته كسرة خبز، وزيتوناً. إنه لا يشبع. أنا أيضاً أستلذ هذه الفاكهة المقدسة. أبراهام يبلع أكثر مما يمضغ. لا يكاد يمضغ. إنه طويل، بدين، في الليل يتناوبون عليه. لا يشكو إلّا إذا اغتصبه أحد بالضرب. يتقاحبون معه عندما يأتون بكلبة المستشفى الصغيرة ويجعلونها تمصّ له أسفله المطلي بشيء من الأدام. سأله منصور:

- ما اسم حبيبتك يا ابراهام؟

كثيراً ما يتحدث عنها دون أن يسأله أحد.

- استر.

- كيف كانت عيناها؟

- من أجمل العيون.

- أما زالتا جميلتين؟

- نعم.

- تكذب يا ابراهام. إن الزمن يعمي. أما زلت تحبها؟؟

- نعم.

- تكذب يا ابراهام. الحب أيضاً يموت. إنها مع رجل آخر أو هي ماتت.

قال يوسف ملاطفاً لحيته:

- الإنسان وحيداً قديس، ومع امرأة شيطان. من يحصي أيامه كمن يحصي نبضات قلبه، ومن يتحسر على زمن جماله كمن يقود سيارة ملتفتاً إلى الخلف. إن أجمل ما في العالم يتدمر ويتلاشى. هذه هي الحقيقة التي سمعتها من أبكم. يا حكيم الشفاء لماذا أنت مصاب بالبرص...؟ يا طبيب العيون. لماذا أنت أعمش...؟

بين جناح وجناح هناك طيران.

نقلوني إلى جناح آخر خاص بالموظفين وذوي الامتياز الاجتماعي بعدما فرغت حجرة فيه.

بعض المرضى يتسللون من القاعات الجماعية إلى هذا الجناح الهادىء. بدأت بعض حاجياتي تختفي عندما أكون غائباً. كل ما يؤكل ويشرب ويدخن يختفي، كله أو بعضه. حتى زجاجة المرتيني اختفت من حقيبتي. كان يسمح لي بالخروج من المستشفى فأذهب إلى المدينة لشراء ما أحتاجه. الكتب، والمجلات، والصحف لا

يمسها أحد. ذات مرة فاجأت مريضاً يلتهم طعامي الخاص الذي يجلب لي من خارج المستشفى فقال لي:

- تعال كل معي، إنه لذيذ.

شكرته وتركته يتم وجبته الشهية: دجاج بلدي بالبصل والزبيب. تركته يأكل حتى العُقْبة: موزة وبرتقالة، وبعدها طلب سيجارة.

الدمناتي أقوى مريض في المستشفى. هو هنا منذ أكثر من عشر سنوات كان يعمل في سيرك ألماني حاملاً في عرضه البهلواني ستة أشخاص فوق جسمه، لكنه ليس الأقدم هنا في المستشفى. إن شامة أقدم منه: خمس عشرة سنة. حبلتْ في المستشفى ثلاث مرات. لا أحد يعرف مع من. عندما تزورها أختها تقابلها باللعنات باصقة عليها، رافضة الكلام معها.

أُعيد المزميزي، هذا الصباح، إلى المستشفى معصوب الرأس، وفي وجهه جروح. إنه يدخل ويخرج متى شاء. أكثر من خمس سنوات وهو يستشفي. ليس عنيفاً أو عدوانياً مع الناس. جنونه العنيف تثيره الأشياء المنكسرة، أما الحيوانات فهي عزيزته. هو الذي يعنى بكلبة المستشفى، بغسلها وإطعامها، تلطيفها وإلعابها. عندما يقضي أياماً في المدينة ويملّ منها ينطح إحدى الواجهات الزجاجية الفاخرة. وحينما يبلغ منتهى هياجه ويأسه يمضغ قطع الزجاج، وشفرات الحلاقة، وسيموت إثر بلعه قطعة من الزجاج. في هذه الحالة يكون قد شرب الخمر، ودخن الكيف، وتناول المسكنات. في تصرفاته يعكس جميع حالات عالمه على الآخرين.

إنه لا يعيش مأساته وحده كمعظم المرضى الذين صنعوا لأنفسهم عالمهم الخاص الذي يتألمون فيه وحدهم. ما أشدّ قسوتهم على أنفسهم! المزميزي يعتبر المستشفى مسكنه الحقيقي. لا يزوره أحد. له من الرفقاء هنا أكثر مما له في الخارج. هناك مريض حمال، في محطة القطار، لا يدخل المستشفى إلاّ في الشتاء، لأنه يكون في شبه بطالة. هو أيضاً لا أحد يزوره.

من أجل وضع حد لما يختفي من أشيائي جعلت الدمناتي حارساً على حجرتي. يجلس قدام الباب متصفحاً مجلاتي، وصحفي، مدخناً سجائره التي يلفها بنفسه. أشتري له علبة كل يومين أو ثلاثة وأعطي له بعضاً من طعامي. أحياناً يأخذ كتاباً ويتظاهر أنه يقرأه صفحة صفحة، متمتماً، رغم أنه لا يعرف حرفاً واحداً. طلب مني يوماً أن أقرأ له جهراً. وبعد فقرات أوقفني:

- أنا أيضاً كنت أقرأ هكذا عندما كنت في المسيد (الكُتّاب).

عندما تعوده أمه البائسة مرة كل أسبوع أو أسبوعين يحتفل بعيد ميلاده معها. يجلس على ركبتيها كأنه طفلها الصغير ويغمر جبينها، ورأسها، ويديها باللثمات. يعود إلى مقعده لحظة أو لحظات ثم يعيد الكرة. إذا مرّ أحد المرضى الجدد وأطال النظر إليهما يكون عقابه لكمة قوية على وجهه. غالباً ما تسقطه، اللكمة المتعطشة، في الإغماء. المرضى القدماء يحذرون من هذه الغيرة المجنونة. يكون عقاب الدمناتي يوماً أو يومين حبساً منفرداً في جناح الخطرين. منذ دخلت المستشفى أنقذته مرتين: عشرة دراهم في كل حبس لرئيس الممرضين.

حتى نوع من الدعارة ممكن مع بعض المريضات، بالدراهم أو بما تحتاجه من لا يكاد يعودها أحد. لا يخلو المستشفى من عاهرة محترفة أو أكثر. في ليلة جُنَّ الدمناتي بحراسة المراحيض. أول مرة يفعلها يمنع المرضى من دخولها بلكماته القوية. الحارس وممرض الدوام الليليان كانا غائبين في داخل المستشفى أو خارجه: نائمان أو يلعبان الورق. في الصباح تقيأ كل من لم يقو على شم الرائحة الكريهة في الثياب، وفي الأفرشة، وجنبات المستشفى. هذه المرة تلقى الدمناتي شحنة من الصدمات الكهربائية لتسكين هياجه، وحبساً منفرداً يومين، في اليوم الثالث خلصته منه، كالعادة، بعشرة دراهم. إن هذا النزوان العصابي لا يحدث له إلا على فترات متباعدة.

نزعت من مجلة البلاي بوي صور الفتيات العاريات وزيّنت بها حجرتي. قبالتي شباك صغير يطل على رحبة معشوبة تتنزه فيها المريضات في فترات الاستراحة. يثرثرن جماعات أو متفرقات أو منفردات. يمشطن، يتفالين(*) وإن لم يكن فيهن قمل. إنهن مثل القرود في بعض حركاتهن. عندما يحتدّ النقاش بينهن يتكاشفن عوراتهن. يتقابضن ويتجاذبن الشعر، ويتخامشن ويترافسن. إذا كان العراك بين اثنتين فإن الأخريات لا يتدخلن لتفريقهما، لكن إذا لم تأت الحارسة في الوقت المناسب فإن الاشتباك قد ينتقل إلى الأخريات بدافع عدوى الهياج. خلال الأشهر الأربعة التي قضيتها في المستشفى رأيت مراراً مشاهد العنف بينهن من أجل أشياء

(*) يفلي بعضهن لبعض.

تافهة: طلب مشط، تزاحم على مكان معين، أو مجرد نظرة متبادلة. «اشعندك كتشوفي فيّ!؟» واحدة منهن تنزوي دائماً وحيدة. تتعرى من كل ثيابها وتمشط شعرها في شرود. تأتي لابسة خجولاً وتطلب مني، من خلال الشباك، سيجارة. أعطيها اثنتين أو ثلاثاً حتى لا نعود. لا أريد أن أحرمها من عريها، وحلمها، وشم زهرتها، التي لا أعرف من أين تأتي بها، إذا عادت.

في الليل يكون للحياة شكل آخر في المستشفى. فئة من المرضى لا تكاد تنام. يحدث للبتول أن تجيء عندي ليلاً منتحبة أو مجنونة بالفرح. تجيء في منامتها الشفافة. قصيرة ومكتنزة قليلاً. شعرها مقصوص. وجهها غلامي. بشرتها قمحية. تعاني من عصاب التعقم. تخشى أن تجنّ. «أنا هنا، لكن ليس هذا مكاني». هكذا تقول بحسرة. تشرب وتدخن بلذة لتسكين توترها. عندي لها دائماً كأس أو كأسان وسجائر. خلعت ذات ليلة ثيابها وقلدت صورة فتاة عارية على الجدار في وضعها المغري.

– هل هذه أجمل مني؟
– كلا، لكنك لست مثلها، وليست هي مثلك.

أضع لها موسيقى مرقصة تطلبها فترقص مداعبة جسدها الجميل في غنج هوسي. تخلع بعض ثيابها في دلع. تتلوى في السرير مثل صل. تغازل وتغازل جسدها راقصة حتى يتعب منها الرقص فترتمي على الفراش ساكنة. يحدث لها أن تبقى حتى قبيل الصباح أو تغادر دون وداع. وجودها كله متعلق بطفل لا تستطيع أن تلده.

ذات صباح استدعاني الطبيب مونسارّا إلى مكتبه:

ـ إن حالتك المرضية لا تقضي بالبقاء هنا أكثر من أسبوع، وبقيت تقريباً أربعة أشهر. لقد ارتحت بما فيه الكفاية. ليس عندي هنا فندق. ينبغي أن تعود إلى عملك.

كانت البتول قد رقصت وغنت بصوت عال ليلة أمس. جاء ممرض الدوام والحارس الليليان وأعاداها إلى قاعتها. ممرض الدوام أيضاً يضاجعها. لقد بحثتُ عنها ذات ليلة فوجدته فوقها في مغاسل الثياب. قال:

ـ عندما أنتهي فهي لك.

دسست له في يده عشرة دراهم ونبضه يتباطأ فوقها.

سارّة

جاءت سارّة من العرائش إلى طنجة بعدما زهد فيها الجنود الإسبانيون وبعدهم المغاربة. أمها يهودية تزوجها إسباني، لكنها لم تتخلَّ عن دينها وإن لم تكن تمارس شعائره. شباب أمها لم يخل أيضاً من طيش وزِنَى. فندق أُرْكاديا هو كل ثروة سارّة. باعت أساورها، وخواتمها، وسلسلتها الذهبية، لتشتري رسمه التجاري. عَوَّضت حِليها بآخر زائف.

يجاورني هينينج سكرام. كلانا يترك بابه مُنْفَرِجاً: أنا أنتظر حظي في امرأة، وهو في رجل. إنها الرغبة المفاجئة التي قد يجود بها، على أحدنا، ليل الممرّ. إنه الليل: ليل طنجة.

هو يقرأ المسرح الكلاسيكي وأنا أفترس أيّ كتاب. ما أكثر ما أعاد عليّ أدواراً كان يمثلها، في الدنمارك منذ أكثر من عشرين سنة! لا أفهم كلمة واحدة، لكنني أنفعل لصوته وتشخيصه. ذات ليلة ركع، في دور، ولم يقم إلّا دامعاً.

إذا خاب انتظارنا ننضم في غرفتي أو في غرفته. نتقاسم باطية نبيذ. عاطفته جدُّ رهيفة.

في الأيـام الصاهـدة يحتفل بِعُـريه الكـامل أمـام المرآة. في عيـد ميـلاده الخمسين تَهَـوَّسَ بـين الضحـك والبكـاء. شرب حتى فقـد حذاءه. حملناه مُغَمغِماً مثل طفل: «دعوني، دعوني وحدي يـا أولاد الزانيات».

إنه عِيالٌ على خالته. تركت له مَعاشاً شهريـاً يستطيـع أن يعيش به في طنجة أو في مثيلتها حتى مماته. الموت يرعبه. وجـدته يبكي في غرفته لأن جنـازة مرت قـدام الفندق. (في نهايـة عام سـتين فاجـأه نزيف مخي في مليلة فمات ودفن هناك).

قلت له:

ـ لكي نقهر فكرة الموت لا ينبغي لنا أن نتصـور أنفسنا ميتـين. إنـه مصيرك مـع نفسك. لا يخص أحـداً ولا تنتـظر من يؤاسيـك. اعتبر نفسك خالداً ولو في الوهـم. لا يقهر الموت إلّا حب الحياة.

خَفَّ حزنه ولطمني بسخرية:

ـ إنك تعتبرني ساذجاً. هل تعتقد أننا في المسرح؟

أيضاً لا يعرف هينينج كيف يمرض. أقل ألم يجعله يرتجف.

نتغـدى ونتعشى خمسة أو ستـة من المقيمين الـدائمين في المطـعم الصغيرـ المطبخ. طباختنـا للاّالصـافية تخـدمنا. حـين يروق مـزاج سارّة تخدمنا بنفسها وتشـاركنا مـائدتنـا. أمها لـولا (اسمها الحقيقي حسيبة) لا تشاركنا أبداً في شيء. تظل قابعة في حجرتهـا المظلمـة. أحياناً تلعب الورق وحدها. لا يكاد يزورها أحد.

انضاف إلى مائدتنا شخص أراه في مقـاهي السوق الـداخلي. لا

أعرف ماذا يعمل. يختال في مشيته. ربما لِيُوحي لمن يراه أنه شخص مهمّ. إنه صديق عشيقِ سارة الأسود بوتامي: سليل الكوريلات، بجسده الضخم، ووجهه الشبيه بنصف بطيخة حمراء، وجبهته الضيقة مثل زنجانتروبو، وعينيه كَأنّهما حَبّتا عِنَبٍ سوداوان.

لا يقيم، هذا الوافد الجديد، في الفندق. مضت أيام دون أن يعرف كيف ينسجم معنا. ننكت ونضحك وهو متجهم. فكرت: أهو ينتظر مِنّا أن نسليه؟ ذات ليلة انتهينا من العشاء، ونحن نشرب، فأخذنا نتنافس في النكات. تعالت قهقهاتنا إلى حدّ الدموع فإذا به ينتصب ويخرج غاضباً. طُزْ! ماذا حدث لهذا الكونغورو؟

في اليوم التالي كان أول من دخل المطعم. وجدته يتصفح مجلة فرنسية وأمامه شيء ملفوف في ورقة جريدة فرنسية. حييته وجلست. حيّاني بهزة من رأسه ثم أطرق من جديد. فكرت: يمثل دور المفكر والمهتم. طز! كدت أنفجر ضاحكاً. للّاالصافية مضطربة على غير عادتها. باب المطعم يواجه حجرة لولا. تنام هناك سارة معها عندما لا يبيت كوريلاها في الفندق. بانت واستقدمتني بإشارة من يدها. شيء غير عادي يحدث هذه الليلة. أدخلتني إلى الحجرة:

- ماذا فعلتم له؟ إنه شرطي سرّي وصديق بوتامي.

- وبعد!

- إن ذلك الشيء الملفوف في ورقة صحيفة هو مسدسه. لقد رأته للّاالصافية يخرجه ويمسحه.

- لا أفهم شيئاً. وبعد، فهل جاء ليهددنا؟

- كلا، لكن لا تغضبوه، أرجو أن يكون عشاؤكم هادئاً حتى تعتادوا على حضوره.

- أو يعتاد هو على حضورنا.

- أرجو أن تفهم ما أقول: لا أريد مشاكل.

سارة هي من النوع الذي يقطر بولاً أمام السلطة.

الحارس العجوز، دون خوان، جالس في رُكن عند مدخل الباب. يعجبني تمرده. ليس لديه ما يربح ولا ما يخسر. أشار بإبهامه إلى الخلف مُدَوّراً سبابته حول صدغه. إنه دائماً ينتقدها، ويخلق نكتة جديدة حولها. قال مرة بسخريته المرحة، وهو يتعشى معنا:

- كأنّ الدجاج لا أرجل له. إنه دائماً يطير!

في صحنه جناح وعنق. أكثر من عشر سنوات وهو يعمل عندها.

حول المائدة: بوزيان، أستاذ الانجليزية، وهينينج سكرام، والشرطي وأنا. دون خوان لا يتعشّى معنا عندما يكون مهموماً. ينتظر حتى يفرغ المطعم. سارّة تطل علينا وتختفي، مضطربة، تنتظر ما سيحدث. للاّالصافية أكثر اضطراباً منها. لم تَرَ أبداً مُسدَّساً عارياً في يد إنسان. «كان يمسحه مثل نظارة». هكذا قالت لي. لفّنا صمت غامض على غير عادتنا. هينينج لا يعلم شيئاً عن المسدس الملفوف. سارّة تصبّ لنا النبيذ في كؤوسنا ثم تعيد الزجاجة إلى المطبخ. طلب لنا هينينج زجاجة أخرى لتبديد صمتنا

البارد. هو أيضاً يشك في شيء ما قد يحدث هذه الليلة. واجِم، ربّما يفكر الآن في عشيقه بيأس: تَجافَيا منذ أيام. حبه في حزنه أكثر منه في فرحه. صبّ للشرطي راعش اليد، ثم لنا. تماسَّت كؤوسُنا. خَفَّ اضطراب للاّالصافية وسارّة، التي أطلت علينا في بشاشة مُغْتَصَبَة. لست أدري لماذا يأتيني شَبَهها بالنّعامة! ألَأنَّ عنقها طويل؟ ووجهها يشبه قَلْباً؟ طلب الشرطيّ زجاجة أخرى قبل أن تنتهي الحاضرة. يريد أن يتلطف. سحب، في خلسة، ملفوفه ووضعه في جيب كبوطه.

بوزيان خلق لنفسه أيضاً قصة حب مع تلميذة، غداً دوره في الدَعوة. لم يتكلم معها أبداً. حبّ النظرة من بعيد. مرتان في الأسبوع، يبدأ درسه في العاشرة. يسافر، في هذين اليومين، إلى تطوان، في السادسة صباحاً، ليعود بعد ثلاث ساعات. يتناول فطوره في مقهى أڤينيدا دي اسبانيا، الذي تَمرّ أمامه معشوقته بلذة يراها ولا تراه. إذا عاد فاتراً وشارداً ندرك أنها لم تمرّ. في هذين اليومين، مرت أو لم تمرّ، يستضيفنا إلى زجاجة أو اثنتين، أثناء العشاء. لا يشرب إلاّ في المناسبات. لا يعرف كيف يشرب وحده: شرب الخمر حالة اجتماعية كما يقول.

حوالي الواحدة بعد الزوال كان هناك سُلَّم، ورجال السلطة، والمطافىء، وجمهرة متهامسة. لقد كسروا النافذة لفتح الباب من الداخل. وجه سارّة شاحب وراعش. الهلع شوّه ملامحها. إنه استغراب تام من الجميع، الذين عرفوها هنا، أن تنتحر شاستين. لقد ودعتنا جدّ مسرورة. تعشت معنا جيداً وشربت حتى احمرَّ

خداها. أذكر بسمتها الأخيرة وهي صاعدة الدرج إلى غرفتها. أيامٌ وكُلّ طعامها خبز مغموس في النبيذ. تقضي مُعظم أوقاتها تقرأ. تأخرت الحوالة التي تستلمها شهرياً. أعياها، هذه المرة، انتظار مساعدة والديها لها. دَعَوْتُها للعشاء معنا عندما علمت بضائقتها. لا أعتقد أنها انتحرت بسبب الخصاص وحده. لا بدّ أن هناك تَراكُماً من الانحطامات. ربما كان هناك شقاء أعمق، لكن ابتلاع أنبوب من المُسَكِّنات بكامله كان أَقوَى. ربّما فرحها معنا، غير المنتظر، قد ساهم، أيضاً، في انهيارها!

بعد نقل الجثة وانصراف السلطة غزت سارة نوبة من البكاء حادة. شاركتها في شرب الكونياك لتخفيف انفعالها. تحدّثنا عن المقدور، ومصائر الناس، ناسياً عملي المدرسي. سكرنا وضحكنا. لا أذكر كيف صعدت إلى غرفتي لأنام بكامل ثيابي. أيقظني دقّ متواصل على الباب للعشاء. المطعم كان خالياً من المرح الذي نخلقه في معظم الليالي.

في عطلة مارس المدرسية تضاعف همٌّ بوزيان. كان يذهب إلى تطوان في نفس اليومين المعتادين، ويتناول فطوره في نفس المقهى، ويعود في نَفس الساعة المعتادة. تلميذته غائبة، لكن نظرته حاضرة. أخذته إلى دار برغوثة. كان عندها ثلاث. تركته يختار. دخلت أنا مع فتاة حولاء استعدت معها بعضاً من ذكرياتي عن أحياء تطوان. سألته في حانة دينز بار عن التي دخل معها. «إنها لطيفة، لكني لم أضاجعها؛ لأن قصة احترافها أحزَنَتْني. تَعولُ أمها، وطفلتها في عامها الأول».

أنا أيضاً أكره هذا النوع من العاهـرات اللائي يقحمن همـومهن في الفراش. إنهن العجز بعينه.

بوتامي ليس عشيق سارة الوحيد، لكنه هو الدائم منذ سنوات. إن شبقها يستقدم نيّاكين شُبّاناً من المـدينة وغـيرها. بعضهم لفقـره وكبته، وبعضهم افتتانـاً بالأجنبيـات، ولو كن هَـرِمات مثـل سارّة. هذا اليوم جاءها شابها الأثير من شفشاون. أقل من ابنها كارلوس، في ثلاثينه. من عادة بوتامي أن يسهر معها يوم السبت، وقد يستمرّ سهرهما حتى آخر ليلة الأحد، وبقية الأيام لزوجته وبنـاته الثـلاث، لكن اليوم هو الاثنين. ربما دلّـه أحد عـلى هذا المنـافس، الساذج، فجـاء لِيشمّ مُنافَسَتـه له. سـارة في أزهى زينتها، وأَعْبَق عِـطرهـا. الشـاب يتعشّى معنـا. إنـه أقـرب إلى الالتهـام، والشره، منـه إلى الشهيـة. لا يشرب ولا يدخن. ولكي تُعَلِّفَـهُ جيداً وتكـرمه أمـامنا يصير عشاؤنا وليمةً أكلاً وشراباً عندما يجيء. لكنهـا تُعَوِّض ذلـك! قيل لي إنها غالباً ما رأوها تشتري لحم الحمار أو الحصان. قـد يكون هذا صحيحاً، لأن شريحة اللحم تكون، أحياناً، مَطّاطيَّة. لا يهمني أن أصـدِّق. إقامتُنـا الكاملة عنـدها من أرخص الأثـمان في السـوق الـداخلي. صعـد بوتـامي مع سـارّة إلى إحدى الغـرف الشـاغـرة. سمعنا لَغطاً وشتائم. مرَّ بـوتامي أمـام باب المـطعم غاضبـاً، مُلقياً نظرة احتقارٍ على الشاب. دخلت سـارّة حجرة أمهـا. بانت بنـظارة قاتمة تُخفي كَدمَتها الطرية. إنها عنيدة، حازمة ومجدولـة، لا تَنهزم. كأنّ شيئاً لم يَحدث. إنها سيدة حريتها ورغبـاتها. هي هنـا. يختصم من يختصم، ويذهب من يذهب، وهي هنا سيدة نفسها. يغضبون ويذهبون، لكنهم جميعاً يعودون. إنها سيدة السَّخاء، والمِراح، والنِّكاح.

وفي السماء طيور دون أرجل

الظهيرة، في الصيف، تخنقني مَلَلاً. لا ينقذني منها إلّا البحر، لكني تكاسلت عنه وفقدت لذّة السباحة منذ سنوات. ليست هذه هي المتعة التي أبعدني عنها الشراب كل يوم: القراءة الجادة، الكتابة، وكتابة الرسائل إلى الأصدقاء، والتأمل، والحلم... حتى غفوة القيلولة عزفت عنها. ربما لأني أستيقظ منها خاملاً في مثل هذا القيظ الخانق. عندي الآن خيارات: أن أذهب عند شارل لوشوفاليي، أو باتريسيا، أو بينيتو جرّا، الذي عاد من المكسيك، أو أنزل إلى إحدى حانات الشاطىء، لكن ثرثرة السكارى هناك، وتعتعتهم ستضاعف هذه الحرارة. عند بينيتو الذي لم أره بعد.

استقبلني حافي القدمين مضخماً ترحيبه كعادته. لا ينتظر من يبهجه حتى في أكثر الأيام عوزاً في انتظار الحوالة التي تبعثها له أمه الثرية. تعانقنا بحرارة. أمسكني من كتفي:

- لم تشيخك الخمرة بعد. ما زالت في عَوْنِك.
- وأنت أيضاً لم يَهزُمك المسحوق الأبيض حتى الآن(*).

(*) الكوكايين.

جبته فضفاضة، مفتوحة الصدر. لم يسكن، هذه المرة، في منزل كبير: غرفة واحدة، في حومة بنشوقي، تطل على الشاطىء، وجزء من الميناء، وهضبة الشَرْف، ومَحطة القطار. بضعة كتب، وأوراق مبعثرة فوق الطيفور (الطبلية). اخرج بيرتين باردتين من جفنة مغطاة بقطعة من الخيش.

- هذه برّادتي (ثلاجتي).

رائحة الهاش قوية. صحته جيدة. هكذا هو دائماً كلما جاء، لكنه سَيَبْثِر، كعادته، إذا هو عاد لِيَشُمَّ المسحوق الأبيض، ويدخن الحشيش، ويتناول المعجون ويشرب.

- وڤالري؟

- تكاتبت معها عندما كنت في لاس فيغاس. تزوجت ولها طفلتان. تعيش مع زوجها في ساحل العاج. لا أظن أنها كانت تطمح إلى أكثر من هذا. لقد تهرأت في الحب الهارب منها بما فيه الكفاية.

- باتريسيا أيضاً لها طفلة من جيوڤاني، لكنها لم تعد تعيش معه وإن كانا يلتقيان.

- أعرف هذا. لقد أفطرنا معاً، هذا الصباح، في مقهى سنترال.

تأملت الأوراق فوق الطيفور.

- ماذا تكتب؟

- رواية. هذه أول تجربتي مع النثر. أُعاني عُسْراً كبيراً في كتابة

صفحة واحدة كل يوم. ربما كنت في حاجة إلى فتاة مجنونة يلمع فوق جلدها تَوَتُّري. لا تُسْعِفُني الكتابة إلاَّ عندما أتَخاصم مع نفسي والآخرين. قلما أكتب وأنا أمرح. «كل عقل نشيط صادر عن روح منحطمة» كما تقول ألفونسينا سطورني(*).

- وسلما، أين هي الآن؟

- لا أدري. لا أعرف من أنكر الآخر في جلدنا القديم. لم أتم عطلتي في لاس فيغاس لأني التقيت هناك فتاة نسخة منها في الملامح والتصرفات. امتصصت منها ثلاث قصائد وهربت قبل أن أكرهها وأمزقها.

التقط أوراقاً من فوق الطبلية ومدّها لي.

(*) Cada Cerebro Activo Proce De De Un Alma Quebrantada.

النرجسيون

يروق لي أن أتأمل عينيك.
تكادان أن تكونا برتقاليتين،
وشعرك المسبل مثل الكاكاو اللامع.
يروق لي أن أتأمل وجهك الوضيء
حين يظهر ويختفي.
أغرقيني
حينما أخرج من حلم وأدخل في حلم.
إن شفتيك اللذيذتين تفرضان حواجز
على فمي المحارب.
العراك هو سلاحي الأثير.
وأحب نفسي.
وبعد!
النرجسيون يغرقون أجساماً أخرى،
وأرواحاً، بحنان.
أحبك نحو الأعلى، ونحو الأسفل.
منذ عجلة البدء المبهمة، صار محاصراً

جلدك من العصر الحجري.
يتموج متلألئاً نحو المستقبل، لكن روحي
القوية هي أبعد من الاتجاهات الأربعة.
الميعاد هنا.
أينما يروق لك،
ربما في مغارة الفضاء المحكمة السرّ، الكتيمة.
الميعاد هنا.
ظمآنة هي كيميائي المتوحدة.
الميعاد أينما يروق لك.
ربما تفوزين بلقائي.

علبة الوقيد

اليوم طاردتني النجوم.
رميت لها جلدي... شعري...
عينيّ الرائعتين، البنفسجيتين.
عبثاً
لقد نقلتني معها،
عبرت بي قارة من الثلج.
أَفْرَغَتْ نفسي.
أنا كلّي تدحرجت نحو الأرياف:
عظام... نفايات... جمال...
مرَّ من أَخذني معه.
خبأني في علبة الوقيد.
ومن أجل ذلك تشتعل أعوادُ الثقاب،
كما يَحكون.

بخور

يتساقط الثلج.
زرقاء تمطر الغرفة،
ونحن معاً
انسلخ عنّا اللحم.
لم يبقِ منّا إلّا العِظام،
إلّا دخان العضوين صاعداً
في بطءٍ حَلَزوني.
في الخارج، تمطر زرقاء
وفي الداخل، بخوراً تمطر
ونحن شاحبان، خالدان، مُمَزَّقان،
دائماً مُنْصَهِران في أثير النشوة المُتلاشِية.

لوشوڤاليـي

لا ينبغي لي أن أكـــون حيث يـوجـــد الصيف. إنـه يخنقني وقلّما يُبهجني. لا أكاد أقبض فيه على فكرة حتى أدوخ وتتبخر مثل النَّدى المشحون في هواء الليل. كانت لي فيه، في عزّ شبابي، بعض المزايـا والمباهج. من اللطيف أن لي رمل البحر الـطري لا رمل الصحـراء الجـاف، الصافـع والمُعمي. لا أتعلق بالأحـلام إلاّ عندمـا يهـزمني طموحي، ولا أتذكر همومي إلاّ عندما أجلس لأكتب.

وجدته جالساً حزيناً في رحبة مقهى سنترال. بادرني:

- أحتاج إليك الآن. ستساعدني في مهمة.

لأول مرة أسمعه يستسعد بأحـد هنا. العشيـة تقترب. نهض في تثاقل وقال:

- عندما نشيخ نتمنى أن يبدأ كل شيء من جديد!

أكتب الآن هـذه المذكـرات عـلى نشيـد السعـادة في السنفـونيـة التاسعة، والليلية الأولى لشوبان. سأترك للقارىء حرية مـزجهما في مخيلته.

غرفة لوشوفالي حارة مثل فرن. زجاجة نبيذ ورديّ فوق الطاولة. لا يشرب الماء إلاّ عندما ينعدم النبيذ. الماء لِلجمال والضفادع، كما يقول ساخراً. ملأ لي كأساً: إنه دافىء، وطعمه حامض، وتفوح منه رائحة الفلين. أشار إلى حقيبة بالية قرب السرير.

- أرجو ألاّ أزعجك إذا أنت حملتها لي إلى الشاطىء.

- إلى الشاطىء!

هل بدأ جنونه؟

- لا تستغرب! لكن لن أقول لك شيئاً عمّا فيها حتى تَرى بنفسك.

يُبْطِئُنِي، في السير، كلما تخطيته. أبداً لم أره متألماً ومُتْعباً كما هو اليوم. إنه دائماً ضدّ «الْ آي إِ» يكاد ينهار، لكنه صامد. الحقيبة ليست ثقيلة. تساءلت عمّا يمكن أن يكون فيها! أشخاص يودعون مساء طنجة الجميل، آخرون ما زالوا متشبثين برمله الرطب. فتحت الحقيبة السحرية الشوفالية: قصص قصيرة قرأ بعضها عليّ منذ زمن. لم ينشرها قطّ، وركام صور لونها حائل، وأوسمة نالها في الحربين العالميتين. طلب مني أن أشعل فيها النار داخل الحقيبة. نظرت إليه في أسى. سأحترم رغبته، هذا أكيد، لكني أردت أن أنقذ صورة له كي أحتفظ بها، فامتنع:

- أرجو أن تلبي لي رغبتي. لا تناقشني في شيء عنها. سنأخذ أكثر من صورة معاً متى تشاء.

الأوراق الفحمية تتطاير وهو ينظر إلى الأفق الشفقي مُشرباً بلون

زهـور اللوز. ذكريـات أكثر من ستـين عامـاً تتـلاشى دون رحمـة أو نـدم. وجهه أسيـان إلى حدّ البكـاء. احمرار وجهـه يعكس مقاومـة انفعـاله الشـديد. لأول مـرة أرى فيها مثـل هـذه العـدسيـة. كـل قصصه التي كان قد قرأها عليّ أسلوبها ينعدم فيه الخيال الأدبي. إنها مجرد سرد أحداث مأساتية دون جمالية. كل شيء فيها مطبوخ مسبقاً وجـاهز. لا شـك أنه لا ينمي مـوهبتـه الأدبيـة بمشـاعـر العـزلـة، والقراءات التأمليـة. إنه من هؤلاء الـذين يسألـون دائماً إن كـان ما يسمعـونه أو يقـرأونه حقيقيـاً أم لا. لكن تمـرده القـوي كـان عـلى الزيارة الأسبـوعية للكنيسـة، وحفلات إحيـاء ذكرى القـديسين. لم يعـد يستمد بهجـة الحياة إلا من المـاضي: العصر الجميـل انتهى في نهاية الأربعينات، رغم كوارث الحروب الكبيرة والصغيرة. هذه هي حسرتـه. وبعد تقـاعده من الجيش أخـذ يمارس التـطبيب بـالإيحـاء الذاتي. كان مهتماً به منذ شبابـه. اعتبرتـه نوعـاً من الشعوذة، لكني تراجعت عن رأيي عندما رأيته يعالج سارة أمامي. راح يلقنهـا جملاً ترددها معـه، وهو يمـرر راحتيه عـلى بطنهـا، ماسحـاً وجعها، حتى أنهضهـا من فراش الأنـين والألم. لقد كـان لـوشـوفـاليي طبيبنـا في الأوجاع والأحزان فإذا هو اليـوم أوجع منـا وأحزن. عنـدما أصبت بفقر الدم وصف لي «كفتة» الحصان نيئة مع صفار البيض، والثوم، والابزر، والنبيذ. أدركت، من خـلال تلميحاتـه، أنه لا يمكننـا أن نعيش بالذكريات الخائنة أو المشكوك فيها. ثم لم يعد له من يـورثها له. لقد تنكر لكل قريب له، بعدما قتلوه وهو حيّ.

حوالة معاشه تأخرت أكـثر من المعتاد هـذه المرة. يـزداد انهياراً.

ينظر منحنياً أكثر مما ينظر مستقيماً. هذا ليس من عادته. سمعته يتمتم:

- في بلاد المواعيد يموت الإنسان جوعاً.

لم أسأله عما يقصد. فكرت وأنا أفارقه: إنه في الخامسة والسبعين. إذا قدر لي أن أعيش عمره تُرَى أية متعة أو حسرة ستكون لي في العيش! إن عبارته هذه استرجعتها كأنها مسّ. ولكي أقوي وأعزّي نفسي صرت أقول: لن أشيخ سيئاً: «عندما نشيخ نتمنى أن يبدأ كل شيء من جديد!» ما قابلت أحداً في مثل عمره إلّا شكا من الزمن الذي جرده مما يحب، أو من حياته حتى النخاع. لكن لوشوفاليي هو أقلّ مبالاة بسوء حظه. صرت أخشى نهاية حياتي من خلال حياته. ما أصعب ألّا يقارن الإنسان حياته ببعض الآخرين.

مرت ثلاثة أسابيع على تأخير حوالة معاشه. القطرة الصامتة، القطرة التي تكسر الصمت. صار طعامه مقتصراً على الزبدة، والطماطم، والبصل، والليمون. أشركه معي كل يوم، تقريباً، في زجاجة نبيذ رحمة به من الماء الذي يعاف شربه. نظم له المركز الثقافي الفرنسي إلقاء محاضرة عن العلاج بالإيحاء الذاتي، لكن حماسه فتر عندما رأى حوالى عشرة أشخاص في القاعة فاختصر الموضوع إلى حديث دام عشرين دقيقة. ما ربحه من هذا اللقاء الخمسمائة درهم التي أعطيت له مكافأة فأنقذته من بؤسه في انتظار وصول حوالة معاشه. في تلك الأمسية كان كريماً معي في مطعم

الفندق الذي نسكن فيه معاً: طعام وشراب، أحاديث ونكات حتى طردنا تعب الليل.

في العام الماضي خاب أمله أيضاً عندما طلب، في مقهى زاكورة، من العازفة على البيانو وزوجها الكمنجي أن يصاحباه في أغنية من الثلاثينات. ما أن صاح صوته القوي حتى استوقف كل مارّ أمام المقهى فأوقفه النادل بلطف لأن المكان ليس ملائماً للغناء. إنّ واقع لوشوفاليي قد تخلى عنه لأنه يعيش في عالم غريب عنه. إنه أشبه بمن يتعلق بغصن وتحته هاوية: عبء ثقيل وحزين. وجدني، صباحاً، في مقهى سنترال متلذذاً بكسلي. لقد زايلته كآبته. دعاني إلى صحبته لزيارة صديقه جورج في ضاحية عَوَّامة. ليس لديّ ما أفعله، في هذا اليوم الصاهد. أحسّني فائضاً. اشترى أرنباً دجيناً، ونبيذاً، وعلبة فطر، وخبز شعير. ركبنا الحافلة العمومية. في المحطة النهائية كان علينا أن نمشي حوالي كيلومتر لنصل إلى الغرسة الصغيرة. الطريق لاهبة. حية تعبر في حجم نصف متر، توقف قائلاً وكأنه يخاطبها:

- اعبري أنت أولاً. أنت الأسبق في العبور. لا تتحرك أنت.

العرق يتصبب منا. جورج يعيش من تربية النحل. لا يكاد يزوره إلّا لوشوفاليي وأنا عندما أصحبه. في بعض المرات أشتري منه عسلاً. تهلل بالفرح وهو يستقبلنا. الكوخ القصديري، الرحب، بناه بنفسه. حرارته في الصيف خانقة، وفي الشتاء برودته مجمّدة. كل ثروته الحيوانية بقرة ودجاج. حياته زاهدة. لا يملك من الأثاث إلّا فراشاً، ومائدة، وكراسيها، وراديو صغيراً. راقني أن

أتمشى في ظلال أشجار البرتقال، والأرنج، والإجاص. بعض الإجاصات أسقطها نضجها البالغ. بعضها نقبته الحشرات. أكلت اثنتين مستلقياً تحت شجرتها. لوشوفاليي وجورج يطبخان الأرنب. لقد تعمدت أن أتركهما وحدهما. بينهما أشياء مشتركة عن بلدهما. لوشوفاليي ملحد وجورج متدين لكنهما يتفاهمان. لم أسمعهما أبداً يتجادلان في الدين. غرس جورج صلباناً خشبية في الحقل، وقرب البئر، وفوق باب الكوخ صليب خشبي داكن اللون مثل فزّاعة. لا مكان للشيطان هنا. فكرت: بماذا يبهج حياته في هذه العزلة شبه المطلقة؟ حتى الكتب ليس عنده منها سوى بضعة مجلدات كالحة اللون. لا أثر للمجلات أو الصحف. ربما يغذي نفسه بالتأمل مثل الروحيين والقديسين. إنهم هم أنفسهم مواضيع للتأليف. عصافير تطير بين الأشجار. طائر أسود استوى على غصن. بدأ يرعش. ربما هو طائر الزيتون. (الزرزور). فكرت في ملاعب حي عين الخباز، وبساتين كيتان، وحقول سيريمين في وهران. إن الإنسان هو كيف ينتهي وليس كيف يبدأ. هذا أيضاً أحد تعابير لوشوفاليي. إذا أزمنتُ فلست أدري أية شيخوخة تنتظرني. أكيد أنني لن أحرق حقيبة ذكرياتي على الشاطىء. إنني لم أسمح، حتى الآن، لأية عاطفة أن تخونني. لقد عشت دائماً في حالة طوارىء. ما أحببت إلا ما كان هارباً. إن الحب، مثلاً، لا يسحرني إلّا إذا كان أسطورياً: أتحدث عنه دون أن ألمسه أو أعانقه. وأكثر الفتيات اللواتي سحرنني هن الهرمافروديات. ربما نزعة لواط دفينة ما زالت متحفزة في أعماقي. إن الغلاميات أكثر إيجابية وجاذبية من الأنثويات (المارلينيات والشاديات). إن سلبية أمثال الأخيرات لا توحي

ميوعتهن إلاّ باغتصابهن.

لقد بحثت عن لعبة الحياة ورمزها لا عن حقيقتها: عن الغامض واللغز، لا الواضح والبسيط، عن المجهول لا المعلوم، عن السراب لا الماء. سقطت قربي إجاصة جدّ ناضجة. تمرغت منقلباً وأخذتها. أكلتها مفكراً في اسحاق نيوتن، وهنري ثورو، وروبرت فروست. فكرت أيضاً في اليهودي الذي ألقى بنفسه من الطابق السادس فسقط على عامل مغربي، في تطوان، حيث أدخل له عنقه ورأسه في صدره. خارت البقرة وهي تَروثُ والحسون يغني. لقد نقلتني ظلال هذه الشجرة إلى ظلال طفولتي الوارفة: عين القطيوط، عين الحَيَّاني، وعين الخباز، شربت من عيون هذه الأحياء ماء البؤس العكر ـ الزلال.

لم يسبق لي أبداً أن استلقيت مثل هذا الاستلقاء المشرق، المشجر. من قبل كنت أجري تحت الأشجار ولا أتوقف تحت واحدة إلاّ لأقطف ثمرها، أما الآن فأنا أستظلّ وآكل من نضجها. إن الزمن لم يعد يوزعني. صرت أحبسه أينما أشاء. إنني مدين الآن لصديقي لوشوفاليي. لولاه ما كنت أنتشي بهذا الموج من الذكريات التي تغمرني في منتهى نعومتها، ولينها، وعمقها. تعبي يسيل مني في هذا الاسترخاء الشامل والبهيج الذي يُسلمني إلى غفوة لذيذة. جاءني جورج بقدح من الفخار مملوء بالنبيذ. إنه عتيق في كل شيء هذا الجورج اللطيف، الناعم في صوته وحركاته. بدأت أشفّ مع كل رشفة من القدح والسيجارة. أشرقت مراحل حياتي القديمة منها والحديثة، الخبيثة والطيبة، المؤلمة والمفرحة: إنها ومضة متشابكة مثل

أغصـان شجـرة الإجـاص هـذه. بـدأ نسيم يهب محمـلاً بـالابـتراد المنعش. ناداني لوشوفاليي للأكل. يحب الأرانب المـطبوخـة بالخمـر والفطر. أستلذ دائماً طبخه. إنه أصيل في بداوته.

باتريسيا

جارتي لا أبالي بها لأنها تافهة. لا جنس دون طقوس. أكتب هذه المذكرات في حانة جديدة ممسوخة. إنها من الحانات الجديدة التي أُقحِمت على المدينة. هل جاء ليل وداعك لليل طنجة؟

- أبداً لا. إن ليل طنجة هو ليلي. لا يودعها من عاش فيها حتى تأذن له سُرَّتُها. كم عدت إليها مهما كان تناسلها وما أكثر ما سافرت وعدت من نصف طريقي إليها! الحقيقة هي المستقبل. لا أحد شاهد على ما يقول. إني وحيد ليلي. لا أحد يغزو وحدتي.

- پوركوجودا! پوركوجودا!

أناستاسيا تبكي. من تَسُبّ؟ من يمكن لها أن تسبه هكذا في حضوره؟ الصهد خانق. أناستاسيا عارية حتى النطاق. ما أجمل عري الطفولة! أفكر في باقة ورد حمراء محروسة بزهور بيضاء مُشربة بحمرة لم تفترّ بعد لُسَيْناتُها. كم تُفرحنا وتُشقينا الطفولة! لا تدوم إلاّ في أحلامنا. ماذا يأتي بعدها سوى أن نمارس جنون الليل! باتريسيا جالسة على الحصير. جُبّتها الفضفاضة مراكشية. تُفتت سيجارة شقراء لتصنع صاروخها كما تسميه. أهو إفناء أم إثبات أم

تَحَمُّل أم نشوة ما تصنعه؟ ربما احتجاج! ربما إحباط! ربما لا شيء! ملء فراغ! نزوة! ياالليالي الطويلة في ملذاتها وكِيتْ جاريتْ يعزف. أمطار توحي لك بالطوفان ولا تغرقك. لا أحب تقليد نفسي. لقد ولدت باتريسيا لتبهج الآخرين، لكن كم سألتها! من هؤلاء الآخرون؟ تنظر إليّ ولا تُجيب. تبتسم! تصنع صاروخها خافرة عينيها. جمال كل النساء يجتمع فيها. سكينتها تجعل من كاره النساء محباً، ومن العِنّين فَحلاً. بسذاجة تقول: الآخرون أيضاً يوجدون. أزداد حباً لنفسي أمامها. رقص، رقص لكي يجمل العالم. رغم أن باتريسيا شاعرة فاشلة فإنها توحي بأجمل الشعر لمن يعشق حضورها. الفنانون لا يموتون أبداً في الاسطبل.

تَهلل وجه باتريسيا، كفّت أناستاسيا عن البكاء وجاءت عندي حابية.

- جئت في الوقت المناسب. أناستاسيا في حاجة الآن إلى من يحملها. أخذتها بين ذراعي. أن تغامر بحياتك هي الحياة نفسها. إن السفر في الطائرة ظل حلمي منذ سمعت هديرها لأول مرة.

أكثر أحلامي تَذكراً هي طيراني. غالباً ما يكون طيراني فوق الأحراج وينتهي بالنزول أمام مدخل كهف أتخيلني الوحيد الذي يعرفه. أتلذذ فيه بعزلتي بعيداً عن الروائح البشرية التي سئمت منها وسئمت مني.

نَغْنَغَت أناستاسيا. لا صبر لأمها على تربية الأطفال لكنها تحبهم.

- أكنتِ تَسُبينها؟

- أوه كلا. ماذا تقول! لم أكن أسب أحداً. إنها عادة أخفف بها عن نفسي. ربما كنت أسبّني دون أن أشعر. لا أدري!

أول عومة لي في هذا العالم. كان البحر يختزن حرارة موسم الصيف كله. هناك ناس لا يصحون إلا ليمارسوا بلادتهم، وآخرون يولدون بلداء، ويعيشون بلداء، ويموتون بلداء، ويزعجون الآخرين.

افترقنا حَرَجاً؟ فَضيحة؟ جاء مَنْ يُثْبِتُ ما كُنّاه! إن براين جيسن يُؤَسْطِرُ الناس، وكثيراً من الأشياء حتى لا نعرف أهو جاد أم مازح!

سيتشيث! آه من شَفَقِها، وليل أَزِقَّتِها البيضاء! هناك رأيت العاشقين المتعاتبين يقرأون الرسائل المؤجلة، غير المرسلة بعد. ماذا يبقى لنا سوى شفق يذكرنا بأشفاق بعيدة أو قريبة!

مصت باتريسيا صاروخها وسألتني:

- كيف تركت الشارع؟

- مثل كل عام: شعارات جاهزة، مراقبة قبل أن ينادوا بها. هذه السنة يحتجون بحدة على تكاثر العمارات. من يبنيها؟ في كل عام يسمحون لمثل هذا العيد العمالي أن يمرّ في سلام. آه من اللُّماظة السياسية!

- شكري! إنهم على حق. طنجة بدأت تتخلى عن أرضها لتبحث عن السماء الوهمية. كلنا عانينا من الغزو والضياع. لنبدأ من جديد كي نستعيد هويتنا. إن من يصطاد فراشه في الغابة قد

تصطاده أفعى سامة، ومن يصطاد سمكة قد يفترسه سمك القرش.

أكلنا كان بطيئاً في أعينهم، وأفواههم كانت سريعة في دهشتنا. من رأى ليس مثل من أكل. لا صلة لنا بالعين والفم.

يجتمع في باتريسيا الفرح والحزن، والشكوى والتذمر. لن أناقشها. وقفتُ خارج الغرفة الدخانية لأبعد أناستاسيا عن هواء الحشيش. لقد غفت على كتفي. صحيح أنها كانت في حاجة إلى من يحملها. قال لي لوشوفاليي:

- كلما ابتعدت عن أصدقائي صاروا أقرب إليّ. تَماسّ ولا تَواجه أو تلتصق. أغلب الناس يرون حدوداً حتى عندما لا تكون هناك حدود.

أشرت إلى كوخ توماس الروخو:

- كان يسكن هناك عجوز اسباني مات منذ شهور. كنت أعرفه.
- أتمنى أن يكون قد عرف كيف عاش.

أناستاسيا نامت. مددتها فوق الفراش الواطىء. مدت لي باتريسيا صاروخها. عاطفتها ضبابية، رومانتيكية، لكنها تعرف كيف تتلذذ بإخفائها.

- ما هي قصة العجوز؟
- كان يكره فرانكو، ويبيع بالونات للأطفال. (كنت أكلمها خارج الغرفة)

ـ أهذا كل شيء عنه؟
ـ وماذا تريدين له أكثر؟
ـ كان يعيش إذن زمن الصمت في المنفى!
ـ وماذا تريدين له أن يفعل؟
ـ إنك تبالغ دائماً في تمجيد حياة الشيوخ. لم يعد هناك من يَسْتوحي زمن النبوة.
ـ كيف وجدت بينيتو هذه المرة؟
ـ لقد أفطرنا معاً في مقهى سنترال.
ـ قال لي ذلك.
ـ قرأ عليّ قصائده الثلاث الأخيرة. لقد تخلّى عن تلقائيته الشعرية وبدأ يعقلن الأشياء، لكنه لم يبرأ، بعد، من أبيقوريته.
ـ ومن قبل كان يطمح أن يصير صوفياً. إنه مرحلي.
ـ أعرف هذا. قل لي: وصديقك لوشوفاليي؟
ـ ما زال يحيا. تلازمه، هذه الأيام، سوداوية. له أخ في اوستراليا يتراسل معه على فترات متباعدة.

لوشوفاليي يتهم أخاه بول بخيانة زوجته لأنه هجرها ليتبع امرأة أخرى إلى أوستراليا. وفي آخر مراسلة بينهما كشف له أخوه عن أن كلاهما عاش مخدوعاً. إن زوجتيهما الأختين كانتا تخونانهما مع عشيقين من أيام الصّبا. زوجة شارل لوشوفاليي ماتت، وأولادهما تزوجوا وأنجبوا. أما بول فلا أولاد له. زوجته، اليوم، تجترّ شيخوختها وحدها في لوڤان.

رحلت باتريسيا مع آخر الهيبيين في بداية السبعينات ولم تعد قط

إلى طنجـة. في الصيف المـاضي زارني شـاب ايـطالي. أخـبرني أن باتريسيا مصابة بورم مخي خبيث. ابنتهـا تدرس في الجـامعة. كتبت لها كلمات وداع. لا أحد يجيء بعد أن يجيء الأخير.

حصار

هل ينبغي أن أكتب عن الثلج حيث يوجد أو عن السيجارة المشتهاة في الزنزانة؟ قد يكون ما يمكن أن يكون. لنترك فسحة مجال لمن يأمل، رغم أنه لا مجال، وكل مجال.

قاسم وحيد أمه. يعيش معها، لكنه يرفضها وهو لصيق بها. يطيعها، أمّاً، لكنه عاجز عن الاقتناع بتوبتها. يحبها ويكره امرأة أخرى. لحظات هدوء تنتابه معها فتغمره أُخْيِلَة: طفولته في إشراق بحيرة سرية، لكنه يعيش ذكرى حصار وهمي: غرام في «ضيت عَوّا». قيدته أخطاء كثيرة لا يعرف كيف ينفكّ منها. القريب منه بعيد عنه. الخوف يخدر حواسه فيشرد ويغيم ما يحدث له في حزن. لا يعرف كيف يستمد شجاعته من خوفه. إنه حبيس حصاره. كل علاقة تضاعف شقاءه. أصدقاؤه لا يتعدون أصابع يده. ذات ليلة أسكرناه في بيت أحد هؤلاء الأصدقاء. تطوعت فتاة شبه محترفة لتخرجه من حصاره. اكتريناها مخرج ضيق، لكنها محاولة. كاد أن يخنقها لو لم نقتحم غرفتها. في تلك الليلة خبط أمه بما طالته يداه. إنها البداية التي لن تنتهي معها كلما سكر وتخانق مع امرأة. تعوّد أن يأكل ما هو حلو مع أمه، لكنه يفتقد أية حلاوة مع غيرها من

النساء. لا يريد أن يبقى مجرد تذكار في ذاكرة من يشفق عليه، لكنه عاجز عن تخطي أيّ حاجز لفك حصاره. يخشى أن ينخدش. يصاب بالدوخة عندما يفكر في المغامرة التي ستقوده إلى المجهول فيظل حبيس نفسه. نادراً ما يجلس في مقهى، وإذا جلس فقدام الباب: إنه حصار آخر. يمشي كثيراً ليخفف من توتره. نزهته عبر الشاطىء أو في «الجبل الكبير». يزورني مرة أو مرتين في الأسبوع. لم نكن صديقين حميمين، لكني أشفق عليه وتجمعنا المهنة. هو يدرّس الفرنسية وأنا العربية. اهتمامه بالأدب الفرنسي يبدأ مع مدام دو سطايل وينتهي مع ملارمي. نستمع معاً إلى الكلاسيكيات. أحبّها إليه لاباتيتيك، شهرزاد، دون جيوفاني وايرويكا. حضوره ليس مزعجاً لمن يحب السكوت. أقرأ أو أكتب وهو شارد مع الموسيقى. عندما يتنهد ينظر إليّ. أتعمد ألاّ أنتبه إليه. ساهياً ينظر إليّ مرات. لا شيء فيّ يثير وساوسه. يستعيد طمأنينته وشروده وأنا قارىء أو كاتب أو متظاهر بالشرود مثله مغمضاً عينيّ. يخجله ماضي أمه. كافحت بجسدها الشاب من أجل مستقبله، لكنه لم يغفر لها ظروفها. هجرت الرجال وصارت منظفة في فندق حينما أصبح هو معلماً. هي الآن في حدود الخمسين، وهو يقترب من الثلاثين. يحمل معه دائماً صورة لها في عزّ شبابها. يعتقد أن كل من هو في عمرها قد يعرف مهنة شبابها: الرجال والنساء. سألته امرأة في الحيّ عنها فهاج:

- لماذا تسألين عنها؟ من أين تعرفينها؟ أهي من عائلتك؟

لم يعد يجرؤ أحد أن يسأله عنها: الرجال أفظع. أخرج صورة أمه ومدّها لي:

- هل تعرفها؟

نظرت إليها وإليه:

- لا.

- ألم ترها قطّ؟

- أبداً.

أعدتها له:

- من هي؟

قال باضطراب:

- أنا نفسي لا أعرفها. لا أدري من وضعها في أحد كتبي.

عبثاً حاول أن يبعد أمه عن طنجة ليعيشا في إحدى المدن الشمالية: أصيلة، العرائش، القصر الكبير، تطوان، الشاون. أينما شاءت، لكن أمه تصرّ على العيش والموت حيث ولدت.

هذا المساء زارني على غير عادة هدوئه. حتى الموسيقى التي يحبها لم أحسّ أنه يتمتع بها. أقلقني معه. تمنيت أني لم أعرفه. حدست أن شيئاً غير عادي سيحدث. كنت أقرأ رواية العطر لباتريك سوسكيند في ترجمتها الاسبانية. أخرج قاسم، بكل هدوء، خنجراً مطوياً تطابقت طقطقاته مع خفقات قلبي وهو يفتحه سنّاً بعد سن. ماذا يريد بي؟ تخويفي لكي يتلذّذ؟ جريمة مجنونة عن يأس؟ لكن لماذا أنا بالذات؟ ليس بيننا أية خصومة. لا أعرف عن أمه أكثر مما سمعته عنها. أنا في نفس عمرها. هذا كل شيء. لم أفهم شيئاً. ليس هناك مبرر لكي يعتدي عليّ.

أسطوانة لاباتيتيك تدور وهو يلامس بهدوء، ومهل، أظافره بشفرة الخنجر. نهضت دون أن ألتفت إليه حاملاً من المطبخ الخشبة التي أقطع عليها اللحم ومقدّة ثم فتحت الثلاجة وأخرجت منها فخذ خروف. وضعت الخشبة فوق الطاولة وبدأت أقدّ الفخذ بالمقدة بنفس الهدوء العصبي، المتلاعب الذي يلامس به حدّ الخنجر أظافره. كلانا كان يمثل في تحدٍّ: مزيج من السخرية المرعبة. أبداً لم يسبق لي أن مررت بمثل هذه التجربة المجنونة! صرت مجنوناً مثله. أتمنى أن يحدث شيء عنيف يغيّر حياتي. اشتقت إلى ذلك. أريد أن أختبر نفسي. إما هو وإما أنا. أتوقف لأدخن سيجارتي الموضوعة في شق المنفضة ثم أعود إلى قدّ الفخذ. ذات لحظة فكرت أن أهوي بالمقدة على رأسه وأقدّه مثل هذا الفخذ وينتهي هذا الاستفزاز المجنون. يتابع حركاتي ساهياً، وبنفس السكينة المتلاعبة، التمثيلية، التي أخرج بها خنجره المسنون طواه وأعاده إلى جيبه. غمست أصبعي في شق اللحم ومصصته بلذة. غادرني في صمت دون أن نتوادع. في منتصف الدرج التفت إليّ وابتسم بعصبية ثم قهقه ونزل. أنا أيضاً قهقهت.

في تلك الليلة صرخت أمه واستغاثت أكثر من العادة. ثيابها ممزقة ووجهها مخموش. تبكي ولا تريد أن تحكي شيئاً واضحاً عما حدث. آخر جارة غادرتها سمعتها تقول:

- لن أراه أبداً. لقد خرج من بطني، هذا أكيد، لكنه شيطان.

بعد حوالي سنتين، كنت عائداً من الرباط إلى طنجة. توقفت الحافلة في محطة العرائش. نزلت لأشرب شيئاً. إنه قاسم: حافٍ،

ملتح. وسخ إلى حدّ التقزز. يجمع عقباً من هنـا وعقباً من هنـاك. واحد في فمه مشتعل، في يده اليسرى كتاب ممزق. ألغيت مشروبي وذهبت لأشتري له السجـائر. لم أتـأخر، لكنـه اختفى. بحثت عنه في كل المحطة. سألت عنه خادم المقهى.

- إنه ينام في المقبرة النصرانية القديمة. يسمونه الفيلسوف.

سمعت زمارة الحافلة تعلن الاقلاع فركبت.

مـايوركـا

لم أعـرف أن لطيفـو لوطي حتى هـذا المسـاء. ربمـا لم يكن فخّـاً مقصـوداً! كان صحبـة شاب أمـرد. نشرب في مقهى روكسي. هنا عرفته منـذ شهور. لم أدر كم مضى من الأيـام وأنا أشرب بـإفراط! ذاكرتي هذيانية، مُشَـوَّشة، غـائمة، هـاترة. اقـترح عليّ لـطيفو أن نشرب في صـومعتي: وافقت بهـزّة من رأسي. أكـاد أنهار، لكنني أكابد. حدستُ أن شيئاً مـا مبهم ينتظرني هـذه الليلة. غاب وعـاد حاملاً زجاجة نبيذ وزجاجات بيرة. بدأنا، في شقتي، نحتفـل بمزج النبيذ بالبيرة. باس لطيفو معشوقه. مازحه. استنشى المعشـوق دون أن يبالي بي. نظر إليّ بإغراء. مُستعدّ أن يُشاع. أَسرّ لي لـطيفو أنـه مَشروك بيننـا. رفضت. ذهبت إلى المـطبـخ ووضعت سكينـاً في جيبي. فتـح لـطيفـو البـاب. كـان جـون لينـون يغني Imagine . قفزت وأمسكته من ذراعه.

- ستترك الراديو- الكاسيت في مكانه.

الأمـرد انسلّ مثـل قطّ استشعـر الخـطر. غَلقتُ البـاب. دفعني فتلقتني الثلاجة. أشهـرت السكين. أطلقَ الـراديو- الكـاسيت من

يده وجرى نحو الشرفة. أتاحت له مساحتها الكبيرة المراوغة بين الغسيل. تَلقى الطعنة بِجُماع قبضة يده. يبدو أني سددت السكين إلى بطنه. رحت أخبط عشوائياً بجنون. لم أكن أنا. كان الوحش القابع في كل إنسان هو الذي يطعن. بدأ يعوي. فكرت في الجيران فتوقفت. أتحت له المجال لكي يخرج. ركلته وأغلقت الباب. تمشيت بين الغرفتين والشرفة بجنون مسرحي خابطاً الهواء بالسكين كيما أسكن الوحش الموقظ، الهائج، الجائع والعطشان. رميت السكين من الشرفة إلى الشارع. قد أطعن بها نفسي في مثل هذا الانحطاط العصبي والجسدي. نمت بكامل ثيابي منخرطاً في نوبة من البكاء الهستيري. حلمت برؤوس تُقطع وعروقها تفور ثم تنشف، وبطون تُبْقَر، وعيون تُسْمَل.

في الصباح أفاقني دقّ على الباب. كانت لطخات دم على الجدران. كنت كليّ أرعش وأنا أفتح الباب. إنه عبد المالك، صاحب العمارة. لم يحاورني عما حدث. استسلمت له. غمغمت:

- خذني إلى تطوان. مستشفى مايوركا. الدكتور الجعيدي. أعرفه. سأكون مطمئناً عنده.

أفقت حوالي الثانية صباحاً في حجرة مع مريضين. عزلة اشتقت إليها. بعيداً عمن أعرفهم ومن لا أعرفهم. أفٍّ للقرفِ البَشري. دخنت سيجارتين. استيقظ النائم عن يساري. أعطيته سيجارة. دخنها بلذة. تحدثنا عن النوم وعدد ساعاته اللازمة للإنسان، لكننا اتفقنا على أن النوم في المستشفيات، وفي السجون، ليس مثل النوم في بيوتنا. الهدوء شامل في المستشفى كله. فجأة ظهرت امرأة

تَتَمَشَّى في الممرّ جيئةً وذهاباً. حدجتنا بنظرة كئيبة. ربما هي تكافح أرقها إذا لم تكن قد تناولت القرص المُنَوِّم. نفسيتي هادئة. امرأة أخرى تستيقظ وتفتح الراديو. قال لي جاري العمراني:

- إنهم ذبحوا لها ابنها في فاس بعد أن اغتصبوه. عمره اثنتا عشرة سنة.

في الصباح، توافد على حجرتنا كثير من المرضى، رجالاً ونساء. كانوا يتناوبون في المجيء. إنهم يشمون المريض الجديد. ترك لي عبد المالك حفنة من النقود. مريضة تغري بجمالها وغنجها. طلبت أعزّ شيء في المستشفى: سيجارة. لم يسعفها الانتحار. ابتلعت كمية من الأقراص المنومة، ومضغت الزجاج. ذكرتني بالمزميزي في مستشفى بني مكادة. أسجل هذه المذكرات في أي وقت. إنها الخامسة صباحاً. عندي امتياز للخروج من المستشفى. لا أخرج إلاّ لشراء حاجياتي. إن الوجوه في الخارج تبدو لي بليدة، مزعجة، أما هنا فهي وجوه أذكاها الشقاء، والقلق الدائم. خبز المستشفى له طعمه الخاص. إن المجانين يفتحون لي أبواب الإلهام لأطلّ على العالم. كلما نظرت إلى مجنون رأيت فيه شعلة الذكاء خابية عمرها عمر البشرية نفسها. هنا يتجلّى منتهى شقاء الإنسان. أسمع صرخات غلام يبكي:

- ما ما، خذيني إلى مرتيل. مرتيل، مرتيل!

لأول مرة يكلمني عبد الحكيم. كنا نفطر. قال لي:

- من جاءنا فهو أخونا، ومن لم يجيء فهو أخونا الحقيقي. أعطني سيجارة. لقد حلّت في روحي روح المهدي ابن تومرت.

- أنت المسعود.

- عندي لك طلب.

- ما هو يا حكيم؟ (هكذا صرت أناديه).

- أريد جلباباً أبيض لأحكم بالعدل. إن هذا الخاتم الذي تراه أعارني إيّاه سليمان الحكيم، وأمرني أن أحكم به.

- لكن رجال العدالة اليوم يحكمون بلباس أسود.

- هؤلاء لم تصلهم بعد دعوة البياض، أما أنا فقد وصلتني قبلهم. البياض البياض... !

قال نجيب:

- أما أنا فأشتهي ما يؤكل أكثر مما أرغب في أكله. لا أريد أن أكون وردة أو غصناً يابساً لِيُحرق، إنّما أريد أن أصير حبة رمل. إن حبات الرمل أكثر شبهاً ببعضها من الزهور والأغصان.

دخل حجرتنا أحد المرضى وقال:

- إن المطر يسقط علينا مثل الحجر.

أحد المرضى سقط من يده كرتون حليب فانفجر. ركل الكرتون ومضى. قام آخر فاتجه إليه وراح يَرْشِفُه مع الوحل. قال ميلود:

- لقد خرجت من بلادي حافياً، ووصلت إلى بلد غريب حافياً، ما جدوى ما في الطريق إذن؟ قابلت حفاة وغرباء مثلي. طريقنا كانت مختلفة، لكن منفانا كان واحداً. إنهم لا يستعملون الحطب. انهم دائماً يقفلون حتى نوافذهم. لكل باب عين في وسطها هي مثل عين سمكة ميتة. من يستطيع أن يدق على

أبـوابهم! آه من الغـربـة في المـدن! أملنـا إذن في أكـواخ الجبـال والبراري. هناك يجد دائماً الغريب ملجأ له.

سلفت لثريا نهاراً درهمـاً. ومن عادتهـا أن تستيقظ في تمام الثـالثة صباحاً. وسـواسها هـو أن تنظّف الممرّ والحجرات في جنـاحنا. لا أحـد يستطيع أن يمنعها. تـوقظني كـل ليلة لتردّ لي الـدرهم الـذي تـأخذه مني نهاراً. ذات ليلة انـزعجتُ من هـذا الإيقـاظ فـأخـذت تبكي وهي تردد:

- أنا مثل أختك، لكنك لا تحبني!

عبثاً حاولت أن أقنعهـا أنني لا أريد أن تـوقظني وقت تنـظيفها. كانت تدخن سيجـارتها متـأملة، جالسـة على الأرض. نـدمت على عتـابي لها، لكنهـا استمرت تستلف مني الـدرهم كل يـوم في النهـار لتردّه لي في الثالثة صباحاً. أعتقد أنه نفس درهمي. انطح الجـدار، إذا شئت، إنها ثـريـا المـنظفـة الليليـة دون أن يكلفهـا أحــد بهـذا الـوسواس. تحـاور نفسها. تـدمـدم. لا تـرابط في كـلامهـا في ليلة سألتها:

- من لا ينام الآن في الحجرات الأخرى؟
- كلهم ينامون. الجِنُّ هم الذين لا ينامون.

يُؤَمِّنُ عندي، أخو الباهي، ثلاث أو أربع علب سجائـر لأخيه. يستهلكها له المرضى في يوم واحد إذا هو أعطاها له. أعطيه أربع أو خمس سجـائر مـرتين في اليـوم. يدخنهـا على التـوالي دون تـوقف. يعـدني، كلما رأيته أنـه سَيُـورِثُني بَغلة، ونقـوداً من العُملة الحَسنية مـطمورة تحت شجـرة تـين. الـزمن الـذي يتكلّم عنه هـو بـداية

الثلاثينات. أكله المفضل هو البيض المقلي. عندما يأتي به أخوه يعزف عن أكل المستشفى. غالباً ما يؤاكله، هذه الوجبة، الودراسي. كلاهما أُزْمَنَ هنا. يتحدثان عن أشياء مشتركة بينهما. إنهما بَدَويان. يحتدّ حِوارهما كُلّما اجتمعا. كانا يأكلان وأنا قربهما. فجأة أصبعه الودراسي في عينه اليسرى. الدم يسيل من الخَدَش تحت العين، لكن حديثهما استمرّ. ناديت الممرض في الدَّوَام. عالجه وهما مستمران في أكلهما، وحديثهما. لا عتاب بينهما. ولم يقل الممرض شيئاً لأحدهما. عندما انتهيا من الأكل باس الودراسي رأس الباهي وانصرف شاكراً. أعطيت للباهي ثلاث سجائر وتركته يتلذّذ بتدخينه، وتأمله. إنه يشعل الواحدة بالأخرى حتى تنتهي.

جاءني عبد المالك بالجلباب الأبيض من طنجة. اشتريت لحكيم صابونة ليغتسل. راح يزهو بِحُلّته الجديدة في جناحنا، ثم ذهب إلى الجناح الثاني، لكنه عندما أراد أن يدخل الجناح الثالث، جناح الخرائين في ثيابهم، كما يسمونهم، منعه حارسهم البوعناني. كان حكيم قد تعلّم شيئاً من الكراتي. البوعناني قَوي. جسمه دُبيّ، لكن لكماته يخبطها في الهواء أمام حكيم. جلبابه ممزق، مُلَطّخ بالدم. سألته:

- كيف تركته يمزق لك الجلباب؟

- ولكن وجهه ممزق أكثر من جلبابي. (امشِ شوفْ الوجه اديماه).

- والآن ماذا ستفعل بالجلباب؟ إنك لا تستطيع أن تحكم به حتى وإن رقعته. لن يكون حكمك عادِلاً.

- أعطني ثمن خيط وإبرة. سأؤَجِّل مُهمتي لِلحُكم، وكذلك الزيارة التي كنت أنتظرها.
- زيارة من؟
- من كان سَيُنصبني للحكم.

طلبت مني أيضاً ثريا الدرهم المعهود. المساء يقترب. إنها ستنام الآن لتوقظني، كالعادة، في ساعة تنظيفها، والدرهم في يدها. أمطار خفيفة، والجو غائم، ومريض يغني:

- الليل ليلنا، أينك يا ليل؟

قضيت يومين مع أسرتي. الصمت الصحراوي ما زال قائماً بيني وبين أبي. إرضاءً لأمِيّ، كالعادة، بستُ له رأسه دون أن نتكلّم. الشقاء الذي نلته منه في طفولتي يناله مني في شيخوخته. لا مُصالحة بيننا إلى الأبد. أردت أن ألقي نظرة على دروب طفولتي. تذكرت بوعَصا وعربدته السكرية في جبته البيضاء في العيون، وازْرَعْ كُونْ، والمجذوب السي المُفَضّل، وآخرين أنساني اغترابي حتى أسماءهم. كوميرومات، وبطاطِي هو الباقي الوحيد من بين رفقاء طفولتي. عند مدخل باب النوادر فاجأني المَشهد: إنه حكيم. يلوح بعَصا في يده وخلفه جماعة من الأطفال. لقد هَرَب إذن! رآني فأوقف فِرقته. سألته:

- إلى أين يا حكيم؟
- إلى المستشفى إن شاء الله.
- وهؤلاء الأطفال؟
- إنهم أنصاري.

- ماذا تنوي أن تفعل معهم؟

- سنحرر اخوتنا هناك.

- وأين السلاح؟

- الحجارة. سنحارب الجديد بما هو قديم. تعال معنا.

- أنا عائد إلى طنجة لأحرر مثلك اخوتنا هناك.

- بَلِّغ لهم سلامي.

دسست لـه عشرين درهماً في يـده فعـانقني داعيـاً لي بـالـبَركـة. استأنف مسيرته وفرقته تتبعه.

موت الأمّ

بـين أعمى ومبصر، حقيقـة الشيء يختلف معنـاهـا في لَمْسِهِـما وإنصاتِهما. هذا ما يقوله، عادة، المبصرون. ماذا عسى يقـوله الابن عن مـوت أمه؟ لا شيء من كـل شيء. أَمِنَ القطرة نعـرف البحر؟ ومن حبة الرمـل نعرف الصحـراء؟ وهل الـورقة الـوحشية الخضراء هي كل الغابة؟ هذا مثل من يحلم بالسفر ولا يسافر؟ إنه يتوالد ولا ينتظر موسم اللقاح. أما أنا فلا طموح لي في يمين الأصفـار، وذرية الأجيال. إن الكلمات تَبلبلت، والوحي اللغـوي مات قـديسوه. لم يبق لنا إلّا كفاح أهرامات ذكائنا تنبعث خلاياها السابتة لتنقذنـا من ركودنا في الأوان المنـاسب. عاش الأحيـاء قدر مـا يموت الأحيـاء ـ الأموات! رنين الجرس متواصل مصحوباً بدقات على البـاب. عنيد هو من يدق. أهو مجرد ازعاج ليلي أم اعتـداء صريح؟ من يـدري! إنـك، غـالبـاً، لا تخلق أعـداءك، إنمـا يخلقـون أنفسهم فيـك، أو يخلقونهم فيك. هناك دائماً متطوعون. إنه وسواس. لا أكـثر من أن تكون، في مثل هذه الساعـة الفجريـة، إحداهن. ليست هـذه هي المـرة الأولى، لكن ليس بهذا العنف والإلحـاح. آخـر مـرة جـاءت حمقـاء مُسالِمة تطلب سجـائر في آخـر الليل. إنها تمجـد الحشيش،

والنسيان، لا من كان أو من سيكون. الجرس والدق متواصلان. لم يحدث، من قبل، مثل هذا الاستعجال. ما زلت ثَمِلاً. شهر يونيو. الصيف لم يعد له وجود في حياتي. عَفِن. زمن إشراقه كان في شبابي. ربما أنا الذي عَفِنْت. يقلّ فيه طعامي ونومي. ما كنت أكذّبه أصدقه اليوم. متى يكون المِكْذَبان صادقاً؟ والنّكبات التي تُولد الطاقات؟ والخراب الشامل الذي يعيد بناء المدن؟ إنها المصائب التي تخلق الجمال! هذا ما يقوله علماء العمران. المرأة التي تتعرّى، نموذجاً لا تثير شهوة الرسام: لأن الفن يبتلعها. الزمن لا ينتظر الكُسحان. لا يتطابق العيش وفهمه في آن. ربما أجمل العيش وَهْمُه. لسان البحر يلعق قدمي. أبلل ابطي، وأنظر إلى الأفق، وإلى السماء، وإلى الرمل ثم إلى أقصى الزرقة المغرية بالمغامرة المُميتة. كدت أغرق ثلاث مرات كلما بَجَّحت نفسي فيه. مرة أنقذني بن بوكر صحبة صديقه فلوريس(*) في شاطىء مَرْتيل. اليوم أرشّ رأسي بحفنة أو حفنتين. لم أعد أنخدع بانجذاب فيروزيته ولازورديته الأصيلية. أبداً لا. الرنين والدقّ تَوْأمان. حمقاء أخرى. فلتنتظر! أهو أنا دائماً ملجأ آخِرِ كأس، وفراشٍ لآخِرِ الزُّناة؟ كان هناك غطّاس يقول لي: استَهْبِل في خيالك عندما لا يأتي في أوانه. الغائب لغيرك، وقرابة نفسك أَوْلَى من البعيد المنتظر. الدقّ الآن جنون! أستقبل، تِباعاً، ضيوفاً لا بحر في مدنهم. مدينتي ليست لهم إلّا الشوارع ـ الإرشاد، والمقاهي والحانات ـ اللقاء، والملاهي والفنادق ـ المواخير. هذه هي كل مدينتي لهم. ليست لهم إلّا الفرج

(*) ملاكمان عاشا في تطوان أواخر الأربعينات.

أمامهم، والأست وراءهم، وليس لهم إلاّ النصر العزيز. لقد أَسْطَروها وما زالوا يَتساءلون عن مُنْشِئها. الشراب، مع ضيوفي، خرافي. أهزل وأهزل - كلما جاءوا - حتى الإنهاك، والإغماء، والهَذيان، حتى ماتت أمي في غيابي.

مشيت حافياً. كشف لي، ضابط الرؤية، عن ضباب شبح.

- من أنت؟

لا كهرباء. إنهم يحافظون على الطاقة منذ سنوات. الرنين والدقّ معاً. مجنونة. لا بد أنْ تكون قد تقيأها آخر ملهى في حالة إفلاس قاهر. قال لي مسرحي: «لقد كسبت صداقة النساء أكثر من صداقة الرجال». أنا لست كاسباً إلاّ صداقتي مع نفسي.

- افتح، أنا العاقل.

إنه هو إذن. زوج أختي. ما حدث لا بدّ أن يكون مصيبة حتى يجيء في هذه الساعة.

- أمك ماتت.

بصوت مبحوح ثمل:

- ماتت، إذن.

- نعم. البس بسرعة.

أصب الماء على رأسي مُقاوِماً تَرَنُّحي. هذه هي مساوىء ضيوفي الذين يشربون أكثر مني حتى الانحطاط الجسدي والمعنوي. إنهم جِمالٌ تَرِد. قلما ينتهي سكرهم دون نحس: يكفي خلافهم في معنى

بيت شعر. هم يعودون إلى مدنهم ليستريحوا، وأنا أبقى هنا دولابهم. كذلك فعلوا مع سكوت فتجرالد، وجاك كرواك حتى قتلوهما بالأنخاب. محكوم بماضيّ معهم، لكن ينبغي أن أحسم في قول لا لصحبتهم. لقد بنى هنري ثورو كوخاً في أحراج وايلدنْ وراح يكتب عن النمل، وروائح الغابات، محتقراً هواء المكاتب الفاسد. إن رائحة الروث، في الحظائر، لَهِيَ أزكى من روائح أفخم الخمارات. الخامسة صباحاً. سيارته متينة وجديدة. سرعته بالغة، لكنه ليس طائشاً في سياقته. من عادتي، ألا أقول لمن يسرع أبطىء. إنه قد يتمادى في السرعة: تبجحاً أو عِناداً، بل قد أشجعه على التمادي فيها بحماس وانشراح رغم أني حريص على حياتي المهددة بهذه المجانية. لكن هؤلاء لا تخشى على نفسك معهم: فهم غالباً ما يخفون جبنهم في سرعة قد تدوم لحظة أو لحظات ثم يَرزنون شاحبين، خائفين. طبعاً هناك مجانين السرعة الحقيقيون مثل جيمس دين الأصيل في جنون.

- متى ماتت؟

- منذ ساعات في المستشفى المدني. مضى يومان وهي في غيبوبة.

لم أرها منذ أكثر من سنة. شغّلت المسجلة ورجوتها أن تغني لي بالريفية. انحرجت قليلاً باسمة ثم غنت. الكلمات من خلق مرح الطفولة والحطب والحصاد، لكن صوتها حزين. لقد أضعفتها شيخوختها المهمومة. الاغتراب بَرَّد حنيني إليها. لا شك أنها فكرت، كعادتها، في بعدي عنها. إني شاطر الأسرة الوحيد. إنها ميتة ـ حية: أيقظني حنيني إليها ذات صباح صيفي. خواء في

الروح. انحطاط صحي. لم أتذكرها ميتة إلّا وأنا في محطة السفر. لا تقهرني العزلة إلّا أيام المرض. الثالثة صباحاً. غالبت انحطاطي حتى وقفت. مترنحاً وصلت إلى الباب. وضعت الفرجون (فرشاة الملابس) في فرجة الباب حتى لا ينغلق. قد لا أستطيع النهوض مرة أخرى. سأحبو أو أزحف إذا تفاقم مرضي. أغفو وأصحو. ربما ما بينهما هو الأجمل. كل ما أتذكره في وضوح هو أقل جمالاً. ليس عبثاً أن تتغذى السمكة الساحرة من سمكة ميتة. النور الشفقي يبزغ. منذ سنوات لم أر فيها مثل هذا المطلع. هيكل سيارة مهشم، صدىء، قرب شجرة هي كلها جذعها اليابس. بقايا كلب في الطريق، طيور تحلق، أخرى جاثمة على الأسلاك الكهربائية لم أزر سبتة منذ تزوجت فيها ارحيمو في حيّ البرينسيبي. أكثر من عشر سنوات مضت. من تقاليد قبيلة زوج أختي أن يحمل أخو العروس الأكبر أخته بين ذراعيه من الهودج إلى صحن الدار. وجدني عبد العزيز في حانة شعبية مع عجوزين اسبانيين عاش أحدهما زمناً طويلاً في طنجة. غادرها بعد الاستقلال. يتذكّر فيها يهوديات من أوروبا الشرقية أيام النازية، نُقْلَ العصافير الدورية والزرازير، والسردين المشوي بالبصل في الخمارات الخلفية، ونبيذ البراميل، والصناديق ـ المقاعد، وكل ثلاثة كؤوس نوبة الدار ثم دائماً هناك أكثر من زبون يتطوع للغناء. كدت أسقط وأنا أحملها. شطر العروسان خبزة الدار الكبيرة، المدورة، خُبِزَت لهذه الزفة. نثروا عليهما الملح. رشفتان من الحليب وحبتا تمر. وضعوا مفتاحاً كبيراً في يدها. نساء من عائلة العريس يتخاطفن المناديل المزركشة التي زُيِّنَ بها الهودج. كذلك فعلن بالدبابيس التي تشدُّ المناديل. هذا

يبطل السحر كما قيل لي. السلطان للعريس وأهله. أهل العروس شاهدون وشبه خدم. شكّلَ العريس قوساً بذراعيه في إطار باب الحجرة. مرت العروس تحت ذراعيه المقوسة منحنية الرأس، ومررت أنا بين فتيات يتصورن مع العروس لأعود إلى حانة العجوزين الاسبانيين.

- بماذا ماتت؟

- بنزيف أنفي. لم يتوقف خلال أسبوعين.

اصطدم عصفور بِمُقَدِّمِ السيّارة. ربما لم يلتقط بعد حبته الأولى التي حلم بها. راع يقود قطيعه الصغير وخلفه كلبه الهزيل. امرأة تحلب بقرة. دجاجات وكتاكيت. طفل مُقعًى ينكت الأرض بقصبة. نتخطى راكب دراجة بائساً. يُدَوِّس بعناء. دراجته قديمة. العرق اليومي يبدأ. مباهج الصباح تنبثق. تهبّ ساطعة. أُغالب غفوتي. بيرة باردة. هذا ما أحتاجه الآن. تَلْفَنَت لي مليكة من تطوان راجية مني مساعدتها بمائة درهم لترميم ضرس يُؤَرِّقُها. أخبرتني بموت الأب.

- متى مات؟

- منذ شهور.

- لماذا لم تخبروني يوم موته؟

- لأننا نعرف أنك لم تكن تحبه أبداً.

- والجيران ماذا سيقولون عني!

- هم أيضاً يعرفون أنكما كنتما دائماً تتباغضان.

كذلك فعلوا معي عندما ماتت خالتي فلم أعد أهتم بمن يحيا

منهم ومن يموت. إنهم لا يخبرونني إلّا بأعراسهم. لا بد أن أمي هي التي طلبت حضوري. حتى في أيام مرضها وغيبوبتها لم يخبروني.

جيفة حمار في طرف حقل القمح. الأشجار كأنها تُسابقنا ونحن نتخطاها. يدا صهري ثابتتان على المقود. لا يدخن ولا يشرب. أنا غالباً ما أمسك كأسي الأولى بيديّ المرتجفتين إذا لم أكن قد أُسْبَتُّ في نومي. أشعلت سيجارة. في النّشقة الأولى دخت، وفي المَجّة الثانية أخرجت رأسي من النافذة لأتقيأ الهواء، وتدمع عيناي، وتَمْغَصَ أمعائي. نظر إليّ بطرف خفيّ. إنه لا يقترب منك ليشمّ رائحتك. قال لي أخي عبد العزيز: «لقد بنينا قبراً جميلاً لأبينا. لا بدّ لك من أن تزوره». اخوتنا، الذين ماتوا أيام المجاعة، والبؤس، محت الرياح والأمطار قبورهم المسطحة. طوبى لنا اليوم لأننا بتنا نستطيع أن نبني قبوراً جميلة لمن يموت من أسرتنا. هكذا قلت له فانبهرت نظراته. رغم نحيب أختيّ، ارحيمو ومليكة، وبكاء امرأتين مُهَرِّبَتين، شاختا صداقةً مع أمي في تطوان، فقد غلبتني غفوة. أفقت عندما صار البكاء نُوَاحاً. ماء الورد يعبق في حجرة الموت، حيث غسلوها. موكب الدفن يبدأ نحو مقبرة سيدي مبارك. موت الغربة. حوالي عشرين مُشَيِّعاً. لا أعرف أحداً. في الطريق انضاف آخرون إلى الموكب. لم تتسع في الحفرة. أخرجوها مرتين فصاح رجل ملتح:

ـ يا عباد الله، ارحموا المرأة! احفروا لها قبرها الذي تستحقه! لا تعذبوها!

حفر اللّحاد حوافي الجدث للمرة الثالثة. تمنيت لو قطعتُ يديه وسملتُ عينيه. حتى عند الموت يُضَيّقون الأرض. ماء الورد يُرَشّ على الكفن. صلاة العصر. خبز وتين يوزعان على الحاضرين. لم يكن هناك فقراء الخبز. دجاج محشو بالرزّ. شراهة الأكل، حماس النقاش، بين ارحيمو ومليكة، حول بيع دارنا في تطوان. زوجاهما صامتان في حياد. بنيناها بالتعبئة الجيرانية، بحجارة الجرف القريب من الحيّ. الأطفال، والنساء، والعاطلون كلهم شاركوا في بناء هذه الدار. أمنا أوصت دائماً ألا تباع إلاّ إذا أرغمتنا الظروف، ولم يكن أحدنا مقهوراً بِخَصاص. أخي كنت قدوته بصمتي. أقنعتهم بعدم شاهيتي، لكن النقاش معي، حول بيع الدار، لن أعرف كيف أتخلص منه، عندما ينتهون من المضغ ويوضع الشاي. غزاني غثيان تَلَتْهُ دوخة. طوال اليوم دخنت حتى تَخَشَّب فمي. لم أشرب غير القهوة. زعمت أني سأخرج لشراء السجائر. نصحتني ارحيمو بالتقليل من التدخين:

– عبد العزيز سيخرج ويشتريها لك إن كنت لا تستطيع أن تصبر حتى الغد.

وقفت وألححت في الخروج. أحسوا بانزعاجي. نسيباي لا يتفوهان بشيء. موت أمنا ومزاد دارنا في نفس اليوم. لم أستمرَّ (من المَرارة) يوماً من حياتي كما استمررتُ هذا اليوم. بموت أمي تموت كل أسرتي. أكدت لي على عودتي فوراً لأني لا أعرف ليل سبتة. إنها لا تعرف أني قد آخيت ليلي مع أيّ ليل. إنه دائماً ينير لي درباً للنجاة. إنه يعرف أصحابه في أيّ مكان: باريبس، باريو شينو في برشيلونة، حيّ كارْمِنْ في بَلِنسة وباب مراكش في الدار البيضاء.

في تلك اللحظة تمنيت لو أكون في مكان لا تعكـر صمته حتى قـطرة الرطوبة في كهف. لا أذكر الحانات التي دخلتها. لقد غام كل شيء في الحـانة الثـانية أو الثـالثة. كيف غـادرت المدينـة؟ أصبحت نائـماً بكامل ثيابي في شقتي. عبثاً حاولت، عبر سنـوات، أن أتذكـر كيف وصلت إلى طنجـة. فرد حـذائي مـلآنـة بـالبـول قـدام سريـري، والأخرى فوق طبليـة الليل يفـوح منها النبيـذ. أعرف شخصـاً بال وهو سكران على ابنته في مهـدها الـذي حسبه مِرْحَضة. أنـا لم أبل سـوى عـلى نفسي. يـوم بعنـا الـدار، واقتسمنـا، حسب الشريعـة الإسلامية، أخذت أختاي تتباكيان في صمت أمام العادِلَيْنِ في دارنا التي كنا نودعها لآخر مرة. سألت جارنا عمَّا يبكيانِهما فقال:

ـ عَلاَم يمكن أن تبكيا؟ على ذكر الوالدين!

أخـذت ألف درهم من قسمتي على الـطيفور، ومثلهـا من قسمة أخي، وأعطيت لكل واحدة ألفاً فَجَفَّت دموعهما. همست لجارنا:

ـ إنها مسرحية أشخاصها مهرجون، منافقون.

غادرت تطوان شاعراً أن حَبلنا السُّريّ قد انقطع، وأنَّ جذوري من شجرة عائلتي قد تَعَفنت إلى الأبد.

عشق ما لا يمكن أن يكون

ليست هذه هي المرة الأولى التي تجيء فيها سالية إلى طنجة من مدينتها الصغيرة. تجيء زائرة، لكنها، هذه المرة، تريد أن تقيم. طنجة الحلم، طنجة العارية، الرّنانة، الشفّافة مثل كأسٍ من البلور، طنجة الأسطورة، والجبل لكلّ صوت، لكن ساليةَ لا تعرف أن طنجة تسحق من لا يعرف كيف يشرب خمرها المسحور. إنها مثل كيركا الساحرة(*). عرفتُ من جاءها ليكتب الشعر فلم يتعلم حتى لغة الحانات، ومن جاء ليرسم فلم يعرف حتى كيف يمزج الألوان.

جاءت سالية، هذه المرة، من مدينتها لتخسر كل شيء من أجل أن تكسب كل شيء. إنها تُراهِن بأسفلها على أعلاها الهَشّ.

(*) هي الساحرة كيركا أو سيرسا، ملكة جزيرة أيايا ذات الضفائر الشقراء، بنت هليوس، رب الشمس، من برسا، بنت أوقيانوس، رب البحر. تسحر البشر والحيوانات بشرابها المسحور، وعصاها السحرية، حيث أحالت رفاق عوليس إلى قطيع من الخنازير، ونجا عوليس من سحرها لأن الربّ هيرميز سلّحه بعشب الفضيلة الذي يسميه هوميروس، في الأديسا، «مولي»، لأنه يبطل مفعول شرابها المسحور ـ الساحر.

حضورُها، في الشراب، والحشيش، هَوَسيّ. ومِثل الفُطر الذي يتكاثر ولا ينمو جعلت الرجال يختصمون من أجل صحبتها. فُطْرٌ مسموم لمن يعشقها. تعشق كل الرجال ولا تريد أحدهم. كم تظاهرت، لتهيج المرتخين جنسياً، أنها تُغْتَصَب! إنها ابنة شرف (شاعر مدينتها شاهد). لكنها لعنة عائلتها. تركت جسدها يغتصبه باكراً المراهقون، والحشاشون، والسكارى، من مدينتِها وغير مدينتها. يدها ترعش إذا هي مدَّتْها إلى الكأس ويتساقط رماد سيجارتها دون أن تنفضه. قالت لصديقتها كارولينا: «لقد خانني كل من وعدني».

يئست من الحب والزواج فتعلمت كيف تجعل الرجال يتشاجرون من أجلها. كتبت في مذكراتها بِخطّها العصبي، الرديء: «أنت تعترض طريقي في كل مكان، لكن، أنا، لا طريق لي. إنك تخيفني مثل وحش أسطوري. أنا أبحث عن حلم ولا أرى فيك أيّ إيحاء. إنك تريدني، لكني أريد نفسي بنفس القوة التي تزعم أنّك تريدني بها».

صديقتي بالوما هي أيضاً توزع وقتها بين الحشيش، والسكر، وكتابة خواطرها: «إنني لا أفهم نفسي فأكتب مثل مجنونة. السعادة، تبدو لي، مثل ضفدعة ذات قُبَّعة من ريش الطاووس. الحب يخيفني. أنا ملاكٌ جناحاهُ أسودان. إنه قلب من دون عين. لا أريد أن أسافر على حافة الهاوية. لم يعد الحب همّاً، صار مثل حوت ميت، في الصيف، على أحد الشواطىء المهجورة».

بين الكؤوس وفراش الليل النابض يقظة ندم. تعودُ سالية إلى

مدينتها لتعيش نقاء الهواء، لتسترجع، في يقظة حلمها: نزواتها، وشهواتها، ثم طنجة من جديد بمساحيق زينتها.

للحانات مساؤها، ومن محاسنها أن نكون فيها. هكذا تُعَزِّي سالية نفسها، لكن للحانات مزاجها، ولحظاتها وكأسها الأخيرة، وكل واحدة تريد أن تكون كليوباترة حانتها. والكأس المعروضة، إذا لم تحذر، التي قد تقودك إلى وحل تلك الكأس الأخيرة: (عكاز الطريق) كما يقول السكارى الذين يتآزرون في محنتهم أكثر من غيرهم إنهم قد يُشبعون الغرباء ويجيعون الأقرباء. إن وحدتهم قاتلة، لكن عدوانيتهم أكثر من مؤانستهم للسُّكارى مزاجهم: لم أكن أقتات، خلال ثلاثة أيام، إلّا بما يَتَبَقَّى من إفطار زبائن مقهى السي موح. البحر كان هائجاً والميناء مقفراً، من بواخر الحرب والسلع. حدث لي هذا عام ٥٥. كنت زورقياً أحمل من تأخر من البحارة إلى بواخرهم وهم سكارى. الشّرقي (ريح الشرق) عاصف. مررت قدام حان مريا وقت العشاء. ناداني عبد السلام. عرض عليّ كأس نبيذ. طلبت منه خمس بسيطات سلفاً لآكل بها شيئاً ثم أرجع. فهمت من اعتذاره، المتلعثم، أنه لا يملك سوى ثمن شرابه، وكأسٍ أو كأسين لي. فكرت: أَمَعِي أنا؟ أكلتُ النُّقْلَ الذي أُعْطِيَ لي مع كأسي، التي رشفت منها، ونُقْلَ كأسه، ونُقْلَ جاره ثم توالت طلباتُه مُشَجِّعاً إيّايَ على الأكل ومُرَحِّباً بالشّراب كأساً تلو الكأس. بدأ ينهار ويتعتع. قبل أن يغادر طلبت منه مائة بسيطة فأعطانيها دون اعتذار أو تلعثم. لو أني طلبت منه أكثر لما رفض. ندمت.

زارت سالية أستاذها في منزله ليصحح لها ما تدعوه نَصّاً شعرياً.

شَرِبا وتَحشّشا معاً. وعندما رفضت أن تنام معه، حسب قولها، مَزَّق ثيابها، وعضَّها في عُنقها، وكتفَها، عَضّاتٍ خُرافية. سالية تعترف أنه كان أكثر سكراً منها، وهي أكثر تَحَشُّشاً منه، في تلك الليلة. كان هو يعيش قصة حب فاشلة مع تلميذة أخرى يريد الزواج منها، وهي، أيضاً، كانت تعيش صَدمةً عندما تزَوَّج رفيقُها من سواها.

آلها النَّهارُ أم الليل؟

طُردَت من الكلية لأن رائحة صُبحها صارت تَشي برائحة لَيْلها. لا نَعرف إن كانت تُحب الزُّهور أو العطور، أو إن كانت تكرههما معاً.

جاءت سالية إلى طنجة في زمن بارت فيه أجمل العاهرات. أكثرهُنَّ حظاً قد يَتزَوَّجها عاطل، وهي قد تَعمل مُنَظِّفة في أحدِ الفنادق، أو في مَطْبَخِ مَطعم. لم يبقَ إلّا مجدُ الذكريات المهزومة، والجنون الكئيب، والإحباط في السّكر، ولَغو الحانات.

تتقاذف سالي الليالي بين فندق فاخر أو بائس حسب حظِّها أو سُكرها، وجيب الزَّبون. لا يهم من يكون. الليلُ والسكر يخفيان الويل. ومن منزل إلى منزل حتى لم يعد ثَمَنٌ لِسَهراتها سوى تسكين هَوَسِها وقَلَقِها. كل ليلة قد يَعْلِكُها أكثر من واحد، في رفاهٍ أو إفلاس، حتى نِهايةَ حلاوتِها.

لم تعد لسالية رائحة النهار. كل ليل لا نهار له. يقبحها النهار ويجمّلها الليل. لم يعد يهمها إلاّ أن تعيش حتى تعثر على من يهواها

وتهواه، لكن العشق في طنجة ليس من أحلام العذارى. إنها، هنا، فقدت نفسها لتصير مثل الأخريات.

إنه زمن الشعر، وزمن الحلم في طنجة، لكن أين الشعراء، وأين الحالمون؟ إن الهزيمة تمشي في منتهى بؤس عرائها أينما شئت.

كيف عرفت سالية.

كنت الوحيد في قاعة فندق فيللا دوفرانس عندما دخلت. النادل يحدثني عن فرق كرة القدم الوطنية والمحلية. حيث لا يكون في القاعة الصغيرة سوى شخص أو شخصين يلعن المدينين له. طلبت سالية بيرة ثم أشعلت سيجارة بيد مرتجفة. فتحت دفتراً. قرأت سطوراً ثم وضعته فوق الطاولة. النادل لا يكف عن الحكي. غمزني مرتين وهو يخدمها. فهمت منه أنه يمكن الحديث معها. تكتب وتشرب. تشعل سيجارة بسيجارة تدخن بعمق. لا يخرج من فمها إلّا قليل من الدخان الباهت اللون مثل ضباب في الصيف. لا يبدو عليها أنها من «هُنّ». جرأة منها أن تشرب بيرة إذا لم تكن إحداهن. لا شك أنها متحررة. طلبت لها بيرة. تشابكت نظراتها بيني وبين النادل. شكرتني برأسها وبسمة عينيها. وبين كأسينا وسيجارتينا طلبت منها نظراتي أن أجلس معها. وافقت بسمتها خافضة رأسها. الدفتر مفتوح. القلم فوق الصفحة نصف المكتوبة. لم تغلق دفترها عندما جلست بجانبها. هذه جرأة أخرى منها. تبادلنا اسمينا. قالت إنها رأتني في مدينتها مع أستاذها في الصيف الماضي. كُنّا نشرب في القصبة وهي تأكل السردين مع كارولينا. اختلست نظراتي خاطرتها في دفترها. «مع من أذهب

اليـوم؟ أنا حـائرة بـين بقائي وعـودتي. قد تكـون لي كؤوس، هذه الليلة، لكني لن أتوسلها أو أتحسر عليها. إن للشراب كرامته».

في شقتي، انفتحت من حلمتيها عينان منتصبتان. تشرب كأسها كلما ملىء. تكتب في دفترها خواطرها. الفـاعل عنـدها منصـوب، والمفعول مرفوع، في معظم الأحيان. لم يكن عندي معـظم الشعراء الكبـار، لكن عندي من قتلهم حب الشعـر. لم يُغْـرِهـا أيّ واحـد منهم. بَشَرتُها بيضاء، لكنها سميكة ومشدودة، مزروعة بـالزغبيـات المُشْربَة بـالسَّواد. عينـاها بـاسمتان إذا انشرحت، ورمـوشها وارفـة سوداء: أجمل مـا فيها. شفتـاها رقيقتـان وشعرهـا المجعد، قليـلاً، تفـوح منه رائحـة أوراق فصول الخـريف المكـدسـة أول مـا يبللهـا المطر. أحياناً، إذا هي لم تغتسل أياماً، تفوح منها رائحة عنزة تَمُـرّ. رائحـة الشراب والتبـغ دائمـة في أنفـاسهـا. تُشَهِّي هي امـتزجت بعـطرها. نـنـام معاً في الفـراش. وجهها دائـماً إلى الحائط. وعنـدما أتفقـدها أجـدها نـائمة عـلى مضجع قـاعة الجلوس معـانقـة مِخَـدَّة صغيرة. لا بدّ أن أشتري لها دمية قردٍ أو دبّ. إنها نـائمة ـ يقـظة. تشعـل سيجارة بـأخرى. في ليلة دخنت علبـة كاملة. وفي الصبـاح كان مكتوب على دفترها: «حلمت أني أسحق فراشـة فإذا بـه طائـر ينبثق من بـين قدمي. كـان أبي يـطاردني في بستـان فسقط في بئـر. جـاءت أمي عريـانة وصـاحت هنا القـبر! ثم رقصت. أبي يستنجد وأمي يُجَنِّنُها رقصها ابتهاجاً. لقد أعيتها شيخوخة أبي الـواهنة. إنها تحب رجلاً آخر».

سالية تكره شعاع الصباح في طنجة. غالباً ما تلبس ثوبـاً أسود: إنه يلائم بياضها. لست دارياً إذا كانت تعرف جمالها فيه. تحب ليل

الشارع والحانات الصاخبة، ويقلقها ليل الوحدة والسكون. إنها تلعب في خيال الرجال. تغامر من أجل أن تملك أو لا تملك. لم يعد لديها ما تخسره. تتضاءل كل يوم. تتوزع بين من يعرفها ومن لا يعرفها. الأفواه تمصُّها بثمن أو بدونه. في الصباح، قد لا تتذكر إلاّ نبض الفِراش وقَلَّما يُوَدِّعها سيّدُ ليلتها.

جاءت إلى طنجة في غير أوانها. استطار عقلها. أنساها أسفلها أعلاها في ليل طنجة. تعلمت كيف تكذّب نفسها وكيف تصدّقها. لا يكذّبها أحد لأن الذين تنقاد لهم أكذب منها. أليس أن الكذّابين يتآزرون فيما بينهم مثل السُّكارى، ولهم مزاجهم الأقبح من الكذب اللطيف؟

سالية خانها شبابها، وفنُّ العيش. فَرقتنا الأهواء فَصِرنا نَتَرَاءى في الحانات والمراقص نَتَماسُّ ولا نَتَواجَه. كِلانا له هواه، ولست السابق ولا اللاحق في حياتها. وظلَّ عِشقُ ما لا يمكن أن يكون هو الأقوى بيننا.

طنجيس

يَحْكُونَ عَنْكِ: أَنَّ طِينَةَ الْخَلَاصِ مِنْكْ،
وأنَّ نُوحاً فيك قَدْ تَفَيَّأَ الأمانْ،
وأنه حمامةٌ، أو هُدهُدٌ،
وأنّهُ غُـــرابْ.
وَبَيْــنَ مَوْجَتَيْـنْ
تَنَاسَلتْ طَنْجةُ مِلْءَ زَبَدِ البِحَـارْ.

* * *

تَعَاقَبَتْ عَلَى بَكَارَتِـكْ
مَباضِعُ الشَبَـقِ والغُـزاةْ
مناسِكُ الحلـولِ والتّناسُخِ
وَكَـان عيدُ بَاخُـوسَ
يُفَجِّرُ الجنـونَ فِي الأَصْلَابْ،
والهَذَيـان في ثُغَـاءِ الْبَحرْ،
كأنما طروادةُ يَرِثُهـا الحِصـانْ،

كَأَنَّهَـا فِي مَوْتِهَا عَـرُوسْ
أَجَّجَهـا خامـدةً زَيُّوسْ.

* * *

وَفِي الطَّرِيقِ نَحْوَ قَلْعتِكْ،
أُنْبِئْتُ أنَّكِ التِي تُشْبِهُهَا أَرْكَادْيَا.
وَكَانَ أن وَرَدْتُ نَبعكِ الغزيرَ عِنْد الْفَجرْ،
وَفِي فَمِـي ثَدْيٌ مِـنَ الأَسْمَالْ.
وَفِي مَسَافَتيَّ طَعْمُ النفِيّ والوَبَاءْ،
أَفَقْتُ فِي الظَّهِيـرَةِ:
فاجأني المخاضُ فِـي الرَّيعـانْ.
أحسست في الوريد شيئاً يُشبه الجُروحَ واليَفاعةَ.
أكلت لحم الجِنيات نَيِّئاً.
وفي مـاء النَّقْعْ،
كنتُ حفيداً لستورنسنَ الرجيمْ.
فلا أبي ابراهيمْ،
ولا أبي ديدالوس.
أَهِيَ لَعنةُ المُقام فيكْ؟
كَيفَ إِذَن أُقِيمْ؟
كَيفَ إذن أرتحلُ. . .
وأنت لي متاهةٌ؟

ولستُ من رَحْمِ أريانَ ولا بِينيلوبْ!
رمتنيَ الأموَاجُ في شَواطِئكْ،
على حُدود جزر المَرْجَانْ.
وحين مَدَّ بصري نحوكِ خيط الكَشفِ
مَسَخْتِنِـي.
هل أنتِ ميدوزا ولا أعرفها؟
وهل لليلِك الكفيفِ شَهرزادْ؟
وهل له عشتارُهُ العَشِيقةُ؟
والشَّبق المَحموم في عُيونِ ميسالينا؟

* * *

رأيتُ في عينيكِ كلَّ نَزَوات العَقلْ.
رأيت في عينيكِ شهوتينْ:
مسافةَ الجَسد في أنكيدو،
وطَفرات الروح في كيلكاميـش.
وتحلمين بربيع العشق أن يدومْ.
وتحلميـن بربيع العمرِ والربيـعْ.
كونـي كما تشائيـن:
بَلقيسَ أو مريمَ أو رابعةَ ال. . . !
كوني كما تشائـين،
إلاّ التي أنت على صُورتِهَا.

* * *

جِنانُـكِ الخضراءُ بالطَّواويسْ،
شاطئكِ الأُسـطـوري،
تلالُـكِ الوَردِيَّـة،
أطلالُـك المَسبيـة،
لم تنسني الذبابَ والمستنقعاتِ والدروبَ الضَّيّقة.
فكم رأيتُ قِططاً ـ أرانبَ!
عَمَّدَها العَرَّاب في البيعة والمسجد والكنيسة.
يُغمِدُها المُشردون في تخوم الجوع.
أبوابُك الخرساءُ كالشِطآنِ مُوصَدَةٌ،
ونحن في عرائنا يَجرفنا المطرْ،
ونجرع الدفء من الكحولْ،
كان ما نلمسه وباءْ.

* * *

يحكون عن كنوزكِ القديمة:
أن الغُـزاة هَرَّبـوا أُوارَهـا.
يحكون أن حلمكِ البعيدْ،
يجيء خجلانـاً ويمضي رائعاً.
يُحاوِرُ النفي الذي يحاصِر المَدى،
هُويَّةَ التيه الذي يبدأ حينَ ينتهي،
هُويّة السقوط،
هُويَّةَ العَزاء في الجُرح الذي لا يَلتَئِمْ،

هُويّةَ الغِياب والقُمامَة.

* * *

في مطهر الفردوس والجحيمْ،
أجسادهـم، أرواحـهمْ،
رأيتها تُباعُ في الأَسْوَاقْ،
مَحظورةً، مُباحَـةً، بِأَبْخَسِ الأَثْمانْ،
أبعادُهم، فضولهم، أَكفانُهم، فُصولهمْ،
وبعثهمْ،
وَطَمْثُهُمْ
تُباع في الأسواق في المَزادْ.
عين على البَحـرْ،
أُسْتٌ عَلَى الحَجَـرْ
أذنٌ عَلَى الخَبـرْ.

البنية النصية لسيرة
التحرر من القهر

بقلم د. صبري حافظ

عندما أخبرني محمد شكري، وهو يقدم لي «الشطار» الجزء الثاني من سيرته، كيف كتب الجزء الأول من سيرته الذاتية الروائية الشهيرة (الخبز الحافي) كشف لي دون قصد عن سر ما في هذا النص من عفوية وطزاجة. فقد انبثق النص لا عن رغبة مسبقة في كتابته أو تعمل قصدي لإنشائه، وإنما، ككل شيء في حياة صاحبه التي يرويها لنا بتلقائية نادرة وصدق جارح، كاستجابة فورية للحظة سرعان ما تتحول إلى تجربة يعيشها بكل كيانه. جاء النص نتيجة لادعاء شكري بأنه كتبه بالرغم من أنه لم يكن ساعتها قد كتب منه حرفاً واحداً. ففي جلسة جمعته مع صديقه الكاتب الأمريكي بول بولز، الذي اختار طنجة وطناً له، وعدد من المثقفين والصحفيين الأجانب في طنجة اقترح عليه أحدهم أن يكتب سيرة حياته الشائقة تلك، وتعهد بأن ينشرها بالإنجليزية لو فعل، بينما تحمس بولز لترجمتها. فقال لهم محمد شكري على الفور: لقد كتبتها بالفعل، إنها موجودة لديّ في البيت. وتحمس الجميع للمشروع، فتواعد شكري مع بولز بعد أيام على أن يأتي له بالفصل الأول ليشرع في ترجمته ما دام قد تعهد بترجمة النص. وفي الموعد المحدد جاءه فعلاً بالفصل الأول الذي كتبه في أيام قلائل اختلى فيها بنفسه في أحد المقابر كما يقول لنا في «الشطار»، وفي اللقاء التالي جاء بالفصل الثاني، وهكذا كتبت (الخبز الحافي) عام ١٩٧٢، وصدرت بالإنجليزية ثم الفرنسية قبل أن تصدر طبعتها العربية بعشر

سنوات. وها هو وبعد عشر سنوات أخر يكتب الجزء الثاني من تلك السيرة الذاتية الشائقة، ويختار له عنوان «الشطار». وهو عنوان دال لا على هذا الجزء الثاني من السيرة فحسب، وإنما على هذا المشروع السردي المتميز كله. وحتى نتعرف على هذه الدلالة لا بد لنا من العودة إلى (الخبز الحافي) وإلى المنطلق الذي انبثق منه النص حتى نستعيد بعض ملامحه قبل الدخول إلى عالم (الشطار) الثري. فلا يمكن هنا الفصل بين «الشطار» و«الخبز الحافي»، وإنما لا بد من التعامل معهما كنص واحد، يمتد من الكلمات الأولى في «الخبز الحافي» التي تبكي الموت، وينتهي بقصيدة الختام في «الشطار» التي تقدم لنا عالم مدينة طنجة في تناقضاته المفعمة بالأمل والحياة.

الكتابة الجديدة: مصادراتها ومنطلقاتها:

فالقصة التي أنتجت الجزء الأول من هذا النص المهم هي مفتاح فهم لغته وهي المدخل الصحيح إلى حل شفرات فرادته كنص متميز في الأدب العربي الحديث. لأن هذه السيرة الذاتية الروائية الفريدة تنطلق من مفهوم للكتابة مغاير كلية لما استقرت عليه المواضعات الأدبية والثقافية في هذا المضمار. فلم يكن ثمة إدعاء أو شبهة كذب في زعم شكري بأنه كتب النص قبل أن يكتب أي حرف فيه. لأننا هنا بإزاء نوع جديد من الكتابة يجعلها صنو المعايشة والخبرة، لا بنت الكدح العقلي، والمعاظلات اللفظية أو التمرينات العقلية. فإذا كان شكري قد عاش كل هذه الحيوات والتجارب الخصبة فهو بمعنى الكتابة الفريد في هذا النص الأدبي الجميل قد كتبها حتى قبل أن يخط أي حرف فيها. لأن الكتابة في هذه السيرة بجزأيها حياة ومعايشة، ونفي في الوقت نفسه للكتابة بمعناها التقليدي المتعارف عليه، وحتى بمعناها التناصي الذي يجعلها استجابة لنص، أو لمجموعة من النصوص قبل أن تكون صدوراً عن واقع، بل إنها كذلك نفي لأي محاولة لأن تعكس الكتابة الواقع أو تصوره، لأن علاقتها بالواقع هي علاقة أن تكون هي الواقع وأن يكون الواقع هو الكتابة. أي أنها علاقة أقرب ما تكون إلى علاقة الحلول الصوفي التي تحل فيها روح في جسد، ليصبح جسد

الواقع هو جسد الكتابة، ولا تكون الكتابة انعكاساً له بل إحدى تبدياته وجوهر ماهيته. فليس في هذا النوع من الكتابة ثنائية يمكن فيها تمييز كل منها عن الآخر، وإنما هي محاولة لأن تكون الأنا الراوية، هي الأنا المعايشة للتجربة، وهي التجربة الحالة في الفضاء في آنٍ واحد. وهذا هو سر مراوغة هذه الكتابة واختفاء أي نزعة «كتابية» منها.

والكتابة /الحلول/ المعايشة التي تنطوي عليها سيرة شكري بجزأيها «الخبز الحافي» و«الشطار» هي نقيض الكتابة السردية التقليدية، وهي السر في دعوة شكري لسيرته بأنها «سيرة ذاتية روائية شطارية» لأن «أدب الشطار» في تراثنا العربي أدب سير من نوع فريد، لا تقتصر فرادته على طريقة كتابته فحسب، وإنما تشمل نوعية الشخصيات وتجارب القاع الاجتماعي والإنساني التي يتناولها كذلك. كما أنه أدب فيه كثير من التحدي والخروج على المواضعات المستقرة والأعراف السائدة. لكن علاقة سيرة محمد شكري الذاتية بأدب «الشطار» العربي القديم لا تنهض على محاكاته، بقدر ما تقوم على استقطار روحه وتشرب مختلف أبعاده، ثم إعادة إنتاجها في هذه الصيغة الروائية الجديدة. لأن أدب الشطار يقيم جسراً بين حياة الصعاليك في انطلاقها وخشونتها القاسية، وحياة المتصوفة في زهدها وروحانيتها الرقيقة. وفي طريقة الدراويش «الشطارية» الصوفية التي ازدهرت في جونپور في الهند اعتماد كبير على نزعة القائلين «أنا الحق» وهذا ما يؤدي بهم إلى تأليه الذات. لكن شكري وإن استوعب، عن قصد أو عن غير قصد، على الصعيدين الاجتماعي والفني معاً مقولتهم «أنا الحق»، أعاد في نصه إنتاجها باعتبارها مقولة اجتماعية لا ميتافيزيقية، واستطاع أن يسخر الجانب الفني والروائي لتحقيق نوع من إحلال هذه الذات /الحق/ الراوي في الفضاء المغربي المعاصر وفي فضاء مدينة طنجة بالتحديد، وهو الإحلال الذي تجلت بعض صعوباته في «الخبز الحافي» ولم يبلغ غايته ومستقره إلا في «الشطار». كما جعل هذه الذات /الحق مرادفاً لا للذوات السائدة التي تتشكل منها أعمدة المجتمع المغربي التقليدي، وإنما للذوات المسحوقة والمهمشة الطالعة من

القاع الاجتماعي المسحوق. وأهم من هذا كله للذات الإنسانية المجردة في سعيها الأبدي للتحرر من كل أشكال القهر والانتهاك والعبودية. لكن المهم هنا أن نشير إلى أن استخدام شكري للجانب الروائي في توصيف سيرته الشطارية تلك هو الذي يكسب الكتابة فيها تلك النكهة الخاصة التي استوعبت ملامح العديد من الصيغ والأجناس الأدبية في بنيتها الجديدة. وهو الذي ميز نزعتها «الشطارية» الحديثة عن أدب الشطار التقليدي، بل ويقيم تعارضها معه، ويبلور مغايرتها له.

كما أنها وقد كتبها شكري بعفوية نادرة وصراحة جارحة تنطوي على شيء من تلقائية اللحظة التي زعم فيها شكري أنها مكتوبة قبل أن تكتب، وتحمل في كل منعطف من منعطفاتها تلك الدهشة الناجمة عن أن يكون في تلك الحياة البسيطة الخشنة الفظة القاسية التي عاشها ما يستحق القص. ومن هنا كان صدقه المتناهي في عرضها كما هي دون تفلسف أو ادعاء، ودون أي رغبة في أن يستخلص منها الدروس أو يستقي منها العبر. لكن نفي التفلسف من ظاهر الكتابة لا يعني بأي حال من الأحوال غياب أي تصور أو رؤية فلسفية عن أفقها. ففي النص بجزأيه الأول والثاني الكثير من الومضات الفكرية، والتأملات المدسوسة بمهارة وتلقائية، واللمعات الفلسفية التي تختزن في شذراتها العابرة التجربة والحكمة دون أن تتباهى بهما أو تتعمد إبرازهما. وقد كان من الطبيعي أن تزداد جرعة هذه الومضات كلما تقدمنا في النص، وأن يكون حظ «الشطار» منها أكبر من حظ «الخبز الحافي». ليس فقط لأن الذات الراوية في «الشطار» أعمق خبرة ومعرفة من تلك التي تطل علينا في «الخبز الحافي»، لأنه إذا كان الجزء الأول يقدم لنا تجربة الصبا والبلوغ وسنوات تفتح الوعي الأولى، فإن الثاني يقدم لنا تجربة النضج وصقل الخبرة واستيعاب المعرفة، ولكن أيضاً لأن بنية النص نفسها وقد اقتربت من ذروة اكتمالها أخذت تستخلص من التجارب ثؤرها، ومن اللحظات أغناها، ومن الشخصيات أثراها، ومن الأحداث أشدها حدة وتألقاً، ومن الحالات أكثرها دلالة على الموقف والمزاج.

طبيعة النص الحداثية:

فبساطة السرد وعفويته في هذه السيرة الشطارية هي إذن سر قوته، وهي التي تضفي عليه تلك القوة والصلابة، لأنها تفصم عرى علاقته بالكتابة «الأدبية» والحذلقة التقليدية، وتوثق صلاته ببعض سمات الكتابة الوصفية الأثنوغرافية ethnographic التي تتسم بالحياد والموضوعية العلمية، ولا تستحي من عريها وصراحتها، بل إن اثنوغرافيتها تلك هي التي تؤكد واقعيتها وقربها من النصوص غير «الأدبية» مما يجعلها نموذجاً للنصوص الواقعية بالمفهوم الحديث للمصطلح عند ديفيد لودج: «فأحد التعريفات المقبولة للواقعية في الأدب هي أنه تقديم التجربة الإنسانية بطريقة تجعلها أقرب ما يكون إلى وصف التجارب المماثلة في النصوص غير الأدبية في الثقافة نفسها» وهذا هو ما تقدمه لنا سيرة محمد شكري الذاتية وقد بلغت واقعيتها الوصفية حداً جعلها أقرب إلى النصوص العلمية الأثنوغرافية منها إلى النصوص الأدبية في الثقافة التي أنجبتها. لأن في كثير من النصوص الواقعية في الثقافة العربية المعاصرة قدراً كبيراً من التعمل، أو تعمد إيقاع الواقع في براثن الرؤى المسبقة والتصورات الجاهزة عنه. وهذا البعد عن مواضعات الحذلقة «الأدبية» التقليدية هو الذي يؤسس حداثة هذا النص الأدبي الجميل، بل ويوغل به في مغامرة الحداثة حتى يشارف تخوم ما يعرف الآن بما بعد الحداثة.

وقد استطاعت سيرة محمد شكري الذاتية أن تضع كاتبها باقتدار على الخريطة الأدبية كواحد من الذين ساهموا في تأسيس الكتابة الحديثة بشكل عفوي وتلقائي ودون ادعاء بأنه يقدم أي جديد. وهذه العفوية الطالعة من قلب المعاناة والألم هي أولى سمات تلك الكتابة الحداثية الجديدة التي يقدمها لنا محمد شكري في سيرته الجريئة الصادمة. لأن حداثة الكتابة عنده ليست نتيجة رفض الكتابة القديمة، أو ثمرة بحث شكلي أو أسلوبي أو لغوي يستهدف التمايز والمغايرة، وإنما هي بنت الاستجابة العفوية لمتغيرات

الواقع، ومحاولة تقديمه في بكارته وكليته وزخمه وحضوره المباشر. وحداثة نص محمد شكري هذا، والتي تقترب كثيراً من ملامح مرحلة ما بعد الحداثة، لا تتجلى في طبيعة الكتابة وحدها بل تتخلل كل حنايا النص، وتتغلغل في كل منطلقاته. فإذا كانت الحداثة تنطلق من تأكيد الاختلاف وتفرد الإنسان بين القطيع، فإن سيرة شكري الذاتية تنطلق هي الأخرى من هذا الافتراض، وتسعى إلى طرح نموذجها المتميز في اختلافه وجرأته وصداميته. وإذا كانت الحداثة وما بعد الحداثة تعمد إلى انتهاك المحرمات والعصف بكل الحواجز والحدود، فليس ثمة نص في أدبنا الحديث أشد جرأة في انتهاكه للمحرمات اللغوية والاجتماعية والجنسية من سيرة شكري تلك. وإذا كانت الحداثة هي النتاج الأدبي للظاهرة الحضرية فإن فضاء السيرة هو مدينة طنجة أكثر مدن المغرب العربي تقطيراً لهذه الظاهرة في تحولاتها المكانية والاجتماعية المختلفة. وإذا كانت الحداثة كما يقول أورتيجا إي جاسيت تنبثق عن الإجهاز على إنسانية الفن وفصله عن كل التصورات المثالية والتعليمية والأخلاقية السابقة له، فإن المنطلق الجديد للكتابة الذي اعتمده شكري في سيرته بجزأيها لا صلة له على الإطلاق بتلك المفاهيم المثالية القديمة للفن، وإنما تنهض فنيته على حوشيته وخشونته وجرأته الصادمة. وإذا كانت الحداثة تتسم بعنايتها بالنزعتين الشبقية والبدائية فإن مدار سيرة شكري بطزاجتها التعبيرية، وعرامتها الحسية التي تجعل الجسد مدار المعرفة ومنطلقها، هي من أكثر النصوص العربية المعاصرة حداثة من هذه الناحية. وإذا كانت الحداثة تتصل بفكرة تراخي القبضة الأبوية بمعناها الشامل والإجهاز على سلطة الأب والنفور من المجتمع الأبوي بتراتبيته الصارمة، فإن علاقة الراوي بأبيه في السيرة تحتدم بالكراهية وبالرغبة في قتل الأب لا بالمعنى الفرويدي وحده، وإنما بالمعنى الاجتماعي والحضاري والفردي معاً، وتصور لنا فصول الصراع الحاد والمستمر بينهما. وإذا كانت الحداثة ترتبط بالتجريب والبعد عن الأنساق المستقرة، والنفور من النزعات الايديولوجية والتصورات المسبقة، فإن هذه السمات الأساسية الثلاثة تتحقق كلها في سيرة شكري الذاتية. فحداثة هذا النص إذن أبعد ما تكون عن

التعمل وأقرب ما تكون إلى الروح السارية في العمل كله. لأن النص يشتمل عل كل عناصر الحداثة ومقوماتها الأساسية على صعيدي الرؤية والأدوات.

التجنيس وازدواجية النص البنائية:

ويعلن علينا النص منذ البداية عن بعض سمات حداثته تلك عندما يؤكد أنه سيرة ذاتية روائية، وهذا ما يميزه عن السيرة الذاتية autobiography بمعناها التقليدي المعروف، وعن الصورة الذاتية autoportrait بنزعتها الانتقائية، وإن استخدم تقنياتهما معاً ليخلق سيرته الروائية fictional autobiography التي يلعب فيها السرد والتخييل دوراً أساسياً. وربما كان هذا هو السبب في اختيار جزئها الأول «الخبز الحافي» التوقف عند بلوغ سن الرشد، والوعي لا بالذات وبدورها المرتقب فحسب، وإنما بحاجتها إلى التعليم والمعرفة التي لن تستطيع دونها التحقق. وانتهاء الجزء الثاني منها «الشطار» بتلك القصيدة الفريدة التي تلخص جزئياتها المكثفة أهم ما في المشروع السردي من رؤى ودلالات. فهذه التحديدات والاختيارات النصية لا تنتمي إلى عالم السيرة الذاتية بمعناه التقليدي قدر انتمائها إلى استراتيجيات الخطاب الروائي. ولكن هناك عنصر آخر ينسب عبره محمد برادة، في دراسته القيمة «الخبز الحافي»: سيرة لقراءة الذوات المغيبة» فضاء سيرة شكري الروائية تلك إلى عالم التخييل. وهو أن فضاءها بالمعنى الشامل لهذا المصطلح «منتزع من منطقة العدم والإعدام، لأنه فضاء حكم عليه بالتغييب والتهميش، وفجأة وبحكم الصدفة، عاد إلى الوجود واحتل مكانته إلى جانب الفضاءات الأخرى المخالفة التي تعودنا عليها في النصوص العربية والمغربية. من ثمة النكهة الوقحة المقتحمة لخيالنا وذوقنا المساير للمواضعات. إن فضاء «الخبز الحافي» يظل دائماً عندي فضاءً غريباً مفاجئاً منتمياً إلى التخييل، لأنه لا يصطنع الحدود ولا يبالي بالمواضعات. وكل من

لم يعش مثل شكري سيجده فضاء غير مألوف، فضاء محرراً من رتابة التصورات الاجتماعية المرائية، ومن ثنائية القيم والسلوكات».

وقد لجأت السيرة من حيث تأسيسها لفضائها المتميز ذاك إلى تشييد فضاء أقرب ما يكون إلى الفضاء الواقعي المتماسك على المستويين المكاني والمعنوي والسردي معاً. لأن «الخبز الحافي» الذي جعلته عنواناً لجزئها الأول، هذا الخبز العاري من كل غموس ليس رمزاً لحياة الفاقة التي عاشها الكاتب/السارد فحسب، ولكنه، وهذه من ثنائياته البنائية، رمز لتعرية عملية الكتابة نفسها حتى النخاع، وتجريدها من كل «زواقها» القديم وزخرفها المألوف. وهو تجريد لا ينأى عن اتباع الأقانيم اللغوية والأدبية المعهودة فحسب، ولكنه يتعمد علاوة على ذلك انتهاك كل المحرمات والزراية بكل مقارع الردع القيمي والأخلاقي. إنها الكتابة التي تطمح إلى أن تكون بسيطة بساطة الخبز ومحايدة حياده، وقادرة على تلخيص الحياة مثله، ألا نسميه في مصر «العيش». وأهم ما يطرحه هذا النص على ناقده هو أنه استطاع من خلال الاعتماد الكلي على الحسي، مع أقل القليل من الاستقصاءات التأملية أو التعليقات الفكرية أو الفلسفية، أن يقدم لنا ما يعجز اللجوء إلى العقلي الإتيان به. لأن منهج النص في تجنب كل ما هو عقلي وتأملي، بما في ذلك أسئلة الكتابة ذاتها، والتركيز على الإمساك باللحظات المحسوسة المنصرمة ووضعها على الصفحة في عرامتها ومباشرتها وتدفقها العضوي الحي استطاع أن يؤسس لا كتابته الجسد الجديدة فحسب، وإنما رؤيته العضوية المتفردة كذلك للعالم والإنسان. وهي رؤية تحتشد استراتيجيات النص المختلفة من سرد واعتراف واستخدام للحلم، وتعدد للغات الحوار لصياغة ملامحها ببساطة متناهية، وإن لم تخل من عمق مثير. إنها بساطة تسمية الأشياء بمسمياتها الحقيقية المباشرة، مهما كانت هذه المسميات صادمة، ولكنها في صداميتها تلك تنأى بالنص عن كل الاستثارات الشبقية التي تستثيرها فينا كتابات أقل منها صراحة وفضائحية. بل إنني أعتبر الصراحة والمباشرة هي وسيلة النص للتخلص من كل إثارة أو شبهة للإثارة.

وهناك بالإضافة إلى هذه العناصر التي تؤكد على دور الموهبة الروائية الواضح في الكتابة، هذا الخيط المتصل الساري في عمق النص بجزأيه. خيط تتوحد فيه على مستوى من مستويات النص دلالات الأحداث المتنافرة والمتباينة: خيط البحث والتحدي. خيط اختيار المغامرة دائماً، وإعلاء شأن إشباع شغف المعرفة وحب الاستطلاع، والجري وراء غواية السؤال الذي لا إجابة سهلة عنه. والرغبة شبه الانتحارية أحياناً في التضحية بكل شيء من أجل خبرة جديدة، ولحظة بكر، ومعرفة لم تنتهك. وهذا الخيط هو الذي جعل البنية النصية للسيرة معادلاً لعملية التحرر من القهر الجسدي، والحرمان الجنسي، والفقر الروحي، والعوز المادي، والإملاق العقلي، والمسغبة العاطفية، والفاقة بكل أشكالها وتنويعاتها. إنها بنية السعي من أجل أن تكون الحياة نفسها بكل فظاظتها وقسوتها وعنفها قيمة تستحق أن تعاش، وتستحق التضحية من أجلها، وتحمل المرارات والألم. وقد كان باستطاعة شكري أن يقدم لنا عمله كنص روائي دون أن ينال هذا التجنيس الأدبي من أي من تفاصيله أو طبيعة تلقيه كعمل روائي. لكن تأكيد النص لهويته المزدوجة تلك والتي تمتزج فيها ملامح السيرة الذاتية بخطابها الاعترافي التصريحي، وبانطوائها على شيء من الوثائقية في تعاملها مع الأحداث والتواريخ، وفي انطلاقها من التماثل بين صوت السارد وصوت المؤلف، أو بالأحرى من توحدهما، بسمات من الخطاب الروائي بحريته التخييلية ترهف عمل الذاكرة الانتقائية، وتحيله من سرد تتراكم فيه الأحداث كما دارت، إلى إبداع روائي تلعب فيه عمليات الانتقاء والتوليف والتخييل والتجاور بين أزمنة وأحداث متباعدة أدواراً تفوق أدوارها في السيرة الذاتية التقليدية، وهي التي تجعل هذه الثنائية البنائية صدى للازدواجية الأكبر التي تربط في «الخبز الحافي» بلوغ الكاتب سن الرشد بحصول بلاده على استقلالها، وفي «الشطار» مصالحته مع نفسه بمصالحته مع المدينة واستيعابه لأبعادها الأسطورية المتراكبة. وحتى نكتشف طبيعة هذه البنية الروائية التي توسع أفق هذه السيرة، وتجعل استراتيجيات السرد فيها،

بكل ما تنطوي عليه من صراحة جارحة، أحد العناصر الفاعلة في عملية التحرر الأساسية تلك، لا بد من تناول عالمها في تطوره عبر الجزأين.

مفردات العالم ولغة العنف الجسدية:

وتبدأ هذه السيرة التي كرست نفسها لتمجيد الحياة بمشهد الموت: الموت العضوي المتمثل في موت الخال، والموت الإنساني الأشمل المتجسد في المجاعة التي اجتاحت الريف المغربي في مطالع الأربعينات. كما تختار لجزئها الأول «الخبز الحافي» هذه الفترة الدالة فترة بلوغ سن الرشد لأنها في بعد من أبعادها هي سيرة هذا البحث المضني عن النضج وعن بلوغ الرشد. وقد تواقت تاريخ بلوغ محمد شكري سن الرشد (١٩٣٥ ـ ١٩٥٦) مع تاريخ بلوغ بلاده غايتها بالاستقلال، وهو أيضاً المعادل الشعبي أو القومي لسن الرشد. وهنا تبدأ آليات الانتقاء الروائي في الإعراب عن نفسها حيث استطاعت السيرة أن تبلور لها فضاءها الخاص المقتطع بعناية من زمن تاريخي معين وفضاء اجتماعي وثقافي معين (بالمعنى الأنثروبولوجي العريض للثقافة). إنه الفضاء الاجتماعي المقموع والمهمش والمسكوت عنه، وفي أكثر الأزمنة ملاءمة له: زمن الاستعمار والانتهاك وهو يقترب من نهايته فتكشف شراسته عن أبشع وجوهها من ناحية، بينما تتراخى قبضة سلطته الغاشمة منذرة بنهايته من ناحية أخرى. ولذلك فإن احتفال النص، وخاصة في جزئه الأول، بتقديم شتى أشكال العنف الجسدي، بل والبدء ببلوغ الذروة فيه حينما يقدم لنا في الفصل الأول منها مشهد قتل الأب لأخيه الأصغر عبد القادر، وهو مشهد مروى من منظور الراوي الطفل الذي يرى في هجمة الأب الشرسة على الأخ الطفل ولي عنقه خطراً يتهدده هو الآخر بموت مماثل، بالرغم من تطمين الأم له. ويقدم لنا النص هذا المشهد الفظيع من خلال قص متجرد كلية من العواطفية، لا أثر فيه للرومانسية أو الانفعال. سرد يقدم ذؤابات الأحداث الصادمة بهدوء وكأنه يقدم أمراً عادياً لا غرابة فيه. صحيح أن هذا المشهد الذي استقر في وعي الراوي منذ

طفولته الباكرة، إذ وقع وهو في السابعة من عمره، قد حال دون تلمس أي عذر للأب، وخلق بينه وبين الابن/ الراوي حاجزاً لن يزول حتى بعد وفاته، إلا أنه يقدم لنا من البداية وقوع النص كله في قبضة الموت. لا الموت الطبيعي الذي يتمثل في موت الخال من المجاعة، ولكن الموت القسري العنيف الذي يرتبط بقسوة الأب وشراسته. فالأخ الأصغر الذي اعتاد ألا يبكي دفعه الجوع إلى البكاء فما كان من الأب الذي أشبع الراوي ركلاً حتى بال في ثيابه، إلا أن لوى عنقه حتى تدفق الدم من فمه ومات على الفور. ولأترك شكري يقدم لنا المشهد بنفسه: «أخي يبكي. يتلوى ألماً. يبكي الخبز. يصغرني. أبكي معه. أراه يمشي إليه. الوحش يمشي إليه. الجنون في عينيه. يداه أخطبوط. لا أحد يقدر أن يمنعه. أستغيث في خيالي. وحش! مجنون! امنعوه! يلوي اللعين عنقه بعنف. أخي يتلوى. الدم يتدفق من فمه. أهرب خارج بيتنا تاركاً إياه يسكت أمي باللكم والرفس» (ص ١٢).

هذا الهرب خارج البيت، الهرب من العنف، ومن الأب، ومن الموت، هو موضوع السيرة كله، وهو مدار رغبتها الملحة في التحرر من القهر الميتافيزيقي (الموت) والاجتماعي (الفقر المادي والمعنوي) والعضوي (الانتهاك الجسدي)، والذي لن ينتهي الراوي منه حتى يحقق مصالحته الخاصة مع ذاته ومع المكان، ويوثق عرى علاقته الحميمة بهما معاً في قصيدة «طنجة» التي تنتهي بها «الشطار». غير أن الهرب من العنف، في هذا العالم الذي تخلى فيه الأب عن دوره التقليدي في الحماية، وأصبح هو مصدر الخطر والتهديد والموت، هو في حد ذاته نوع من تجربة العنف بكل فصولها. عنف الهجرة من الريف وانقلاع الجذور، وعنف التشرد في المدينة المعادية التي يدّعه فضاؤها باستمرار، وعنف الأسئلة التي لا جواب عنها: «لماذا نهجر نحن الريف ويبقى آخرون في بلادهم؟ يدخل أبي السجن، تبيع أمي الخضر، تاركة إياي وحدي جائعاً ويبقى هذا الرجل مع زوجته في منزلها؟ لماذا لا نملك ما يملكه غيرنا؟» (ص ٢١)، وعنف الاستغلال الذي لا سبيل

أمامه للتغلب عليه إلّا بالسرقة التي يعتبرها «حلالاً مع أولاد الحرام» (ص ٣٠)، وعنف التشرد بلا مكان يأويه في المدينة القاسية.

وأخذت كل صنوف العنف والاستغلال والقسوة توقظ شهواته نحو كل ما هو جسدي منذ فترة مبكرة في حياته. وتصبح صبوات الجسد هي الأخرى من تجليات العنف الذي يعصف بالحرمان بكل أمل في التحقق. لكن بنية النص بثنائيتها القادرة على الكشف عن بعد جديد في كل تجلٍ من تجليات العنف المختلفة تحيل هذا العنف الجسدي إلى مصدر من مصادر التواصل الإنساني من ناحية، وتأسيس الكتابة الجديدة من ناحية أخرى. لأن النص في تصويره لممارسات الراوي للجنس يحرص على تخليص الجنس من هالاته الشبقية، وتحريره، بعد أن فصله عن الحب والعواطف، من كل الأوهام الانفعالية، ليتحول إلى فعل جسدي عضوي، وليصبح سرد هذا الفعل في تفاصيله المملة نوعاً من طقس تجريده من كل الهالات التي أحاطته بها مقارع التحريم، واستثمرت نواهيها كتابات الإثارة والتهييج. فالكتابة التي تسمي الأشياء بمسمياتها المباشرة، وتتعفف عن لعبة التلميح والاستثارة ودغدغة الحواس، ليست هي بأي حال من الأحوال التي تثير الشبق أو تهيج المشاعر، وإنما تحيل موضوع الجنس المثير عادة في كتابة الحذلقة السردية التقليدية إلى عملية من عمليات اكتشاف الذات والتعرف على طبيعة الجسد بطريقة عضوية. وهذا المنهج السردي نفسه هو الذي يجرد العنف والبؤس والفاقة من كل أثر للرومانسية الانفعالية الزاعقة ويحيلها إلى واقع مجسد قاس، في صلابته وشراسته قدر كبير من الموضوعية والجمال. إنه يصف تشرده بلا أدنى أثر للانفعالية: «في فصل الشتاء تعودت أن أنام في ركن مخبزة. أكور نفسي كالقنفذ. ألصق ظهري إلى جدار الفرن الساخن. حين أفيق في الليل لأغير وضعي أو لأبول، أجد فوقي قططاً تنام. أحياناً استعذب شخيرها الخفيف الذي يشبه هدير معمل بعيد» (ص ٧٢). فهذا الوصف الذي ينزل فيه البؤس الإنسان إلى مرتبة الحيوان، يرتفع بالمشهد من خلال تخليصه من أي زعيق، ومؤاخاته بين الذات الراوية والقطط التي

تبحث مثلها في هذا البرد القارس عن مكان دافىء يقيها قرّ الشتاء، إلى أفق جديد يعيد رؤية الأشياء بحياد وموضوعية ودونما تصنع أو افتعال.

سن الرشد والتحرر من القهر المادي:

لكن فضاء «الخبز الحافي» الاجتماعي الواقعي المكتظ بشخصيات القاع، وزمنها الذاتي الذي تحكمه رحلة الراوي مع النضج الجسدي، والإدراك الحسي، والتطور العقلي، يرافقه فضاء سياسي وزمان قومي أوسع، ينطوي على الكثير من أحداث المغرب التاريخية، من مجاعات الريف في مطالع الأربعينات، وأفواج المهاجرين من البوادي والجبال، ومن مظاهرات عام ١٩٥٢ في ذكرى ٣٠ آذار/مارس الذي أعلنت فيه الحماية، وبداية هجرة أفواج من اليهود المغاربة إلى فلسطين المحتلة، واستقدام الجنود السنغاليين لقمع حرب التحرير في الجزائر، وصولاً إلى انتهائها بإعلانين لا يقل أيهما أهمية عن الآخر: أولهما هو إعلان استقلال المغرب، وثانيهما هو بلوغ الذات الراوية سن الرشد، وإعلانها عن عزمها في التعلم، واتخاذها أولى خطوات التحرر من القهر المعنوي الذي ستقدم لنا «الشطار» فصوله، بعد أن جسدت لنا جل أحداث «الخبز الحافي» تفاصيل هروبها من القهر المادي وطبيعة تحررها منه. وقد زاوجت بين الإعلانين لأن للإعلان الثاني، برغم أنه من شؤون الذات الراوية الخاصة، بعده الاجتماعي والتاريخي الأوسع الذي يعرب عن فرصة أبناء القاع الاجتماعي الجديدة، أو على الأقل حلمهم بأن الاستقلال يعد بمستقبل أفضل لهم، ويفتح أمامهم فرصاً لم يخطر على البال من قبل أن بإمكانهم الحصول عليها.

وبالرغم من أن بنية السيرة الروائية أتاحت هذا التزاوج الحميم بين الذاتي والقومي، فإن السيرة تستهدف بالدرجة الأولى تفاصيل عملية تحرر الذات من القهر المادي، بينما تهفو روائيتها إلى توسيع أفق هذا التحرر ليشمل الوطن كله، وتتغيا شطاريتها إنصاف أبناء القاع الاجتماعي من الشطار والصعاليك. وقد بدأ التحرر من القهر المادي حقيقة يوم هجم عليه

أبوه في السوق الجديد، فخلصه منه رفيقاه عبد السلام والسبتاوي وأشبعاه ضرباً حتى أدمياه «رأيته يغطي وجهه بيديه والدم يسيل من بين أصابعه بغزارة. وقفت بعيداً أنتظر نهاية المشهد. تمنيت لو أني أشاركهما في ضربه. لو كان في مكان خال من الناس لشاركتهما. كان عزاء لي أن أراه يضرب على مرأى مني حتى يسيل دمه كما سال دمي كلما ضربني» (ص ٧٥). ولما يكتشف رفيقاه بعد المعرفة أنه أبوه ويبديان شيئاً من الدهشة يؤكد لهما «إنه يستحق أكثر مما فعلتماه له. إنه كلب» (ص ٧٦). وقد كان هذا الحادث بداية المواجهة مع الأب والسلطة معاً، فقد كان ضرب الأب أمامه هو المقدمة التي جاءت بعدها مواجهته مع الشرطة التي كانت تبحث عن رفيقيه، ثم مشاهدته لفظائع السلطة الغاشمة إبان مظاهرات آذار/مارس ١٩٥٢، ثم تحديه لها باشتراكه في عملية التهريب مع القندوسي. والواقع أن كل هذه المواجهات مع السلطة هي في بعد من أبعادها مواجهات مع الأب، الذي احتدمت كراهيته له على مرّ السنين، واستحالت هذه الكراهية الصامتة بعد حادث السوق الجديد إلى معركة لم تتوقف فصولها إلا في «الشطار»، وبعد أن انقلبت الأدوار، وأصبح باستطاعة الراوي أن يفرض إرادته على الأب، بعد أن هدده بيد الهاون وأمره بالكف عن ضرب أمه. بل إنه يمهد للإجهاز عليه كلية منذ الصفحات الأولى في «الشطار» حينما يعلن موته قبل ٢٣ سنة من وقوع هذا الموت في صيف ٧٩.

وليس من قبيل الصدفة أن يشعر الراوي أثناء اشتراكه في عملية التهريب مع القندوسي أن هذا العمل هو «أفضل من أي عمل آخر كنت أقوم به من قبل. إنها مغامرة تجعلني أشعر برجولتي وأنا في السابعة عشرة من عمري. إن مرحلة جديدة من حياتي تبدأ في هذا الصباح الباكر» (ص ١٥٦). لأن هذا العمل كان أول أشكال تحدي السلطة التي كرهها منذ كره الأب في مطالع الصبا. فليس باستطاعة الذات الراوية أن تتحقق في هذا العالم القاسي الغريب إلّا إذا تحررت من قهر السلطة القاتلة وتمردت عليها: السلطة الأبوية التي قتلت أخاه الطفل، والسلطة الاستعمارية التي حصد

رصاصها عشرات المغاربة في الذكرى الأربعين لإعلان الحماية. هذه السلطة التي تمارس العنف والإرهاب لم يكن أمام الذات الراوية المتطلعة للتحرر من سبيل إلا بمواجهة عنفها بالعنف المضاد. لكن هذا النوع من العمل سرعان ما تبخر بموت أحد المهربين واعتقال الآخر. وبدأت محاولات كسب لقمة العيش تفجر الصراع بين المسحوقين أنفسهم، وتفتح أعين الراوي على أبعاد جديدة من القهر لم يكن قد خبرها من قبل، ولا تنفع معها القوة العضلية التي علمته شوارع المدن أنها ملاذه الأول والأخير، والتي كفلت له حرية الحركة حتى الآن. فقد بدأ يعرف ما تنطوي عليه الصفحات المطبوعة من عوالم ساحرة، وما يعنيه العجز عن القراءة من قهر وإحباط. وينتهي الجزء الأول من هذه السيرة بعزم الراوي على قهر هذه العقبة الجديدة، وبطقس وداعه طنجة للتوجه إلى العرائش والانضمام إلى أول مدرسة في حياته بعد أن تجاوز العشرين، وأثبت بقراره ذاك أنه بلغ سن الرشد بحق، وشارف مدارج الوعي بضرورة أن يقهر منبع كل أشكال القهر والإحباط، وهو الجهل، وأن يتعلم.

البداية المغايرة ووعي النص:

وإذا كانت «الخبز الحافي» قد بدأت بالموت الميتافيزيقي والاجتماعي معاً، فإن «الشطار» تبدأ بداية مناقضة تماماً، لأنها تبدأ بالميلاد المعنوي المتجسد في الوصول إلى أرض جديدة وبدء تجربة جديدة. الوصول إلى العرائش، أو بالأحرى إلى بر النجاة والأمان، إلى النبع الذي سيستقي منه أولى قطرات المعرفة التي سيظل ينهل من بحارها على مد النص دون ارتواء. وهذا التباين بين البدايتين هو مدخلنا إلى التغيير الذي انتاب البنية النصية والعالم الذي تقدمه معاً. لأنه إذا كانت عملية الهروب المستمرة قد صبغت الجزء الأول بقدر كبير من التنوع في التجارب والحركة الدائمة في المكان والزمان، والانتقال من شخصية إلى أخرى إلى الحد الذي تأكدت مع عرضية الإنسان، فإن الاستقرار في مكان واحد من أجل التعلم في «الشطار» أحال

الهرب من أشكال القهر والقمع إلى نوع من البحث عن الذات واكتشاف إمكانياتها. وجعل الشخصيات التي اكتسبت درجة أكبر من الرسوخ والاستمرارية من علامات الفضاء الجديد ورواسيه. واستبعد مسألة الثنائية الواضحة في بنية الجزء الأول من هذه السيرة، وبدأت بدلاً منها عملية الإحلال في المكان والحلول الكلي فيه، أي انصهار الثنائية في وحدة كلية تحل فيها المعرفة في الفضاء، وينوب فيها الحنين إلى المكان والشعور بالألفة فيه عن ذلك الذعر الباطني الذي جعل الهرب المستمر هو جوهر الحالة الوجودية في «الخبز الحافي».

يقول محمد شكري في مقدمته للطبعة العربية لـ «الخبز الحافي»: «لقد علمتني الحياة أن أنتظر. أن أعي لعبة الزمن بدون أن أتنازل عن عمق ما استحصدته: قل كلمتك قبل أن تموت فإنها ستعرف حتماً طريقها. لا يهم ما ستؤول إليه. الأهم هو أن تشعل عاطفة أو حزناً أو نزوة غافية.. أن تشعل لهيباً في المناطق اليباب الموات». وهذه الكلمات التي كتبها بعد الانتهاء من الجزء الأول من سيرته بعشرة أعوام، هي أفضل مدخل إلى تناول الجزء الثاني من هذه السيرة والذي كتب بعد عشرة أعوام أخر. لأن «الشطار» هي ثمرة هذا الانتظار الطويل الذي لم يتنازل فيه عما استحصده. فقد انتظر الكاتب طويلاً دون أن يتنازل عن كشوفه ورؤاه، ولذلك فإن ثمار هذا الانتظار سرعان ما أخذت تتساقط بين يديه. لأنه يرى لغة الأدب العربي المعاصر تسير صوب المناطق التي استشرفها. وتقطع تجاربه خطوات فساح في الطريق الذي سار فيه بجرأة وحده قبل عشرين عاماً. ولذلك فإن الانتظار/الجلد المعاناة الذي كان موضوع الجزء الأول من هذه السرّة، سرعان ما أفسح الطريق أمام نوع جديد من الانطلاق الواثق من قصده بالرغم من كل ما يواجهه من عقبات وما يعانيه من عثرات.

وتبدأ «الشطار» التي رقت فيها الكتابة وشفت وازدادت تركيزاً بفصل بعنوان «زهرة دون رائحة»، وعنونة الفصول من سنن هذا النص الجديدة، لأن «الخبز الحافي» اكتفت بترقيمها دون عنونتها. والعنونة هي أولى سمات

هذا الاستقرار الجديد على الصعيد النصي، وعلى صعيد الفعل معاً. فقد أصبح للراوي مستقر وعنوان ثابت بعدما عاش كل مرحلة «الخبز الحافي» دونما مقر. فقد أخذ النص يعي نصيته بطريقة أبرز من تلك التي تبدت بها تلك النصية في الجزء الأول الذي كانت فيه الكتابة معايشة وحلولاً محل الواقع وفيه قبل أي شيء آخر. ولا غرو فـ «الشطار» هي سيرة الرحلة صوب الكتابة والقراءة والتعبير عن النفس بالكلمات. ومن هنا كثر فيها الحديث عن هموم الكتابة وترصعت صفحاتها بالقصائد. لأنه إذا كانت «الخبز الحافي» تقدم لنا الإنسان الطالع من القاع الاجتماعي، فإن «الشطار» تقدم لنا سيرة الكاتب مع الكتابة، ومع التجربة المعرفية كلها. بل إن عنوان هذا الفصل الأول نفسه هو مدخلنا إلى إحدى استراتيجيات هذا النص الجديدة وهي الولع بالصور الاستعارية.

فالعنوان نفسه استعارة للراوي تومىء إلى تبرعم وعيه، ولكن دون تحققه بعد. إنه زهرة في ريعان شبابها، لكنه زهرة بلا رائحة، لأنها زهرة بلا معرفة. وهي زهرة تعي ميلادها الجديد، حيث يبدأ النص بنزول الراوي من رحم الحافلة إلى ساحة العرائش حيث واجه منذ اللحظة الأولى رديفه وصورة ماضيه المتمثل في هذا الطفل المتسخ الذي كانه، ولكنه انفصل الآن عنه بطريقة تسمح له بالكتابة عنه من مسافة محايدة ولكنها حانية: «قدام الحافلة التي نزلت منها، اقترب مني طفل متسخ، حافي القدمين، في حوالى العاشرة من عمره». وإذا كانت هذه البداية تقدم لنا صورة ماضيه في مرآة الطفل، فإن ذهابه بعدها إلى مقهى السي عبد الله وعالمها الغاص بلاعبي الورق وبائع الكيف الكهل الذي ذكره بعفيونة بائع الكيف في قهوة السي موح في طنجة، والسي عبد الله نفسه الذي لا يختلف كثيراً عن صاحب المقهى الذي عمل به في صباه في تطوان، يؤكد أن الواقع الجديد ينطوي في حناياه على صورة للواقع الذي تركه خلفه في طنجة. لكن جدة الصورة واختلافها يتأكدان لا بالتغير الكبير الذي انتاب الراوي والرؤية معاً فحسب، ولكن بذلك الحنين الجارف إلى طنجة وليلها المغربي وصيدها

البحري. بل إن انتهاء هذا الفصل، بعد الامتحانات العديدة التي تعرض لها في المدرسة لتقرير التحاقه بها، بحكاية الأم التي انتحر ابنها من فوق صخور ميناء طنجة، وبمشهد البئر التي صادفها في طريق العودة من المدرسة بعد الامتحان وألقى فيها حجراً يختبر به عمقها، واستهواه العمق واحتمال السقوط المدوخ، يؤكد لنا أنه يعي وجود الموت الرازح وقدرة السقوط المغوية على جذب من لا يتشبثون بقوة بأمل الصعود. لذلك يؤكد لنا أن «صوت السقوط يجذبني إليه بسحر قوي وأنا أقاومه».

التنويعات المعرفية على فضاء التجربة:

لكن انعكاس صورة الماضي على مرايا الواقع الجديد في الفصل الأول، وتأسيس علاقة التماثل والتباين، سرعان ما يدخل بنا مع الفصل الثاني «حين يفر السادة يموت العبيد» إلى خرائط عالم «الشطار» الجديدة والمغايرة. عالم لا يقتصر فيه الوعي على الراوي الذي جاء بعدما بلغ سن الرشد يبحث عن المعرفة، ولكنه امتد إلى الجماهير التي تصرخ في ساحة اسبانيا مطالبة بسقوط الباشا والخونة. وترد بعنفها المؤيد بعنفوان الاستقلال الجديد على كل عنف الماضي الاستعماري الكثيب وتنتقم من شراسته. إنه عنف مترع بالأخطاء ككل عنف عفوي، يروح العبيد ضحيته بينما يتمتع السادة بالفرار، ولكنه يكشف عن بدايات الوعي وبدايات القدرة على تغيير الواقع، وعن أنه ليس عنفاً ميتافيزيقياً قدرياً عبثياً كما كان الحال في «الخبز الحافي»، ولكنه عنف معقلن إلى حد ما، اكتسب أبعاداً اجتماعية واقتصادية وسياسية، وأصبح خطوة على طريق الوعي. لذلك كان طبيعياً أن يكون عنوان الفصل التالي له هو «أول درس» وهو درس يشي بذكاء الراوي المتميز وبقدرته على أن يتعلم منذ اليوم الأول أهم دروس العملية التعليمية برمتها، وهو جماعيتها وشموليتها وتعاونيتها. «منذ تلك اللحظة صرت أتعلم من التلاميذ أكثر مما أتعلم من المعلمين». كما أن مسيرته التعليمية بعده تضع عنف بدايات الاستقلال العفوي وفوضاه الشعبية تلك، في مواجهة سعي

الراوي المنظم لتحقيق استقلاله الشخصي والمعرفي معاً، وتوطيد سلامه الذاتي مع المكان، واستيعاب العالم، وإعادة إنتاجه في صيغ جديدة.

في الفصول الثلاثة التالية تتفتح بعض جوانب العرائش للراوي وتقدم له تنويعات أخرى على شخصيات القاع الاجتماعي التي عرفها في حياته السابقة، لكنه برغم تماثل التنويعات فإن تجربة التحصيل المعرفي تلف كل شيء في مناخها المحفز للوعي، وتكسب التفاصيل القديمة دلالات جديدة ومغايرة. فلم يعد الراوي هذا الإنسان العفوي الذي يستجيب للمواقف بجسده وانفعالاته، وإنما بدأ كل شيء يمر عبر عقل يقظ يستشرف عواقب الأمور. فعندما ضربه المدرس حتى أدمى أذنه لم يستجب للموقف بالعنف الجسدي المضاد كما فعل أكثر من مرة في «الخبز الحافي»، ولكن بإعادة وزن الأمور: «لمست أذني الدامية. استنكار في نظرات رفقائي. تآزروا معي صاغرين. فكرت أن أنهض وأرتمي عليه. أن أتناطح معه كما كنت أفعل في تطوان أو طنجة في المشاجرات حتى ولو انهزمت. أن نتعارك حتى يخور أحدنا. أن أحاول عض أذنه الحمارية حتى أبترها وأبصقها في وجهه. لكن سيكون آخر يوم لي في المدرسة. سأترك أذن الحمار لأسنان الحمير». وينطوي هذا القرار الأخير على مجموعة من الدلالات الهامة، أقلها أنه وقد لجأ إلى تلك الصورة الاستعارية برنتها التهكمية عن أذن الحمار وأسنان الحمير قد حاول التهوين من شأن الموقف كله والسخرية منه. وأهمها أنه قد حكم على حياته الماضية كلها بأنها حياة حمير، وجسد بهذا الحكم انفصاله النهائي عنها وعن منطقها القاصر الأرعن. وأنه يعي أن كبح جماح ردود الفعل العضوية هو الثمن الذي لا بد أن يدفعه للتمرين العقلي ومواصلة التحصيل. فقد أصبح التعليم غاية تستحق التضحية من أجلها بكل نفيس. ألم يخبرنا بأنه يشتري «السجائر الشقراء» للكسيح المتفوق في الرياضيات ليعلمه فنونها، بينما يكتفي هو نفسه بتدخين الأعقاب التي يجمعها من الطريق. هذا الإيثار من أجل العلم وتحمل الكثير من المصاعب هو الذي يكسب رحلته مع المعرفة مذاقها الفريد، ويجعلها معركة مع

الإرادة ضد كل ما علمته إياه تجربة السنوات الأولى في حياته من إثرة وأنانية.

مع العودة من جديد إلى طنجة بعد أن أنجز مرحلة، ونجح في امتحان الالتحاق بالتعليم الثانوي، تبدأ عملية المراوحة المكانية في النص بين طنجة وغيرها من فضاءات التعليم والعمل من العرائش إلى تطوان وغيرها، وتبدأ أيضاً عملية اكتشاف جوانب جديدة أخرى من جوانب حياة هذه المدينة المغوية. فإذا كانت طنجة في الماضي هي فضاء إشباع حاجات الجسد الذي طالما عانى من الحرمان، فقد بدأت تكشف عن قدرتها على إشباع حاجات الروح في «عناد الحب القاسي مثل خبز الفقراء». وبدأ القلب يهفو فيها إلى «كنزة» والحب الحسي لا العاطفي، فلا تنسَ أننا في طنجة! وما أدراك ما طنجة! وأن الراوي يقر بأنه لا يعرف ما هو «الحب الحقيقي». اشترى بعض كتب المنفلوطي وجبران ومي زيادة حتى يتعلم منها ماهية الحب الحقيقي، فوجده مشروطاً بالموت أو الحزن الأبدي أو الجنون فعافه، كما عاف «كنزة» حينما سقطت في يده آخر الليل ثمرة ناضجة ولكنها معطوبة مخمورة. وانشغل بحب «ربيعة» الحسي المرح الذي لا موت فيه ولا جنون، حتى عاد من جديد إلى العرائش مع بداية العام الدراسي الجيد. وفي العرائش بدأ يعرف أنواعاً أخرى من العواطف كعاطفته الأبوية نحو «سلوى» طفلة فطيمة التي تعد في مستوى من مستويات الدلالة في النص معادلاً آخر له، فهي خضراء الدمن وهو «زهرة بلا رائحة». وكحب صديقه الكفيف «المختار الحداد» العذري لمعشوقته البتول، وصداقة حميد وسعيدة وعائشة التي تنتمي إلى العالم القديم أكثر من انتمائها إلى عالم الصبوات الجديدة والمشاعر البكر. وأصابيح نهاية الأسبوع الحلوة التي يصطحب فيها سلوى للنزهة ثم يذاكر لها دروسها. ومشاعر القلق عليها عندما مرضت. بل واستيقظت فيه مشاعر البنوة نحو أمه عندما أدخلوها المستشفى بعد إصابتها بمرض السل، فقرر أن يعودها في تطوان. كما اكتشف أهمية قدرة حميد على أن يبدأ دائماً من جديد «إنه دائماً مستعد أن

يبدأ حياة جديدة. لا يتعلق بشيء. في نظره كل شيء هش وقابل للسقوط والانكسار» وكأنه يدرك عبر هذا الاكتشاف فقدانه التدريجي لتلك القدرة القديمة المدهشة.

طنجة: مركز العالم ومداره:

حينما يعود الراوي إلى تطوان ينفّس عليه التفرسيتي، صديقه القديم. ما حققه من تعليم، برغم نجاحه التجاري، فيزداد تقديره لقيمة ما أنجزه، خاصة بعدما يعرف بسجن عبد السلام وهرب السبتاوي: رفيقي الصعلكة القديمة. إن عودة النص إلى تطوان لم تكن إذن لعودة الأم المريضة فحسب، وإنما للمقابلة بين حاضر الراوي وحاضر من لم يسلكون الدرب الذي اختاره، أو بالأحرى صورته في المرآة لو لم يبدأ رحلته مع الوعي والتعلم. وبالإضافة إلى هذا كله، لتأكيد استمرار الصراع مع الأب، والإجهاز التدريجي على سلطته الغاشمة. وكذلك تعريجه على طنجة قبل العودة مرة أخرى إلى العرائش لم يكن للمداواة من السيلان الذي أصابه نتيجة نومه مع المرأة التي جلبها له التفرسيتي، وإنما كما سيتأكد لنا كلما توغلنا في النص لتأسيس طنجة كمحور لعالمه الجديد كما كانت هي مجال عالمه القديم ولتتوحد في فضائها الجامع للمتناقضات تفاصيل الحياتين ودلالات العالمين. إنها محطة لا بد منها عند كل منطعف من منعطفات الرحلة. صحيح أن تطوان هي الأخرى محطة يتكرر التعريج عليها، بل ويعود إليها عندما ينجح في مباراة الدخول إلى مدرسة المعلمين، إلا أن العودة إلى طنجة تكتسب دائماً طعماً مغايراً ودلالات أوسع. فهو يدرك أن صورة تطوان التي يرسمها في سيرته أجمل من حقيقتها، لأن قدرة الفن على استعادة الواقع تضفي عليه الكثير من الجمال كما يقول شكري للمستشرق الياباني نوتاهارا. لكنه يعي في الوقت نفسه أن هذا ليس هو الحال مع طنجة، لأن طنجة تظل أجمل من كل صورها وأعقد. ولأن العودة إلى تطوان أو العرائش أو غيرها من فضاءات العالم القديم ليست عودة محمولة على أجنحة الحنين فحسب،

ولكنها عودة تتغيا تأكيد انفلاته من هذه الفضاءات وتكريس نجاته من أنشوطة الحياة فيها. فحينما يعود لتطوان يؤكد لنا نجاته من مصير عبد السلام والسبتاوي وحتى التفرسيتي لو بقي فيها. ولما يرجع إلى العرائش يكون ذلك لتأكيد أنه لو بقي فيها لطرد كما طرد حميد من الهري أو لفقد حبيبته كما تزوجت بتول مختار.

لكن العودة إلى طنجة شيء آخر. إنه يذكرها ويفتقدها وهو في غيرها من الأماكن، حتى وهو في مراتع الصبا وموائل الذكريات يهتف: «لو كنت في طنجة لما أحسست بهذا الفراغ الممل. هناك أستطيع أن أولّد من أكثر الأيام كآبة وعوزاً بعض المتع. العزلة هناك حرة لها مذاق التوت البري. وهنا مفروضة ولها مذاق الحنظل». فطنجة هي مركز العالم بالنسبة لهذه السيرة الذاتية، وألفتها والسيطرة عليها هي غايتها. فاكتشاف فضاء مدينة طنجة، ومعرفته الحميمية، والارتباط الوثيق به، رديف التحرر في هذا النص وليس بأي حال من الأحوال اكتشافاً لسجن جديد. ففي النص مجموعة كبيرة من الفضاءات التي خبرها الراوي وعاش فيها وارتبطت بمرحلة أو أكثر من مراحل حياته العاصفة الثرية تلك. ولكن اختياره لمدينة طنجة للارتباط بها والتغني بها وإكسابها هذه الأبعاد الأسطورية المتعددة التي تجتمع كلها في قصيدة النص أو فصله الأخير هو تأكيده لحريته التي صاغتها كل تفاصيل هذه التجربة الحياتية الشيقة. فطنجة هي مدينة أهم تجربتين في حياته: تجربته مع الجنس وتجربته مع المعرفة والكتابة. فإذا ما عدنا إلى تجارب الجنس المتوهجة في هذا النص سنجد أنها كلها تدور في هذه المدينة الآسرة. وكل تجارب الكتابة تنبع منها وترتد إليها. صحيح أن موجهه الأول في عالمها كان الأديب محمد الصباغ في تطوان إلا أن انطلاقاته المعرفية الحقة ارتبطت كلها بطنجة. كما أن أول عمل له بعد انتهاء تدريبه بمدرسة المعلمين بتطوان كان هو الآخر بطنجة بمدرسة الحي الجديد للبنين والبنات، وأول سكن له بالمعنى الحقيقي لهذا الاسم كان في ڤال فلوري بها كذلك.

وعلاوة على هذا كله فإن النص يعد في مستوى من مستويات قراءة

للتاريخ السري لطنجة بمواخيرها وحاناتها وبارات الأجانب فيها، والتاريخ الشفهي لثقافاتها التحتية ولروادها من صعاليك المغرب والعالم معاً، وسجل تحولاتها وأوجاع بنيها. ولا يمكن الفصل في هذا المجال بين تحولات المدينة وتحولات الراوي فقد إدّغم كل منهما في الآخر. وأصبح ابن الحانات والليل يحب ليل بيته فيها لا ليل الخمارات، وصباح الجبل والبحر لا صباح الشوارع اللاهثة، والمقاهي التي تنتظر أول المستهلكين. فيها قرأ هاينريش هايني وعرف رامبو وڤيرلين ونرڤال وبودلير وشيللي وكيتس وبيرون. كما اكتشف سارتر وروسو وروائع الشعر الإسباني وحياة ڤان جوخ وكل العلامات الهامة في رحلته الثرية مع الأدب ومع المعرفة، وفيها أيضاً واجه الجنون والانهيارات العصبية وعرف سلام الروح لما اكتشف سر المكان. وتوشك الفصول العشرة الأخيرة أن تكون دراسة شائقة في جغرافيا هذه المدينة البشرية، وأركيولوجيا تراكمات العابرين فيها من الأجانب والشعراء والمحبطين، ومن الأحداث والمآسي والأعمال. وتبلغ هذه الفصول ذروتها في قصيدة النص الأخيرة «طنجيس» التي تلخص كل تجربة الراوي فيها، وتوطد أواصر حلوله في تواريخها وحاضرها معاً، تصالحه معها، إدّغامه فيها، وحلولها فيه.

ولا أود أن أختم هذه الدراسة دون كلمة سريعة عن استخدام هذا النص الشائق للزمن. فمع أنه يبدو للوهلة الأولى أن النص يلتزم بالتسلسل الزمني في تعاقبه وتتابعه، إلا أن النظرة المتفحصة ستكتشف أن هناك الكثير من المراوحات البندولية في حركة الزمن فيه، والكثير من القفزات إلى المستقبل. فنحن نعرف أن الجزء الأول من هذه السيرة الذاتية كتب في أواخر الستينات أو مطالع السبعينات، وأن الجزء الثاني كتب عام ٩٠/٩١. ومن هنا فإن الكتابة في الجزأين تتم بمنطق الزمن المستعاد. لكن هذا المنطق وإن سيطر على معظم أجزاء «الخبز الحافي» تعرض لعدد من التحولات في «الشطار» التي ازداد فيها وعي النص بنصيته كما ذكرت. وأصبح استخدام النص للزمن يخضع لسيطرة الراوي على مادته وأولويات تراتبها أكثر مما

يخضع للتسلسل الزمني نفسه. ولأن موضوع الجزء الثاني هو الميلاد والاحتفال بقيمتي الوعي والحياة، فقد انتابت هذه الاستراتيجية في التعامل مع الزمن كل الحالات التي ورد فيها ذكر الموت في النص. إذ يقدم لنا موت الأب في ٧٩ قبل ٢٣ عاماً من حدوثه، وكذلك موت صديقه الأعمى المختار بعملية جراحية عام ٧٤ قبل حدوثه بوقت طويل، وموت الأم عام ٨٤ وتدوين التاريخ باليوم قبل سنوات عديدة من حدوثه. وهذا الاستباق المتعمد للموت ينفي أثره الفاجع عند حدوثه، ويقلل من تأثيره السلبي على عالم النص.

لندن ـ حزيران/ يونيو ١٩٩٢ — صبري حافظ

المحتويات